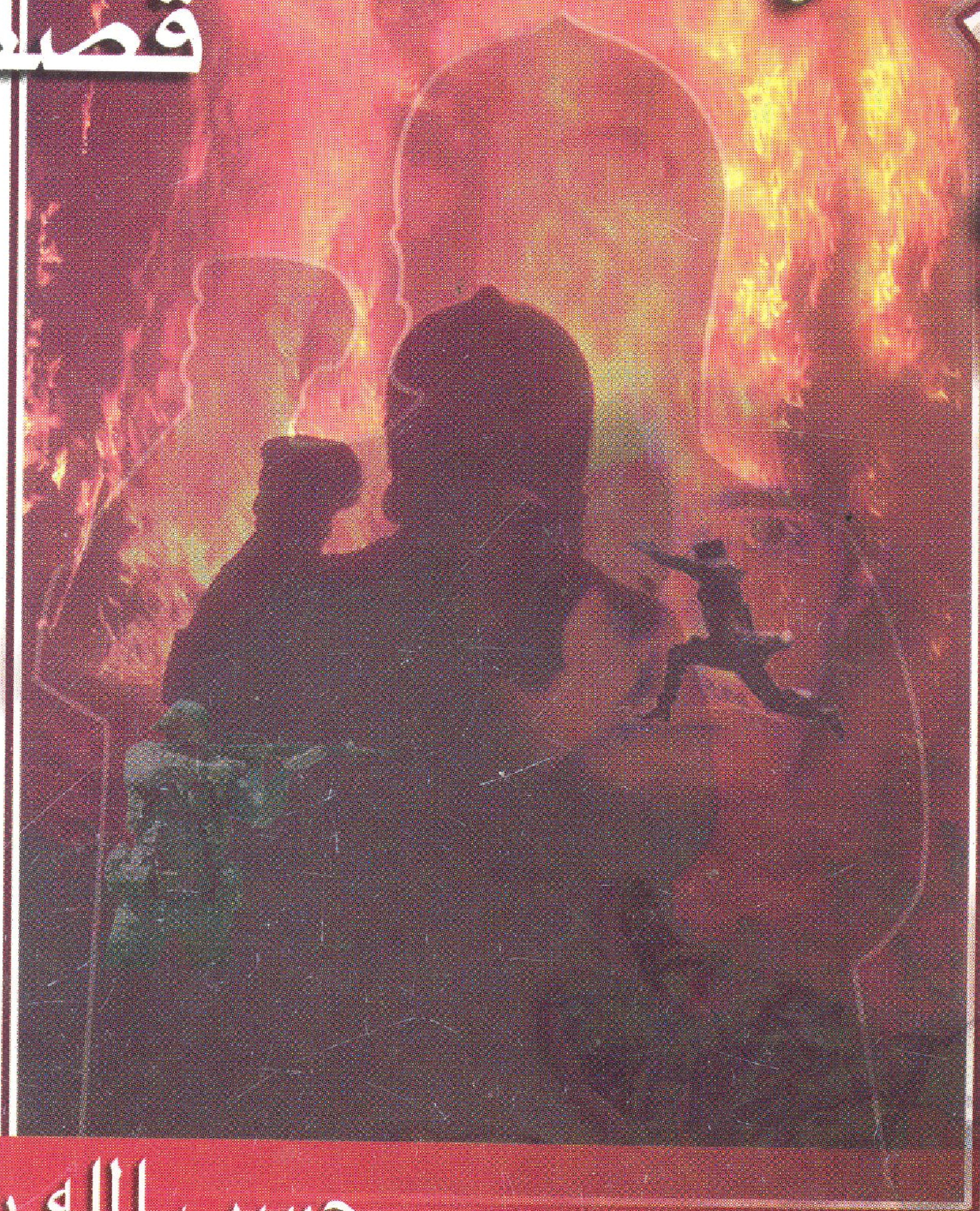
إرهاب

قصص



حسب الله يحيى

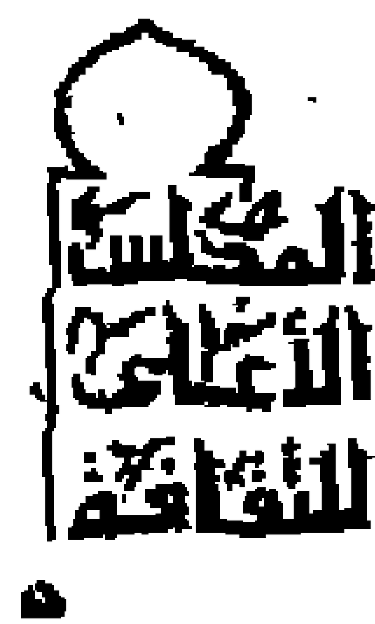
المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

إرهـــاب

قصص عراقية

حسب الله يحيى



٢٠٠٣

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : إرهـــاب

اسم المؤلف : حسب الله يحيى

الطبعـــة : الأولى – القاهرة ٢٠٠٣ م .

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس : ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St, Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax: 7358084.

السيرة الذاتية للألم

أرق . أرق . أرق .

فى ليلة الأرق تلك . فى تلك الليلة من الأرق : فى القلق الذى سهر تلك الليلة حتى مطلع الفجر ، حتى الفجر فى مطلعه .. حتى فى بكارته الأولى حتى فى الضوء الأول من .. ومنه بدأت الآلام . معه بدأ الصبح . فى الخيط الأول طالع الألم وجه يوم جديد ...

جديد الألم .. أنه يتراكم ، يتضخم مثل جبل ، مثل كتل لا سبيل إلى إزاحتها ، لا رجاء فى إرجائها . كأنما النهاية معزولة عنها ، متوقفة دونها ولا يمكن أن تصل إلى حدودها وكأنما تخشاها خشية من كتل فوق كتل ... فوق كتل ... فوق ، فوق ... دائمًا فوق .

كل الجبال لها ارتفاعها . كل ناطحات السحاب لها ارتفاعها .

كل الطائرات التى تحلق عاليًا لها ارتفاعها . كل الطيور ، كل الجوارح كل الغيوم ، كل ... كل شىء له ارتفاعه ... إلا ... إلا ... الألم .. فقد تجاوز كل المديات ، كل ارتفاع . كل موج ...

هذا الكائن الحقيقى المعروف برائحته وحجمه وطعمه وشكله معروف ، معروف تمامًا . الكل يعرفه . والكل يسعى لإغفاله ... أما هو .

هو الألم ذاته فيعرف عن نفسه كل شيء . ولا يريد . أن يخفي أي شيء ، وهذا اليوم يريد أن يقول كل شيء لعل الألم الذي فيه يخف ، لعل هذا الحزن وهذا الأسى وهذا العذاب وهذا الوجع ... وهذا .. وهذا قد يخف .. قد .

سيكتب الألم سيرة حياته ، لأن أحداً لم يفكر بكتابة تلك السيرة ... لأن هنري ترويا كتب عن الكثير من العظماء ونسي الألم .

لأن ستيفان زفايج كتب عن آخرين ونسي الألم .

لأن جان جاك روسو اعترف بكل شيء ونسي الألم .

لأن اندريه مالرو دون ما اسماه اللامذكرات أو المذكرات المضادة ونسي الألم ، لأن كولن ولسون سطر الكثير عن حياته وحياة سواه وأغفل الالم ... لأن طه حسين ظل يكتب لعدة سنوات حتى انجز الاجزاء الثلاثة من (الأيام) وأهمل الألم ... لأن ، لأن .. لأن الألم صار يمتد بعلو السماء واتساع الأرض وأبعاد المحيطات ... لأن الألم بات يتسع حتى ليضيق العالم كله به ... وقد أوشك على النهاية ، على موت أكيد .. لا ينهي كل شيء ، بل يبدأ به كل شيء ... وبكل شيء ، تنمو أشياء كثيرة .

الألم الذي يتنفسه الكل من انس وحيوانات ونباتات . الذي يتسمم به الهواء ذاته .. يحسه الجميع . يعيشه الجميع . ولا يكتب عن محنته الجميع .

لذلك ، وبسبب هذا الجفاء الذي يمارسه الكتاب عمداً أو غفلة أو تستراً أو رعباً أو كذباً أو بحثاً عن عطاء سخي أو .. أو .. في الكتابة عن الألم .. فقد قرر الألم كتابة سيرته الذاتية متخذاً صيغة الغائب بدلالة الحاضر ، والحي بدلالة الميت . والمضيء بدلالة المنطفيء ، والجماد بدلالة المتحرك ... كل المعاني مختلطة . كل الشواهد متخفية ، كل الوقائع حالمة

أو كابوسية .. لا فرق ... ولا فرق أن يوضح الألم طريقته فى الكتابة ، أو الكتابة عندما تخرج عن سلطتها وتتحول إلى كائن لا تعرف له هوية . فكل الهويات تمزقت .. وكل لا يعرف شأنه . وكل مطلوب على أن يشهد عن نفسه وعن سواه .. حتى يتحقق عدل مهدور ، وحرية هواؤها فاسد .

بدأ الألم صباحه بالجوع .. فتش عن كسرة خبز يابسة .. استبق الضوء إلى ركام النفايات فى الأماكن القريبة والحميمية باضلاعه وأنفاسه .. فلم يجد سوى بقايا طعام متعفن لا يستطيع أن يحدد شكله أو طعمه ... لكنه شيء مما تعافه المعدة ... وتفضل عليه الجوع .. فهو أكثر رحمة .. من هذا البطر الذى جعل من البقايا كتلة تختلط مع أشياء كثيرة ... علب بيرة وقشور فستق وموز .. و.. ولحوم .. اللحوم التى نسيها الألم . نسى طعمها . أو .. أو هى التى نسيته .. لاشأن لها به . اللحوم ... لمن له لحم العافية .. لا لمن اختزن قشور كائن بشرى .. اللحوم التى من لذتها تثير ملذات رقص فى القلب والغرائز والمعدة .. اللحوم التى من بهجتها تطير وترعى وتسبح ، لتكون لذة للآكلين الذين لا يعرفون معنى الألم .

عاد الجوع واستكان ورضى بأن يرافق الألم ، وهو يتوجه بحثاً عن عمل .. لعله يحقق سبيلاً إلى الشبع .

الألم ظل ينتظر فى ساحة تجمع فيها كثرة من العاطلين .

وفى مقهى قريب عطر الألم أنفه برائحة الشاى . لا شيء ألذّ من شاى الصباح . لا صباح بلا شاى ...

انتظر الألم ... ويوم من البطالة يرسم رقمه فى المعدة حتى نسيت الذاكرة التعداد ... فالرأس منشغل بفراغها .. فراغ المعدة يعنى فراغ كل شيء ومصدر كل ألم .

انزوى الألم في زاوية عفنة لم تقربها شمس الصباح ، ربما خجلت أن تقترب من العفونة ، ربما كرهت أن تحصر فى زاوية ، ربما قالت ... هناك من سيسد عليها الطريق ، يقفل عليها ثم يغتالها . الشمس تفكر . الألم يفكر .. حتى الموت يفكر بالاحياء بدليل أنه يترك أشلاءه لمخلوقات جائعة ... وقد ينبت الأعشاب لمخلوقات .. أخرى .. الشمس والألم والموت .. كل الأشياء تفكر ... إلا هذا الجدار الذى يسقط حجرًا ... حجرًا .. وينخر فيه العفن .. ومع ذلك يزعم أنه باق وشامخ وأعلى مرتبة من كل ما خلق الله !

جدار أصم .. يمكن أن تزرع فى جوفه آلات تصغى . الغام تفجر ..

سموم تقتل فورًا من يلمس أو يقترب أو يحدق فيها .

لا تتكىء على الجدار فى هذه الزاوية أيها الألم .. ابحث عن مكان آخر الأماكن كثيرة وأرض الله واسعة ، ولكن وسع الأرض .. وسعها كله لا يتسع للألم ..فإلى أين تلجأ أيها الألم ؟

كن كائنـًا نباتيًا .. كن عبقريًا .. هيا باهى بنفسك الأمم .. كن مثل : المعرى أو برنارد شو ... اعتمدا النبات مأكلاً ..

لا تكذب على نفسك أيها الألم . كانا نباتيين ... بمعنى أن كل ما هو لذيذ من الشجر .. حلو فى الفم .. أما أنت فلا اختيار لك سوى الحشائش التى ربما رمت الحيوانات بسوائلها فوقها .. ابحث عن نبتة الخباز ... لم تجده منذ زمن . هل ترك الله زراعته ؟ ووجدته فى سوق الخضار يباع بنقود عافها جيبك منذ زمن أيضًا . فعجبت وعجب الناس لعجبك وإلا ما معنى أن تعجب بأوراق الخباز المخضرة أن تباع ... أنسيت أنك قمت ببيع سنك المغلف بطبقة من مادة يسمونها البلاتين بثمن جاء

برغيفين ... أنسيت أنك قمت ببيع أكثر من قنينة دم لمن يحتاجها ... وكنت تريد الاستمرار فى هذه المهنة إلى أن صرفوك فى مصرف الدم وقالوا لك ... دمك لم يعد يفيد احدًا ! ؟

أنسيت أنك ذهبت إلى المستشفى قاصدًا بيع أحدى كليتيك ... لمريض يحتاج إليها .. حتى إذا قاموا بفحصك .. قالوا لك أنك بكلية واحدة ... انسحب كل هذا أيها الألم ؟ أنسيت من هذا المكان أيها الألم .. ابحث عن مكان لا يتألم .. لايعرف . معنى الألم ..

توقف الألم الحافى عند نخلة ذبلت أغصانها ، وتساقط منها شيء جاف لا يعرف له اسماً .. واراد أن يسميه نواة ... وتبين أنه يختلف عن النواة بالهزال والضآلة والانكماش .

كانت النخلة عطشى مثله .. هى مثله تمامًا .. هو مثلها تمامًا .. هى الأرض مثلهما تمامًا ، هى الشمس فوقهما عمودية تبحث عن ارواء . لا لغة لمن يعانى من عطش . لا لغة لمن يكتب سيرته الأليمة ... ألم . ألم . ألم .

من الجوع إلى الجوع . من العطش إلى الجفاف . من اللاظل إلى اللاظل . من البطالة إلى التشرد ... من الألم إلى اللا ألم . توقف الألم عند حائط . الحائط متين . كم تمنى أن يكون بمتانته . لو كان لاصغى ، لانبسط ، تسطح وصار أرضًا تزرع . لو كان لفجر ينبوع ماء من قلب الحجر .

لو كان ... لو كان .. لكن الألم لم يكن يومًا سوى الألم ...

تألم الألم الحال التى هو فيها ... وتساءل من أين جاءه هذا الألم ... ألم يكن الألم يعرف قبل أن يقول : هيدغر « لاشيء يكون بدون علة ! ؟ » .

معرفة العلة ... تزيد الألم ألمًا .

معرفة أن تعرف مصدر ألمك ... تلك هى العلة يانفس ... أذكر شكسبير بخشوع أيها الألم .

أنت ألم مثقف ، أذن أنت غير قادر على العيش ... كن مصدر عيش للآخرين . تخلى عن مشروعك فى كتابة سيرتك الذاتية .... واستسلم للموت ... افتدى نفسك لمخلوقات آخرى تحتاجك ميتًا بعد أن عجزت عن الاحتياج إليك حيًا ... فأنت باسنان ... منخورة ، ودم معدوم الفائدة ، وانفاس مختنقة .

مت حتى تعطى هذه الارض شيئا من نفسك ، من ألمك ... حتى تتغذى من فناء جسدك مخلوقات تطلب لك هدوء الموت ... واستسلم الألم للموت ... تاركًا سيرتك الذاتية لهنرى ترويا أو سواه ممن يهمهم كتابة سيرة من لا سيرة لهم ، فهل كان للألم تجربة مديدة وعمرًا عامرًا بالأسى ... لتتحول كلها إلى سيرة ذاتية ! ... ربما سيفكر هنرى ترويا بذلك ... وربما سيجىء : كونيين بيل بسيرة جديدة عن الألم يستبعد فيها عن ذاكرته كل تلك الصفحات الهامشية الطويلة التى كتبها عن فرجينيا وولف ... فآلام فرجينيا وإن فكرت مرارًا بالأمها ... حتى وضعت حدًا لها بالانتحار ... ماتت عن ترف ... ألم يفزعها كونها كانت مرتاحة البال ؟ .

وحتى ... حتى : يوكيوميشيما عندما قتل ألمه ، قتله عن إرادة ورغبة ... ألا يكفى أنه قد عرف كيف يكتب فى صباه عن «غابة مزهرة » ، وأنه كان عاشقًا محترفًا لحبيبة فى الستين من عمرها وهو فى الثانية عشرة من عمره ؟

أنت أيها الألم .. كانت كل سيرتك مرة كالحنظل ... والفرحة النادرة تتعطر ... تتعطر ... كقطرة مطر فى صحراء ... والصحراء باتساع المدى ...

وكل شيء فيك أيها الألم سيرة تمتد لسيرة من تعرف ومن لا تعرف ... سيرة آلامك .. يكتبها زمن ما ..

مت . اسكن بهدوء . دع ألملك يهدأ إلى الأبد ... فربما . ربما .. وربما بالتأكيد سيجد من سيرة هذا الألم الذى جرك إلى الموت بؤرة ضوء ... ربما .

الذكريات الممنوعة

تجلس هادئة ، حولها صور ملونة ، وباقة أزهار موضوعة في قدح . جلس أمامها حزينًا ، بقلب دامع .. وحدقت إلى (الورد الجهنمي) أمامها .. سألت نفسي . هل يعذب الورد ويوضع في جهنم ؟

وأجبت .. هي ترعاه وتحنو عليه وتداوي جراحه وتسقيه الماء لتبعث فيه الحياة . وجدت نفسي جالسًا في القدح .. ! وعجبت لأمري . فالدمعة فضحت مشاعري . خاطبتني باسمي ، وتولت أمر مواساتي ، وتوسلت إليّ أن أهدأ .

طلبت إليّ قدحًا من الشاي . اعتذرت ، كنت أعلم بأن الشاي سوف يمزق أمعائي . وظلت تحدق في وجهي .. وكنت أبحث عن شيء أظل أحدق فيه حتى لا تلتقي عيني بعينيها ، وعندئذ .. عندئذ سأبكي ، وأضيف همًا جديدًا إلى همومها .

وكنت أعلق وإياها آمالاً .. وكانت أمالها أكبر .. وأنا حزين لا أستطيع أن أتعلق بخيط من ضوء الشمس .. فالشمس ستغيب والخيط سينقطع ..

وتقول العكس : الشمس تشرق كل يوم .. وكل الكائنات تنتظر طلوعها وتمنى أفراحها بالضوء .

– لكنه ضوء مؤقت ، ضوء تقليدي خداع . أنا أبحث عن ضوء ، ضوء عميق .

– أنت متشائم دائمًا . ومنذ عرفتك ، عرفت أنك تحمل أحزانًا متراكمة .

– وهل خف هذا التراكم ، هلي زال بعضه .. ؟

– أضيف إليه همومي .

– همومك ، ملك مشاع للناس .. وهذا الشيء الوحيد الذى يخفف عنك ثقله .

– كيف ؟

– زوجك المفقود ، وابنك المفقود ، جيلان .. الآباء والأبناء فى خندق واحد كنت أريد أن أقول لها ..

زوجك .. كل الرجال وأنا معهم ، وأبنك .. كل الأبناء وابنى معهم ..

وآثرت الصمت حدقت فى الورد الجهنمى .. وعلى غير توقع منها .. استأذنت بالانصراف ، حاولت أن تعتذر عن إثارة الموضوع أمامى .. وتوسلت بقائى فترة أطول .. غير أننى كنت أصر على الانصراف ، خشية الضعف أمامها ..

حاولت أن أبدد أحزانى ، وأن أسير حتى أتعب ..

كنت تعبأ ، غير أننى صرفت تعبى بالساعات التالية سأشاهد خلالها عمارات سكنية ترتفع . ونافورات يندفع ماؤها بقوة ، كأنما يريد الخلاص من مصار الأنبوب الذى يضيق عليه .. وصور كثيرة ، بحجوم وألوان مختلفة .

احترت بأصابعى فقد كنت أعرف بحركتها اللا ارادية حين أكون قلقا .. وضعتها فى جيبى .. وفوجئت بأن الأنظار تحدق إليّ . حاولت أن أصرخ .

– أيها الناس .. لا شيء لا شيء في جيوبي ، لا بيانات سرية ممنوعة ، ولا جهاز التقاط ، ولا مسدس سريع الطلقات .. في جيبي فراغ .. كلا .. هواء وأنا أطرد الهواء واشغل الفراغ .. أليس ذلك من حقي .. أنه بنطلوني أنا وليست بناطيلكم لأسرق ما فيها ، أو اضع الممنوعات في داخلها .. أنا لا أمارس هذه المهن .. ودائما أحمل أكثر من هوية في جيب بنطلوني الخلفي ، لأثبت شخصيتي .. فبدونها لا أساوي شيئا ، ولا يمكن معادلتي برقم ، أي رقم .. فالأرقام أشياء محسوسة ، وأنا رقم غير مادي .. !

وضعت يدي فوق رأسي ، أقاوم الصداع الذي انتبني فجأة وحرارة الشمس ، وفوجئت بأن العيون ترصدني .. والعيون تقول بأن هذا الرجل يحمل رأسًا ، وهو يستخدم رأسه للتفكير في أمر ما .. نعم ، نعم ذلك وارد .. فالنباتات مزهوة لأنها بلا رأس .. أنها لا تشغل نفسها بالتفكير ، لذلك تتلون وتعطر الجو .. فهي بلا هموم .. والقطة ، القطة التي تألفني وتلامسني كلما تراني .. هل تفكر .. ؟ تفكر نعم ، فهي تميزني ، فحين أطرد القطط الغريبة التي تريد أن تخاصمها أو تمارس العاطفة معها قسرًا ، تلجأ إليّ لأنقذها .. ولا أخيب أملها .. وعندئذ تبقى ساكنة ، أليفة .. وتهرب بقية القطط من غضبي .

هي قطة تفكر بأمنها .. وأنا أفكر بأمني وأمن من حولي .. وهذا هو الاختلاف ما بين تفكيري وتفكير القطة .. وببلاده النبات .

وأسير .. ويدي على جانبي جسدي .. ما الذي أفعله بها .. ؟

سأدخن .. وأبتاع علبة سيكائر من النوع الرديء بثمن مضاعف .. واتوقف عند خزان للماء البارد .. وحين أريد أن أدفع الثمن لا أجد أحدًا

لاستلام النقود ، انتظر .. فأنا أمين على حقوق الناس .. غير أنني ، وعبر التفاتة إلى الخزان قرأت الجملة التالية " أشرب ، واطلب الرحمة للحسين الشهيد " .

طلب الرحمة ، اعتذار . أنا أدفع ثمن الماء .. بكلمة (رحمة) واتذكر الحسين ودمه ، واعتذار عن دمه القتيل .. اعتذار ، اعتذار !

توقفت فجأة ، كلمة « الاعتذار » أثارتني .. غدًا سيفرجون عن زوجها وابنها ويعتذرون ، وربما في الغد .. سيعتذرون أيضًا .. فلا وجود للأسمين في قوائم المفقودين .

هذه .. أجوبة التفاؤل التي تنتظر المرأة .

أما أجوبة الحزن ، فهي أخف كثيرًا من حالة التعلق بشيء مجهول ..

فهي لا تعرف أسباب الاعتقال ، ومكان الاعتقال ، وإلى متى سيستمر .

وقد يكون مختطفًا هو وابنه .. ولكن لا أعداء لهم .. فكل من حولنا يحبهم .. كانت تقول بثقة عالية .. وربما غرقا أو دهسا .. لكن الماء لم يكشف عن جثتيهما . والمستشفيات لم تستقبل حادثًا باسميهما ..

فهل تكون الأرض قد انشقت وابتلعتهما ، وهل صعدت روحهما إلى السماء كالمسيح ، وهل ألقيا في بئر عميقة كيوسف الصديق .. ؟

حاولت أن أتذكر وجه الزوج الصديق ، وابتسامه ابنه ، وتفاؤل الزوجة التي مازالت تنتظر عودتهما منذ سنوات .

الدقيقة الواحدة من الانتظار صعبة .. الدقيقة تمتلىء بالذكريات ... الذكريات العزيزة والأليفة ، والكلمات الخضر .. وتغيب مواقف الحزن والجراح التي تشفى .. الذكريات الأجمل .. هي الأبقى ...

أذن كيف تصبر هذه المرأة العنيدة .. كيف تدفع بالصخرة إلى الأعلى مثل سيزيف ولاتيأس .. كيف تمارس عملها اليومى . وتفكر بأشياء كثيرة وهادئة وسليمة .. وذاكرتها مملوءة بالصور .. ؟

عجبت للمرأة هذه ، كنت أحسد فيها الأمل ، واكثر ما يسعدنى فى حياتى كلها أن أراها سعيدة ، سعيدة ومتفائلة .. ومتى فقدت هذا التفاؤل .. أكون قد امتلأت بالحزن ، وافتقدت كل حاجتى لأن أتنفس .

تعبت قدماى .. ورأسى ثقيل ، ولا أقوى على حمله ، وحمل الذكريات الممنوعة التى فى داخله . وتذكرت موضوعًا قرأته فى صحيفة يومية عن اختراع جهاز جديد بأمكانه أن يكشف كل ما يحمله الإنسان فى ذهنه من أسرار .. يكشف هويته السياسية ، وعلاقته العاطفية ، يكشف احزانه وأفراحه معًا !

الممنوع سيحصده حتمًا ، والممنوع سيحصد سواه أيضًا ، والممنوع سيجعل الأمور أسهل فى كثير من الحالات ، فسيقل الزحام على شراء البيض واللحوم والخبز ، وسيتكىء الركاب فى السيارات بارتياح .. إذا لم تتوفر لمعظمهم سيارات خاصة .. فهم قلة ، وآمنون .. فما دام ملك الملوك يجلس على كرسيه سعيدًا ، فالدنيا بخير ، لاهم ولا مرض ولا شأن للرأس بأن يفكر فى أحلام ممنوعة . وعلى الجميع أن يحتفلوا بزفاف ملك الملوك فى يومى الخميس والجمعة ، ذلك أن الطبيعة وخالقها قد اختصهما لأحد الكواكب الأثيرة عنده ، وهو كوكب الزهرة ، فيما اختار بقية الأيام للكواكب الأخرى .. فالسبت لزحل ، والأحد للشمس ، والاثنين للقمر ، والثلاثاء للمريخ ، والأربعاء لعطارد .

ملك الملوك أذن فضل الزهرة ، فامتلأ الناس مسرة ، واختاروا الزواج وانبات المخلوقات البشرية فى هذين اليومين السعيدين .

ازداد ثقل رأسـى .. واخترت الجلوس على الأرض تحت جدار ترك ظلاً .. ولم أعرف بأننى غفوت .. إلا عندما دفعت بصرى إلى أعلى، فشاهدت شيئًا اشبه بمخلوقات الله المنعمة والمعافاة ، يصرخ فى وجهى ويطردنى ..

– يا .. يا أستاذ ، ليس هذا مكان للسكارى .. هذا المكان ليس فندقًا اذهب من هنا .

لم يكن الوقت . مناسبًا للسكارى كما أعلم .. فالنهار فى منتصفه ، والسكارى نادرون فى هذه الوقت ، فلماذا ظن بى هذا الرجل .. كونى سكيرًا ، بدل أن أكون متعبًا ومريضا وأشكو الصداع القاتل .. كا هو واقع امرى فعلا ؟

قلت : لماذا يكون مثل هذا الذى فى ذهنى نادر الوجود فى تفكيره .. ؟ فمن حقه أن يكون إنسانًا سويًا كباقى مخلوقات الله ، كون كل انسان متهما فى قضية مالم تثبت براءته . والتهمة موجودة ، ويمكن تفصيلها ضمن مقاييس مختلفة ..

ومشيت .. بحثت عن مقهى قريب ، فلم أجد .. فكل المقاهى قد تحولت إلى (بارات) وتعليل ذلك قائم على أمرين : الربح لصاحب (البار) والخلاص الأجوف من الهموم فى تناول الزبائن لمزيد من الكحول ..

الحزن ، الحزن .. أكان لزامًا أن يرافقنى كظلى ، أكان لزامًا أن يكون أصدقائى فى وضع حزين وقلق مثل أحزانى وقلقى ؟

ابتسمت .. وقلت : لو لم يكونوا على شاكلتى ، لما التقينا ولم نكن أصدقاء .

وصلت المنزل مرهقًا . استقبلتنى زوجتى بالشكوى من الأبناء .. والشكوى من صداعى الذى لا يفارقنى ..

– لقد تعلمت هذا .. صداع دائم ، وأبناء مشاكسون ، وكل الإرهاق لايقع إلا على عاتقى .. أنت لاهم لك سوى الانشغال بصداعك وتذكرت القطة التى لا تفكر إلا بنفسها ..

قلت لنفسى : مادمت قد حققت الأمان للقطة ، فينبغى أن أحقق الأمان لزوجتى من الأبناء المشاكسين .. وهذا أحد حقوق الزوجية المطلوب تنفيذها . صرخت فى أبنائى . خاطبتهم واحدًا واحدًا .. ألزمتهم بالنوم .. خافوا غضبى ، واستلقوا على أسرتهم بعيون مفتوحة جامدة ، أو عيون مغمضة كاذبة . انشرحت أسارير الزوجة .. خاطبتنى : هكذا الآباء .

صمت وتظاهرت بالنوم .. ونامت القطة التى فى داخلها .

ونهضت على أطراف أصابعى . جئت إلى سرير واحد ، واحد من أبنائى وهمست فى أذن كل واحد منهم : إذا لم تكن راغبًا فى النوم ، أذهب والعب أو اقرأ قصة تعجبك .. استجاب واحد منهم ، واختار البقية الانصراف كل إلى حريته .. سررت .. فقد أطلقت سراح أبنائى ، وكان على أن أحاصرهم بالنوم ، علىّ أن أفقدهم إنسانيتهم .. وأجعل (الممنوع) سارى المفعول فى دارى . فرحت بقرارى .. وغفوت .

**

فى الزمن القصير لغفوتى لاحقتنى تلك المرأة .. ولاحقنى زوجها وابنها .. لاحقنى شىء اسمه « الضياع » أو « الفقدان » .. سألت : ضياع ، فقدان .. المسألة تتعلق بفقدان بشر ، وليس فقدان قرط ، ولاضياع حاجة مادية ..

هذه الأشياء يمكن العثور عليها بسهولة .. وفى حالة عدم العثور عليها لا يعنى الأمر أكثر من الحزن المؤقت ، والحزن المنسى لاحقاً ..

لكن التذكر .. التذكر الذى يشغل الذهن عن انسان عشت زمانه وعاش زمانك ، كيف تلغيه من الذاكرة ، كيف تمزق أوراقه ، وتلقى بصوره بعيداً عنك .. ؟ جبال الثلج تذوب ، وضوء الشمس يغيب ، والعاصفة تهدأ ، وأفراح ملك الملوك مازالت باقية .. وذكرياتنا الممنوعة باقية .. باقية .

وتذكرت جواب المرأة وهى تسأل .

– أتعلم سر بقائها .

وقبل أن أجيب قالت : لأن الذكريات الأصيلة ، الأصيلة ، لا يمكن قطعها ، لا يمكن أن تستأصل ، لأن جذورها عميقة ، عميقة .

وأقول لنفسى :

– هذه المرأة ، قوية بقناعاتها ، قوية بتفاؤلها ، وقوية أيضًا بأحزانها .. فمن خلالها تتحدى من حولها ، وتتنفس الحياة .. تسقى رودها الجهنمى .

القفـــل

في الفجر الأول من تموز ، استيقظ القفل من ليله .. وقال في نفسه :

– أذكر أن الكثيرين ممن ارتادوا هذا السجن قد تحدثوا عن هذا الشهر والثورات التى اندلعت فيه .. هنا وفى عدد من بلدان العالم .

وثمة صورة ظلت عالقة فى ذهنه ، هى أن تموز اسم لأحد الآلهة السومريين والذى ارتبط اسمه بالمياه العذبة والحياة الرغيدة والأرض الخصبة .. وهو تعبير عن قوة الحياة فى مواجهة الموت . هو النعمة المزهرة فى حياة الناس ..

اذن .. ومن هنا أحب القفل يقظته فى هذا الفجر التموزى .

ولم يكن هذا الحب كافيا لئن يجعل القفل سعيدا .. فمازالت مهمته قائمة منذ سنوات طويلة .. وإذا شاخ أو تمرد ، أهمل واستعيض عنه بآخر يحمل بريقا . ثم يضيع هذا البريق مع تقادم الزمن .

القفل أحس اليوم بأنه كائن ، من حقه أن يؤدى مهمته التى يجى به من أجلها وقد أداها لسنوات عديدة .. الآن ، أليس من حقه بعد هذه الخدمة الطويلة أن يحرر نفسه ، وأن يرى ضوء الشمس .. بفم مفتوح وإرادة حقيقية ؟

فمن النادر أن يرى القفل الشمس ، ولكنه كان دائم الإصغاء إلى هؤلاء السجناء الذين يتحدثون عن الشمس وضوئها ، مثلما يتحدثون عن حبيبة غالية . وهم يطلبون تناول البصل ليعوضوا عن ضوء الشمس الغائب .

أمهم هذا الضوء إلى هذا الحد ؟

أنه لا يرى ضوء الشمس ولا يتناول البصل .. ولذلك بقى جافا صامتا لا أهمية له أمام نفسه ، إلا أن أهميته قائمة فى نظر كل الذين يحيطون به ، من السجناء والحراس وحتى مدير السجن .. فهو يشعرهم بالأمان .. يحفظ البشر داخل أربعة جدران ، كما يحفظ زميل له كلبا فى قفص حديدى أو كنزا وربما بلبلا .

الإنسان ، والكلب ، والكنز والبلبل .. أشياء وأشياء واحدة ، ومهمة القفل الاحتفاظ بها زمنا طويلا .. إنه حارسها ، ولا فرق عنده بينها. هى حاجات لا فوارق لها فى مخيلته .. أنه الشيء الوحيد الذى لا يؤمن بالفوارق العنصرية والطبقية .. ولذلك استطاع أن يكتسب رضى كل الحكومات التى يعمل معها بكل دقة وبكل اجلال واحترام .

لكنه فجر هذا اليوم فجر غير اعتيادى بالنسبة إليه .. فقد طليت القضبان أمس وبقى هو على ما كان عليه من سنوات .. وتساءل هل يخافون تغييره وتمرده ؟ أنه لا يقوى على التمرد لو علموا فمفتاحه بأيدى حارس صارم .. ولا سبيل إلى النجاة .. شعر القفل بغبن يلحق به .. فهو من بين سائر الجدران والقضبان لم يمسه طلاء .. لم هذه التفرقة ، لم .. من سمح لهؤلاء أن يتجاوزه .. لتكون خلقته بشعة بهذا الشكل ؟

فجر الأول من تموز، فجر له خصوصية فى ذاكرة هؤلاء الناس .. لقد أحس وجودهم واحدا واحدا ، وسهر معهم ليلة الأمس والليالى السابقة ، عايش آلامهم وعذاباتهم وآهاتهم واستمع كذلك إلى أناشيدهم ، وإلى ضحكاتهم المكتومة .. هل يفشى أسرارهم .. ويعلن أنه قفل أهل لثقة مدير السجن والحراس ؟

فكر القفل مليا .. وكره موقفه هكذا أمام فتحة الباب .. أحس بأنه حاجب ذليل إلى حضرة ملك عتيد ولكنه هزيل وتافه .. ولأول مرة انتبه القفل إلى أنه يؤدى مهمتين لا علاقة لأحدهما بالآخرى .. فهو جلاد ، نعم جلاد وأمين .. أمين على ماذا ؟ جلاد لأنه يضع حاجزا بيته وبين السجناء وتطلعاتهم نحو الخارج ، نعم هو جلاد متربص لكل من تسول له نفسه الهروب من السجن والعيش تحت ضوء الشمس .

وأمين ، أمين مثل كلب أمين على حفظ الناس من المجرمين والقتلة واللصوص .

ولكنه ليس بقاض ليحكم وليحدد وليوجد فواصل لمهماته بين أن يكون جلادا أو أمينا على أرواح الناس .. وما الفرق بين الجلاد والكلب .. الجلاد والقتلة .. الوحدة تجمعه بهم .

وتساءل .. هل بإمكانه أن يفر من هذه المهمة .. وأن يخرج مرفوع الجبين ، أم أن الطبيعة قد حكمت عليه أن يظل هكذا مركونا فى زاوية من الباب مهمل ومحتقر وذليل ؟

أحاديث السجناء فى الليلة الماضية أيقظته من ليل عميق كان يغشى عينيه ويحولهما إلى مادة صلبة غير قابلة للانكسار .

الآن يحس بوعى جديد ، بامتلاك آخر للحياة .. بأنه لا يوجد شىء يعادل الهواء المطلق .. أو على نحو أدق « اللاقفل » .

لكن احساسه هذا ، لا خلاص له منه لا نجاة ينتظرها .. هل ييأس ويظل فى فجر تموز مثل كل الأزمنة التى مرت عليه ؟

انتابته حالة من اليأس والقلق .. ويحث عن وسيلة ينقذ بها نفسه من هذه الوساوس المرهقة .. وفجأة أطلت أمام عينيه علامة استفهام .. وتساءل :

– من يا ترى أوجده على هذه الصورة .. من جعله فى هذا الموقع .. أليس هو الإنسان نفسه ؟

وتخلص من بعض غضب احتدم فى أعماقه ، لكنه توصل إلى حقيقة جديدة ، قال :

– بالتأكيد ليس هؤلاء من اخترع القفل .

– ومن اخترعه إذا ؟

– اخترعه انسان أنانى ، أحب نفسه دون أن يحب الآخرين .. أخذ منهم رزقهم وحريتهم وضحكتهم .. وأرادها جميعا أن تكون له وحده دون سواء .. فاخترع فى البداية حارسا أمينا ودربه تدريبا حسنا ، فاستجاب الكلب وكان أول المتخاذلين .. أليس كلبا .. وحين كثرت الكلاب ، وأخذت تتخلى عن مهمتها فى حراسة « السادة » وذلك عندما تستيقظ فيها الشهوة التى أخرجت فيها حواء آدم من الجنة ..فطرد الكلب من « نعم السيد » وبات يتسول لقمته من بين ركام القمم وبين .

واستعد آخرون للقيام بالمهمة .. كانوا حراسا ويحملون الرصاص ليحموا سادتهم من غضبة حق قد تواجههم ..

وحين شاخ الحراس ، وأرادوا المأكل والملبس وغرفة للنوم .. طردوا .. ولم يبق سوى القفل .. معززا مكرما ، ليس له طلبات ، ولا يشغله الجنس .. لكن الأقفال راحت تصدأ .. وتبحث عن مفاتيحها لتتخلى عن مهمتها بعد جهد طويل من العمل .

فهل .. هل يحيل القفل نفسه على التقاعد ويكفل لنفسه الراحة بعد هذا الجهد المرير من الترقب والصمت والانكماش والجفاف .

فى فجر تموز .. فى الأول منه .. استيقظ القفل الرابض فى وسط الباب الحديدى وقرر قرارا .. لا نعلم ما هو لم يعلم أحدا لأنه سيد الاسرار .. ولكن القفل قرر قرارا .. فما هو ؟

يختنق الهواء

الآن ، في وقت متأخر من الليل ، تحس بأن كل شيء حولك هادئ ، هادئ تمامًا ، إلا أنت ، مشحون باليقظة والتذكر وحمى تسري في جسدك البارد .

الآن ، يستيقظ فيك هاجس غريب بين أن تملأ الأوراق بسواد الكلمات ، أو تضي جوانبها ، وأن تجعل قلب الأوراق يتوهج .

الآن ... هاجس حقيقي يستيقظ في داخلك ، يرفض أن يستجيب .. هاجس هو أقرب إلى التمرد وإلى الإعلان عن أشياء في داخلك تريد أن تبوح بها إلى نفسك وإلى من حولك .

وتتساءل مع ذاتك : انت تعرف الحقيقة ، والآخرون الذين تخاطبهم يعرفون كذلك .. شجرة الجوز تعرف أنها احترقت بلا سبب ، الطفل يعرف أنه افتقد حليب امه بلا سبب ، الجرح في ساقك يعرف أنه ينزف دمًا دون مبرر ، حبرك الذى تكتب به هذه السطور يعرف ، أنه يد طيعة ، مفعول بها ، دون أن تكون فاعلة .. !

الهواء الذى تتنفس انسامه يختنق هو الآخر ، يبحث عن سبيل لأن يتنفس .. يضيق به الزمان والمكان .. يتحول إلى فراغ جزئي يختنق في قنينة زجاجية استلب هواؤها .

الآن .. ماذا تفعل بهذا الهدوء المجنون والخامل والكسول والمفجوع بأنينه فى هذا الليل المبهم ..

ماذا تفعل بهواء مسكون بالغموض والجريمة التى يتستر عليها الليل ، ويبوح بالرغبة فى السكينة المرة ، والبسمة القتيلة ، والألـوان المنطفئة فى ظلمة ليل يبسط ظله على كل شىء ؟

وفى الصباح ..

كنت تتوقد كالجمرة .. وحولك مديات من الأسى والحزن ..

يختنق الهواء الذى تتنفسه . يختنق عالم كنت شديد الاحساس به .

سحبت أقدامك ومضيت تبحث عن سلوى ، عن حيز يتيح لك فرصة أن تتنفس بملْ رئتيك .

قصدت دور السينما ، وقرأت اعلاناتها .. كانت كلها تشير إلى القتل والعنف والرومانسية الفجة .

جلست فـى مقـهـى .. واستـمعت إلى أحـاديث تنقل انبـاء الاسـعـار الجهنمية للمواد الغذائية ..

سرت فى شوارع عديدة ، فوجدت الجميع يستعجلون الزمن .

وأنت ضجر تبدد الوقت .. فى أمور لاتدريها. وصلت إلى سوق الغزل .. كان كل شىء معداً للبيع .. انتبهت إلى كلب صغير .. سألت عن ثمنه ، قيل لك بأنه كلب لا يصلح لك ..

سألت نفسك وهل اصلح انا لكلب معافى يتجمل بتلافيف شعره ؟

وترقبت احدًا يسال عن ثمن الكلب .. ودهشت امام الرقم الذى قيل عن ثمنه .. قلت : حقًا كان صاحب الكلب يدرك اننى لا أصلح للعيش مع كلب مدلل وأنا أعيش ذلى الإنسانى المهدور .

الكلب أكثر رقيا منى .. ليتنى كنت من سلالته لوصل ثمنى إلى ألف دينـار .. والسبب الذى يكمن فى هذا الثمن ، هو أن الكلب من اسرة ملكية ولا يشك أحد فى أصله ، فقد نشأ فى رعاية ملكية مشهود لها بالكرم وعشق الكلاب دون الآدميين .

يختنق الهواء ..

تمسك بقنينة صغيرة تضغط عليها فى فمك .. وتتنفس ..

الكلب الملكى يمرح ، فيما تكون حزينًا ..

إلى أين تتوجه ومنزلك قد اختفى بقدره عجيبة .. ويات رمادًا .. ؟

أين الأهل وضحكة الأطفال وأحضان الزوجة ..

أين شجره التوت والنافذة التى تطل على ضوء النهار .

كل شيء تبدد فى زمن تجهل الشيء الكثير عنه ، وتحاول استنطاق العالم المحيط بك .

كنت تفكر أن تحمل الحلوى الزائفة المصنوعة على شكل موزة ، لتقدمها لأطفالك ، ليتباهوا بها .. لقد جاء والدنا حاملاً الموز ..

سأله ابنه مرة : ولكن الموز يقشر ، والموز الذى جئتنا به بلا قشور . كذبت وحزنت على كذبك .. قلت : هو نوع جديد من الموز ..

ألح ابنك .. ذاك ألذ ..

– وهل تتذكر طعمه .. لقد نسيت أنا نفسى طعمه .

– أنا لم أنس .

وأحببت هذا الإصرار العجب فى طفلك ، وإن كان قد آلمك وجرح فؤادك وقال لك ..

فى بوح خفى أنت تكذب يا أبى ، هذا ليس موزا وأنما هى حلوى تخدعنا بها !

أنت الذى رافقك الكتاب والصحيفة والمجلة اينما حللت .. ماذا تجديك حروف تيقظك من أحلامك ، وتجعلك تتحس الأشياء ، إحساسًا هو الرهبة والأسى .. !

ماذا تفعل بأسئلة تثيرها ذاكرتك .. بكلب أبلغ منك ، أثمن منك ، حياته أكثر أمنًا من حياتك ..

تجىء إلى الأهل .. فتضيعهم وتجهل مكان تواجدهم .

تسير فى الشوارع بإحساس مجهول ، بجسد خرب ، بعذاب مر .

كل شىء يتبدد من حولك :

أشجار السرو ، الشاى المعطر ، رائحة الأهل ، أنفاس أطفالك ،

والليل يعاود الكرة ، يلاحقك .. تركض تريد للنهار أن يمتد غير أن ظلمة الليل كانت تهاجمك ، وتقتحم عليك وجودك .

أنت وحيد :

بلا أهل ، ولا أولاد ، ولا هواء تتنفسه بعمق ..

كل شيء تبدد .. صار مجهولاً ، وتخاف أن تسأل .. وتخاف من خوفك .

البعض عرفك وتجاهل وجودك البعض حزن من أجلك وكتم حزنه .

من تسأل ، ومن يجيب .. الكل يصد نظره عنك .. ونظرك يترجم ما كان ..

لقد ازيلت معالم بيتك واهلك .. فانت غائب كنت ، وقد جئت متأخراً بعد أن ذهب كل شيء ، تسرب .. صار يباباً .

قال لك هاتف آتٍ من أنفاس متعبة لرجل حزين .. كان يحدق منك ويحدق فى مكان أقمته يعرقك وجهدك ودموعك .

لم تقل شيئًا ..

كلب ملكى أفضل من إنسان كان يريد أن يتنفس بعمق .

موز زائف .. يعافه أطفالك ، تركوه لك ، حتى تبحث عن سبيل آخر غير مفاهيم حروف تقرأ فيها جمال الحياة .. !

انتظار المستحيل

الأب :

أحدق فى سماء غرفة جراء ، مثل فلاح زرع أرضه ولم يحصد سوى اليباب ، مثل أمم انتظرت مولودها زمنًا طويلاً ، فإذا طبيبها يعلن لها حقيقة حملها الكاذب ، مثل صياد ظل طوال نهاره .. يَعُد نفسه بسمكة .. أية سمكة تقيه الجوع ، وتعيد إليه إبتسامه ما يحملها فى أفول النهار إلى بيته ..

أحدق .. ألوّن بياض سقف ، بدا شاحبًا ، اكتسب حزنه من السجاير وأقداح الشاى ودخان المدفأة النفطية والأنين الذى يندفع فى زفرات منكسرة .

النافذة ، التى أستبدل زجاجها بخامة من النايلون الذى تجعد وانكمش فعله بفعل الشمس والهواء والغبار ، النافذة الوحيدة هذه ؛ بدت وكأنها تعكس العالم القائم خارج النافذة إلى أحزان قلبه ، مثلما تعكس قتامة الروح فى داخل الغرفة إلى الخارج .

لا شىء .. يوحى بشىء ، ولا شئ يمكن أن يستبدل بشىء آخر .

الانتظار نفسه ، والهموم ذاتها .. والمستحيل لايجيء بغير المستحيل ..

باع كل ما كان بحوزته ، كل ما اختزنه لأيام العتمة التى رسم لها

واستعد لمواجهتها .. الآخر الذى يذكره ويدق على أنفاسه .. يجعله فى موقع الندم والتشاؤم والهّم الثقيل .

أعرفه .. أعرف هذا الذى هو أنا ، المقسم إلى قطع وزوايا وعوالم وأشلاء .

أعرفه .. أعرف من أنا ، من أكون ، من سوف أكون ، من الذى لا أكونه أبدًا .

فعلت ما كان ينبغى على أب حنون أن يفعله من أجل إبنه الوحيد ، وكيف يمكنه المساهمة فى بناء مستقبل ابنه وإعداده إعدادًا سليمًا لحياة سعيدة له ولسواه من الناس .

مازن .. تخرّج فى كلية الطب بتفوق ، ومازن أكمل الخدمة العسكرية الإلزامية ، ومازن تم تعيينه فى عيادة طبية شعبية فى الريف ، ومازن يعد نفسه للزواج ، ومازن يعدنى بالكثير ، يريد أن يعوضنى عن تعب الازمنة الغابرة ، ومازن سيكون بديلاً عنى فى رسم حياة مريحة لأمة ، ومستقبلاً زاهرًا لأختيه : أنغام وألحان .. مازن وضع الجنة فى أحلامنا .

مازن وضعنا فى مسرات وسعها الارض والسماء ، وجعلنا ننتظر .

وكبر مازن فى آماله ..

وبات مازن صغيرًا ، قميئا ، محبطًا فى إنجاز تلك الآمال التى بدأت تذبل فى عينيه شيئًا فشيئا . بدأ يذوب مثل شمعة ، يعمل بجد حتى يضىء ، وكلما اتسعت مساحة الضوء التى كان يشغلها ، بات يحس بغربة نفسه ، وانكسار أحلامه .. حتى أدرك أنه فى وهم حاولت أن أزيل عنه هذا الوهم ، هذا الحزن الثقيل الذى بات يثقل على أنفاسه وذاكرته المتعبة .. كان صديقى ، مثلما كان ابنى .. ونحن نشترك سوية مع بقية أفراد

العائلة فى هذا الجمع السعيد على مائدة الطعام والثرثرة وتناول بذور عباد الشمس .. الذى أضفينا عليه صفة أجمل وقلنا زهرة الشمس .. بدلاً من العبودية التى حبسناه في داخلها .

لكن مازن بات غريبًا علينا وهو بيننا ، يحب الصمت على غير عادته ، يؤثر النوم المبكر على غير ما نعرف عن رغبته الدائمة للسهر ، مغرق فى التأمل ، عازف عن الأغانى والضحكات وحبات زهرة الشمس وأقداح الشاى .

أساله ، وأخشى جوابه ، أصمت ، والكلام يخنق أنفاسى .. وبين الصمت والكلام .. تجد رابحة نفسها فى موضع الرقيب الحنون ، والأمومة التى تكتم .. فيما تجد أنغام وهى التى ارتضيت الوظيفة ، وجعلتها كل حياتها .. وراحت أرقام الحسابات تملأ رأسها .. ؛ تجد أن دخولها إلى عالم مازن الطبى والحياتى قد يجعله مستاءً منها أو عادلاً عن حبها .

ورأت ألحان أن التعليم أفضل خيار لعمل المرأة ، كما أنه أفضل مهمة لبناء حياة زوجية سعيدة وابناء قدّوا من نجاح وتربية صالحة .. ؛ رأت أن التأمل فى عينى مازن تنم عن إحباط من جهة ورغبة ما .. مكتومة من جهة أخرى .

أما التأمل فهو ليس من طبعة .. تقول . وأما الرغبة .. فهى ليست مما يعتاده المرء .. تقول ، وتقول أن فيه إصرار على معنى وهدف ورجاء .

سألته .. وأنا أضيق بصمته . لا شىء . أعرف أنه سيجيبنى .. لا شىء ، وكل شىء يومى بأشياء .. والأشياء تقود إلى أشياء فى مقدمتها قراره باختيار السفر .

أطلق صيحة خجولة محبوبة ومحجوبة وناعمة مثل نسمة .

كان يخشى النطق .. يخشى عليّ من بوح محبوس فى داخله ، ظل لأيام طويلة يختزنه ، ذلك أنه يعرف وقع النبأ على صدرى ورأسى وحواسى .. كان يؤثرنى على الجميع ، والجميع فى صف واحد ، موقع واحد .. وأنا لوحدى فى موقع كلى وأساسى متفرد .

ما كان عليّ أن أقول ، ما كان على الصمت الذى يختزن الكلام كله أن يتكلم .

الكلام قدّ من ذهب ومن أزهار ومن راحة ..

الصمت ثقل من همّ وحزن وعبودية .. من كوابيس ثقيلة ، ومن مرارات واوجاع واختناقات .

كان مازن ، يعرف ، يعرف جيدًا ماذا سأقول . أعفانى من مهمة أن أسأل وأرتجى وأتوسل .

– أبى .. أعرف أن الأمر يحزنك كثيرًا . أعرف أن السفر يعنى بالنسبة إليك كارثة .

لكن الكارثة درستها ، تأملتها ، راجعتها مرارًا ، جعلت احتمالات الفشل فيها ممكنة ، مثلما إمكانات النجاح فيها ممكنة كذلك .. واتخذت قرارى فى السفر .

وتعطل لسانى .. فيما خيم الحزن على النسوة الثلاث ، بدون وكأنهن قد شحن فجأة !

– أبى . أمى . أنغام عزيزتى . ألحان حبيبتى .. أرجوكم ، أتوسلكم .. اسمعونى .. هنا درست عن أمراض تقليدية .. وقد بدأت أحسّ أننى أعالج أمراضًا غير تقليدية .

وفكرت بالرجل الذى سأكونه ، بالزوج والأب والمستقبل .. وقد وجدت أن المسافة بينى وبين هذه الآمال عصّية وطويلة وشاقة ..

أنا لا أريد لولدى أن يتنفس جوًا ملوثًا .. ويموت بين يدىّ وليس بوسعى علاجه مثل كثرة من الأطفال الذين يموتون كل يوم وهم فى أحضان أمهاتهم وآبائهم .. وليس بالإمكان إسعافهم . وأنا لا أريد لولدى أن يفتح نهاره على تعلم الكذب والغش والخديعة ى المدرسة والشارع والسوق .. لا أريده أن يعرف أن حديقة كانت هنا وقد تحولت إلى مكان تجمع فيه النفايات . وأن يعرف أن ملاعب الطفولة قد تحولت إلى قضبان للسجون أو أسلحة لزرع الخوف .

كنا نلتم على بعضنا ، نصغى جيدًا .. ولكن مثل تلاميذ كسالى يصغون وينامون فى حالات الإصغاء هذه .. فيما يكون المعلم قد تعب من الكلام والوقوف ورقابة نفسه وهو يتحدث فى جو بارد . رابحة عبرت عن احتجاجها بالبكاء . أنغام شبح الاختناق فى أنفاسها . ألحان أخذت تحدق فى الوجوه ، وتبحث عن إجابة .. وكنت الوحيد الذى أدرك فيه أن مازن قد اتخذ قراره ولن يثنيه رجاء أو توسل .. وكل ما يمكن لى التعبير عنه هو أن أدعم مشروع سفره فحسب ، ذلك أنه قادر على السفر حتى بدون بناء هذا المشروع معه .. لأن معه مفاتيح قراره الحاسم . أعددت نفسى لمواجهة امتحان قلبى .. وامتحان نجاح سفره ، بما يعزز وجوده فى الغربة ، لا عوزه وفاقته وذله ومرارة ندمه .

اكتفينا بأقل من القليل .. وبعنا ذاكرة موشومة على أشياء كثيرة ، شاخت وتعبت من طول عيشها معنا ، وآن لها أن تنصرف إلى فضاءات أخرى .

أَنّ المقعد الخشبى . غرد البلبل الحبيس فى قفصه ونحن ننقله إلى الخارج ، نطق المذياع القديم وهو يرانا نجره جرًا من مكانه المدفون فيه منذ سنوات طويلة .. كانت حنجرته مخنوقة .

جعلنا منهج البلاغة نحنو عليه ونلمسه بخشوع .. مثلما بدا دستويفسكى حزينًا وهو يحدق فى صفحات روحه تباع فى المزاد العلنى ، وصار عبدالرحمن منيف يرى مدن الملح تذوب وأرض السواد تلبس ثوب الأسى ، وبكى داريل وهو يودع الإسكندرية .

ورأيت سوار رابحة يسقط على بساط صارت وروده ذابلة .. وتأملت قلادة أنغام قدفت من جيدها الناعم ، وساعة ألحان تتوقف مؤشراتها عند زمن قتيل .

و .. أعد مازن حقائبه للسفر .. وأعددنا شفاهنا للقبلات وقلوبنا للحزن وأرواحنا للوداع ورؤوسنا للانتظار .. وأيامنا لكثير من الاحتمالات .

عند الحافلة .. وجدنا دموعًا تتوجع ، وأوانٍ مملوءة بالمساء ، تغسل الشر وتبعد البلوى ، وتسقى الخير بالآمال والمسرات ..

قبلات تزهر وتنطفىء ، ونظرات تتوسل وتتحسر وترجو .. وأكف لا تريد أن تفلت من بين أصابعها .. أصابع ، وأحضان دافئة ، لا تصدق أن هذه .. الدفء قد أخذ منها ، وأن عليها احتمال البرد والأحلام اليتيمة .

و .. نجر أقدامنا ، مثل فريق كروى خاسر ، ومثل أولئك الذين يودعون عزيزًا فى مقبرة مليئــة بالأشواك .. ثم يبدأون السير ، وأقدامهم تغوص فى أوحال وبقايا أشياء نتنة .

أحسنى فى جنازة .

أحس رابحة قد ودعتنى .. أنا الذى كنت الجنازة .

أحس أن أنغام تودع أمانيها فى حبيب تزوج ، وقد خذلها وترك لها وحدتها .

أحس أن ألحان قد ذبلت وهى تقاسم أختها حزنًا أفل ومستقبلاً مستحيلاً قد أقفل أبوابه .. وبدأ يتمطى فوق أرواح تهيم فى الظلمة .. فى مساحة شاسعة من الظلمة والصدأ والقهر ..

أحسنى أذوب .. أذوب ببطء حدّ التلاشى .

الأم :

رأيته فجأة يشيخ . شيخوخة لم آلفها من قبل ..

أدرك أننى أرقبه . أرقب ثقل الحزن عليه .. لذلك بادر إلى أخذى من يدى وأجلسنى جواره ، كأنما يتوسلنى ألا أحزن ، ألا يثقل علىّ فراق مازن .

واصطفى أنغام وألحان قبالته .. قال :

– ما كان ينبغى علينا أن نستجيب لرغبته فى السفر .

احتجت أنغام :

– أبى .. أنت من سكت فسكتنا .

قلت والدموع فى عينىّ :

– أما كان عليك أن تقسو عليه هذه المرة وتمنعه .. ؟

واسته ألحان . ربتت على خدى ألحان . ألقت ابتسامة شاحبة على وجه أنغام . قالت :

– أبى .. هل سيطول غيابه ؟

ووجدته ينكمش ، يصغر ، خفت عليه ، خفت صمته وحسراته .. واسيت روحى . قلت :

– سنعتاد غيابه .. وسنعتاد الحديث عنه . سنقرأ رسائله سوية ، وقد نسمع صوته الهاتفى ، قد يأتى صديق منه وقد رسم معالم وجهه .. وعندئذ نراه فى عينى صديقه .

– هذا كل ما تبقى لنا من مازن .. !

جاءت كلمات حسان موجزة ، موحية ، مذابة بدموع غير مرئية .. تنام فى أحضان اليأس .

تناولنا أقداح الشاى وحبات الشمس .. دون رغبة . كان التناول عصيًا علينا ، مثلما كان النوم عصيًا على أجفاننا .. وقد اخترنا تلك الليلة أن ننام نحن الأربعة سوية .

تظاهرت بالنوم . سألنى :

– رابحة ، هل نمت .

لم أجبه .. وأحزننى أن لا أجيبه ، وأحزنه أن لا يسمع إجابة منى .

– أبى .. هل أنت بحاجة إلى شىء .

لبت نداءه ألحان . قال :

– ألحان .. افتحى النافذة ، أننى أختنق .

– أبى .. الجو بارد .

– البرد أهون .. أريد أن أشم نسمة .

فتحت ألحان النافذة ، فاحتشد البرد فى الغرية ، وجاء يتدفأ ويحتضن المدفأة التغطية التى سهرت تلك الليلة . اغتنمت الفرصة ، فرصة النسيم والبرد الدخيل .

– أوه .. النافذة مفتوحة ..

– اغلقيها .

– هل أنت صاحٍ ؟

– أنا .. أنا أنام مع الليل ، هل رأيت ليلاً ينام ؟

– وهل أنت الليل ؟

– بالتأكيد .. وها هى فوانيسى .

وأشار إلى بقايا ضوء شاحب فى البعيد ..

وتقاسمنا الصمت .. ثم سألته :

– هل وصل الآن .. ؟

– رابحة .. الغرباء لا يصلون .. وإن وصلوا ، إن فيهم صلة تشدهم إلى المكان الذى غادروه مازن لن يصل أبدًا . مازن سيكتب الينا ما يطمئن به نفسه بالوصول ، وليس بوسعنا إلا أن نصدقه .. لكن نقطة وصوله ، لا تتم إلا فى طريق العودة .

نهضت أنغام من نومها . قالت :

– أبى .. قرأت أن أسماك ما أن تترك المياه التى كانت فيها .. حتى تموت فورًا .

وأكملت ألحان قائلة :

– وهناك أشجار ما أن تقتلع من جذورها حتى ترفض العيش فى مكان آخر ..

سألت الأم ..

– حتى إذا كانت الوقت ربيعًا ؟

– الأشجار تعرف أن الربيع يجىء من أجلها .. وعندما تكون فى موطنها .. لا أن تكون مقتلعة من جذورها .. لتسكن فى مكان مجهول .

أضاف حسان :

– النبات تحس وتخجل وتتألم ، وتحب الشمس والضوء والدفء .

– أبى .. الأسماك ألا تحس بالبرد وهي فى الماء .. شتاءً ؟

سألت ألحان ، فأجاب الأب :

– لا .. إن الماء وطنها ، وهى تحتمل برودته ، مثلما تحتمل دفأه .. تقاوم شباك الصيادين ويساعدها الماء فى الخلاص أحيانًا .

و .. أنام بجفون رمداء مالحة .. وأحلم أن سمكة بيضاء .. بيضاء ، تبتعد عن الضفاف ، ثم تجد نفسها ضائعة ، ويصعب عليها العودة ، فقد أضاعت طريق العودة ، مثلما تعبت من البحث عن مكان تأوى إليها ، عن ضفاف ترسو عندها .. لكنها أخفقت ، وفى إخفاقها تعلقت بأقرب شصٍّ نصبه صياد وأغرى بطعمة السمكة المتعبة الجائعة .. ثم أمسك بها .. وراحت تتوجع فى أصابع الصياد الخشنة ..

أيقظها الحلم .. وراحت تتعرف أنفاس حسان وأنغام وألحان وتطمئن .. ثم تحس أن المرأة التى كانت هى .. قد غابت . قد غبت . كما لو لم أكن . كما لو لن أكون .

تسكننى رهبة أن أموت هكذا .. وفِىَّ بقية من لهفة إلى رؤية مازن عائدًا ، وحسان قد عادت إليه طمأنينته وابتسامته ، وأنغام قد تزوجت بعريس يليق بها . وبألحان وقد لحقت بها .. وقد أنجبا بنين وبنات .

سمعت دقات على الباب . سبقتنى إلى فتحه ألحان ..

– أهلاً خالتى .. أهلاً .

ورحت أركض أستقبل فيه أختى .. فى صباح باكر:

– أريد أن أودع مازن قبل سفره .

– جئت متأخرة .. كان يريد رؤيتك .

ويتنا خمسة نبحث عن وجه سادس يعلن عن غيابه .. خمسة ما كانوا يريدون لسادسهم أن يغيب ، وأن تنكسر أجنحة تحليقهم إليه ، أو تحليقهم إلى أزمنة المسرات ، أو تحليقه اليهم وإلى أزمنة الألفة ..

جلسنا إلى الفطور . كان الرقم كاملاً .. وحسابات أنغام مضبوطة ، ولكنها ليست دقيقة .. فلقد استبدل التوقيع بآخر ..

– للتوقيع صاحب . وللمكان بصماته .. لا يمكن لأحد أن يكون بديل أحد ..

قالت أنغام ، وفيها لهفة إلى دفء الصباح وبهاء الوجوه التى تشرق متفائلة .. اجتمعنا عند دائرة الفطور .. ظل شيء ينقصنا. ظل طبق مازن فارغًا . ملأته الخالة .

قلت : – لا .. لا خذى هذا ، هذا طبقك يا أختى ..

– ولكنه فارغ يا رابحة ..

قلت : – لا .. لا .. ليس فارغًا ، هذا طبق مازن ، سأملأه الآن . سيظل يمتلىء ..

يومًا ما سيدق الباب ، ويجد طبقه مملوءًا .. هذا ما ينبغى أن يكون ، وليس من المناسب أن يكون طبق مازن فارغًا ..

ورحت املأه .. وأضيف ، وأحسه بحاجة إلى فيض دائم من الحنان ..

مـــازن :

تصحبنى الحقائب أو أصحبها ، أرافقها أو ترافقنى ، أستظل بها أو تستظل بى ..

فكلانـا ينتمـى إلـى وطـن واحـد ، وكلتـا عرف الوجوه نفسها ، وكلانـا يعانى من الغربة والتشرد ، وكلانا يحس أن البرد يأخذ منه أجمل ما فيه .. دفأه .

من ألزمنى على كل هذا .. من أكرهنى على هذا الخيار . كيف رضيت أن أستبدل كل تلك الحفاوة فى وجوه من أحب ومن التقى ومن أحاور .. بكل هذا النحس ، فى وجوه تعاملنى بشك وريبة ورهبة . وَجَعَلَها تنظرنى كما لو كنت معتوهًا أو مصابًا بالجذام ، أو الإيدز ، أو .. أو الجمرة الخبيثة . من أخذ البسمة من كل هذه الوجوه .. من جعلها تعاملنى بهذا الجفاء وكأننى بقايا نفاية ، بقايا كائن هامشى غير جدير بالحياة . ماذا فعلت . ما الجناية التى حُددت بموجبها لعنتى .. ؟

كانت الدروب موصدة أمامى . كانت شهادتى الطبية لا تعنى شيئًا . كانت لا تضفى علىّ أقل احترام أتوسله .. كانوا يحدقون مرارًا فى وجهى وجواز سفرى وشهادتى وأوراقى .

كنت متهمًا بشكل دائم .. ودائمًا علىّ أن أثبت براءتى .

توجهت إلى الجامعات .. أدق أبوابها .. فتنكر لى . أقصد الأصدقاء الذين كنت أتوسم فيهم الاستقبال الحسن والمساعدة .. فإذا بى أحصد الخيبة . أعرض جهودى لأشغال عديدة ، قد تقينى ضائقة الجوع والعوز .. فتطردنى شر طردة ..

وفى حال كهذا .. وجيوبى قد خلت إلا من الامتلاء الكامل بالفراغ ، أن أتولى تدبير أمرى مع الأقارب .. ففيهم بقايا من جذور أمى وتطلعات أبى ، وفيهم شىء من ظمأ دجلة وحلاوة الرطب ونسائم الليالى الطويلة .

و .. شملونى بعواطفهم . شاركتهم طعامهم ، وارتويت من عذب مائهم وجعلوا يبحثون لى عن عمل .. دون جدوى ، حتى وجدوا أنفسهم بحاجة إلى تجنيدى لخدمتهم .

كنت أبذل أقصى طاقتى ، حتى أبدوا فى عيونهم جديرًا بالاحترام والرعاية ..

وذات مساء .. حدثت ابن خالتى عن حالى وعائلتى ، وحدثنى بتفاصيل عن حياته .. كنا نفتح نوافذ على خصوصيات حياتيه كثيرة ، كانت بالنسبة لى مقفلة ، وبالنسبة له لا تعنينى .

الآن .. بدأ يتجه لأشغالى بشؤونه ، حتى أنها صارت جزءًا من مشاغلى .. وصارحنى :

– ما رأيك لو تقدمت لخطبة أنغام ؟

– ولكنك متزوج ولك أطفال ..

– أنا على خلاف معها .. سوف ننفصل .

– والأطفال .. ؟

– هو من شأنها .

– وكيف ترضى أنغام الزواج من رجل لا تعرفه ، لم تتحدث إليه . ليس معه عوامل مشتركة .. ؟

– بالعكس .. بيننا عوامل مشتركة عديدة ، أليست ابنة خالتى ؟

– وهل يكفى هذا للزواج .. ؟

- و .. أنا فى الخارج ، وضعى المادى ميسور .. سأنقذها من الفقر ، سأجعل منها أجمل امرأة .

- أنغام لاتفكر بهذه الطريقة . أنغام ترى أن ما يجمل الحياة .. المحبة والتفاهم .

- صورتها تقول .. أنها قادرة على فهمى .. هيا كلمها . كن إلى جانبى . حدث والدك بالأمر .

أريد أن أكلمها بنفسى .. سأعرف كيف أجعلها توافق .

وكان الليل ينتصف ، نصفه لعتمة الروح ، ونصفه الآخر لهذا الذل والمرارة والمساومة .

كنت أحدق فى عينيه ، فأرى فيهما الدعوة التى ينبغى أن تلبى ، والرجاء الذى يلزمنى بالتنفيذ .

رفعت الهاتف . تيبس أصبعى فى دائرة القرص . ساعدنى على طلب الرقم . اعطانى السماعة .

و .. حدثت أبى عن صحتى وعناية قريبى واعتزازه بى ، حتى أنه فكر أن يتزوج من أنغام .

فوجىء أبى بالطلب .. قال أنه شأن يتعلق بها ، وأنه لا يلزمها على شىء ما ، ولكنه يقترح ويقدم وجهة نظره .. وأنها هى التى تقرر بنفسها كل ما يعنيها .

وطلبتها.. كانت نائمة .. جاءت كلماتها دافئة . قالت إن الأمر يحتاج إلى تفكير . طلبها ابن خالتى . سمعته يقول لها : حياتنا الخاصة ،

وسعادتنا المشتركة ، وأن زوجته قد تخلى عنها ولم يعد هناك سوى الانفصال رسميًا .. وأحسست أنها قد وعدته خيرًا .

وفيما وجدته مبتهجًا وهو ينهى المكالمة ؛ أحسست وكأننى أساوم على مستقبل أختى .. أختى التى تتعامل مع حياتها بطريقة دقيقة ، بمسائل حسابية معقدة .. وبعدها تتخذ القرار المناسب فى هذه المسألة أو تلك .

أحسست بالندم . شعرت أننى أوافق على زواج بالمراسلة . هو يعتقد أن كل امرأة عراقية وهى فى الظروف العسيرة وضائقة الانفاس . يمكن أن تقبل بكل ريح وأمل .. يأيتها من الخارج .

الخارج رخاء وامان وسياحة . الداخل عدم ومرارة ولا استقرار .

الخارج عرس دائم . الداخل مأتم كل الفصول ..

ستشد الرحال متوجهة إليه . أنغام ستتخلى عن كل قناعاتها ، وتشغل بالها بالجنة التى فتحت أبوابها .. لتستقبلها ، وسأكون أنا من قادها إلى هذه البوابة الموعودة بالسعادة .

كانت الهموم تثقل على أنفاسى ، بحيث يصعب علىّ أن أتنفس بملء رئتى .

كنت أعرف أن ابن خالتى .. له أهواء غير مستقرة ، ومواقف غير أكيدة .. ومطالب واهواء مختلفة ، ليس من طبع أنغام القبول بها .

ستفاجأ أن ما قدر رسمته لم يكن إلا حلمًا .. وأن هذا الحلم الحافل بالمسرات ، سوف ينتهى ويأخذ الواقع مسيرته الشاقة على حياة أنغام .

كنت أكتوى بناء الغربة والهزيمة والإخفاق والآمال الكبيرة التى تلاشت فى أول صحوة ، مثلما أكتوى بنار القناعة الزائفة ، والرغبة الذاتية فى حشد الرضى ، والنفع والاستقرار مع إبن الخالة الذى لا طموح له سوى المال والنساء والكبرياء الزائف .

أتساءل . أضع نفسى فى جمرة السؤال . فى حقيقته الناصعة :

– إذا كنت أعتقد أن حياتى مع هذا الرجل .. حياة إخفاق ؛ كيف إذن .. أسعى نحو إخفاق مماثل يشمل العزيزة أنغام ؟

أجيب .. وبى شىء من الشك والقلق واللا إرادة :

– سأنقذها من حياة العزوبية ، سأخلصها من حياة العانس التى راحت تشغل بالها .. هناك لا أحد يتزوج ، لأن لا أحد يريد لأطفاله أن يفتحوا عيونهم على الفاقة والحرمان ، لأن لا أحد يريد أن يستأجر ثوب عروسه وقماط طفله وضحكات أفراحه من الآخرين .

كنت أعلم جيدًا ، أننى أضعها فى حفرة ليس من السهل الخلاص منها ، وإنقاذ نفسه من نتانتها وعمقها ودائريتها.. وهى التى عاشت حياة .. هى من البساطة ، بحيث تأمن عليها من أحزان قلبها والاطمئنان على راحة الفتاة الطيبة التى تمتلكها .

و .. كنت أدرك أية مرارة تعيشها أمى هى ترى عمر السنوات يشيخ فى عالم أنغام ، ليلحق به عالم ألحان .. وأبى المقهور دائمًا ، الحزين دائمًا ، الذى يترقب دائمًا ذاك المستحيل الذى لن يأتى إبدًا . وإذا اعتزم على المجىء .. فأنه سيجىء متأخرًا ، وسيكون هو .. قد ملّ الانتظار و .. رحل !

لم يكن سهلاً أن أعتذر لأنغام .. لأن الذاكرة عندما تستعد لمجد فرح تصنعه ، يصعب عليها أن تتجه إلى ذاكرة أخرى وتحول هذا المجد السعيد .. إلى وهم .

ولم أفلح فى اقناع ابن خالتى للتخلى عن فكرة الزواج بأختى .. لأن التخلى يعنى بالنسبة إليه .. صفقة خاسرة ، ومشروعًا فاشلاً .. وآمالاً مبددة ، ووجودًا تعفنت قطافه ، ودانت عناقيده إلى الجفاف ..

أنغـام :

منذ الطفولة .. لا أعلم كم كان عمرى عندما تعلقت بثوب أول عروس شاهدتها فى حياتى .. وظل هاجس أن أتحول إلى عروس فى يوم ما ، يملأ علىّ حياتى ، ويصبح أقصى أمنياتى ، وأدعى الأشياء إلى أفراحى ومسراتى واحلامى .

أكملت دراستى الثانوية والجامعية ، بأتجاه أن أحظى بعريس يليق بى .. وجديرة به . تعبت وسهرت وتعاملت مع ملايين الارقام فى وظيفتى الحسابية ، وصورة الرجل كانت تملأ رأسى وكيانى كله .

بقيت على عذريتى واستقامتى والرغبة الملحة التى فى داخلى .. وفى طى الكتمان .. أحتفظ بهاجميعًا للرجل الوحيد الذى سأقترن به وأحوّل عالمه إلى جنات عدن ويحوّل عالمى إلى الفردوس الذى ظل حلمى المستحيل ..

لكن الحروب جاءت ، وقطفت ربيع الرجال .. حتى أصبحت الزهور عصية على الحياة .

النساء لم يعد إنجابهن إلا شتاء البنات .. إعتزازًا بألق الشباب الذي يسافر فى رحلة الصيف والخريف إلى الحرب ، واستنكارًا وتنديدًا ورفضًا لكل الحروب .

ولدت مع فاتحة الحروب ، وكأنما أمى قد حملت بها.. معى فى مشيمة واحدة .

كانت فاتحة الدم والموت والجراح والدموع والملابس السوداء .. تملأ مساحة كبيرة من تشكيل ذاكرتى والصور فى عينىّ التى سمعت كثيرًا من يقول أنها أجمل العيون ، وفيها من الزرقة بحيث يمنى الرجال أنفسهم الأبحار فيها ، أو التحليق فى سماء زرقتها .

كنت أصغى إلى ما يقال :

– لا تأكلوا من نبات الكماء الطبيعى ، فقد تفجرت فى الصحراء التى تنبت فيها آلاف القنابل .. لا تأكلوا الطماطم لأن سمادها كيمياوى قاتل .

وأضيف : لن أشرب الماء لأنه ملوث ، لن آكل رغيف الخبز لأن الارض اختزنت الكثير من الغازات السامة ، لن أركب سيارة تقلنى إلى بيتى أو عملى لأنها تحبس الحناجر بدخانها ..

ولن .. لن أتزوج أبدًا ، لأن الشباب كانوا قد تعرضوا لكل أنواع الاسلحة المدمرة والسامة ..

أصوم حتى الموت .. والموت حتى الاحتراق .. والاحتراق حتى الرماد ..

أية فواجع يعيشها المرء وهو يعيش حياة مملوءة بالشك والريبة والرهبة والخطر .. ؟

وأمنحن مسراتى ، فأذا بها تذوب وتضمحل ، وسنوات عمرى تنكمش وأشيخ . شبح الشيخوخة يهددنى ويتوعدنى .. وكلما أردت أن أنسى .. يجيء أبى ويذكرنى ، تجيء أمى وترقبنى ..

وفيما أجد أزهار روحى تذبل ، كنت أنظر أزهار الحان تنمو وتنتشى وتبدو أجمل وأنضج وأحلى .. عندئذ أدرك أنَ علِيّ التخلى عن مكانى لها .. فلا يصح أن أكون أنانية وآخذ سنواتى وسنوات سواى ، ولا عطور الفتنة التى كانت فِيّ ، وأقطرها فى شبابَ بدأت معالمه تعلن عن نفسها وتبوع بأسرار جمالها .

أقرأ قصص الحب . أشاهد أفلام الألفة . أرى أمى وأبى . أرقب صديقاتى ، لكل منها جيب تأنس له ويأنس لها .. أحدق فى طيور الحب كيف تغازل بعضها . أتنبه إلى القطط كيف تشم بعضها وتحنو على بعضها وتمارس الفعل اللذيذ .

أنا كائن يعى . أنا مخلوق قدّ من وجع ونبل وحذر .. وعلِيّ أن أحتمل إلى مالا نهاية .

استسلمت ولم أنفلت إلى التمرد الذى كنت أتمناه . استسلمت إلى واقع مر لم أشارك فيه ، ولم أكن قد اخترته .. لكنه صار يثقل علِيّ .

وذات ليل .. ليل إثر ليل .. كنت أستسلم لعوالم شتى ، لأحلام موجعة .. فأذا نداء ينادينى : – أخوك يطلبك على الهاتف .

وأحدثه ، أريد أن أحتضن غربته . كان صديقى وأخى وموطن إسرارى .. كان مازن يكبرنى بعام واحد .

ضدان كنا ، وحليفان كنا ، وصديقان حميمان أصبحنا .

فاجأنى خبر دعوتة للزواج من ابن خالتى . فاجانى أمر أن يكون لى ابن خالة يحدثنى لأول مرة ويطلب منى الموافقةعلى الزواج منه ..

أنا لم أدرك بعد أن يكون لى قريب بعيد يحدثنى ويشدنى إلى قرابة مقطوعة .. إلا فى خالة لا تزورنا إلا فى مناسبات متباعدة جدًا .

كنت أريد إستيعاب الحالة ، هضمها والاقتناع بها أولاً ، ثم مناقشة كيف نعرف بعضنا .. فأذا عرفنا بعضنا وتلامست أفكارنا ، عندئذ قد .. قد نستجيب للعواطف وندعها تنمو .. أما أن يكون الأمر .. بهذه العجالة ، فهو شأن عصى على فهمى .

ترددت فى الجواب .. أحسست أن الرجل يريد أن يسلبنى قرارى على عجل وأن تعلقه بى مسألة غير طبيعية وأن إرادة قلبه ، أقوى من إرادة ذاكرتى .. رجحت أن الغلبة له ووعدته خيرًا .. الوالدان باركا لى عرس سلفًا . ألحان غبطتنى ورشقت وجهى بقبلات ساخنة .

كانت إرادة الاقتران قد أصبحت واقعًا ، وليس أمامى سوى القبول بما كان وما رسمته لى أقدارى السعيدة وامتحان أيامى العصيبة التى أفلحت فى زواج سعيد .. سيترك بصمات أفراحه علىّ وعلى عائلتى .. بعد طول صبر ومعاناة وانتظار ..

ألحان :

الفرحة التى غمرتنى بنبأ استعداد أنغام للزواج ، لا تعادلها سوى فرحة زواجى الذى لا يمكن أن يمر قبل إكمال مشروع أختى الكبرى أنغام .

أنغام .. كانت أجمل نغم فى حياتى . كانت تملأ حياتى بالآمال والأفراح ، وكنت أعلم جيدًا أنها تواجه حياة مّرة وسقمًا لا آخر له .

كانت تعد سنوات عمرها بالدقائق والثوانى .. وليس بالسنوات . كانت السنوات قصيرة خداعة ، وهى كائن عملى يحسب للأشياء حساباتها .. وللمسرات مناسباتها الغائبة والمعطلة والجافة أما أنا .. فقد أخذ التعليم قسطه من شبابه ، حتى رحت أفكر بأمومتى لتلاميذى فى المدرسة ، أتفقدهم كأم رؤوم .. أرعاهم كما لو كانوا أزهار حديقة روحى ..

كانت روحى تفتقد إلى الألق ، إلى السمو والرفعة والسعادة .. كان همى مشغول وضمن مساحة واسعة بأنغام .. ذلك أننى لا ينبغى أن أطمح بعالم سعيد يتجاوزها أبدًا .

أفكر بشبابى من خلالها . أفكر بشيخوختى المبكرة من خلال شيخوختها المعتقة .

أخبىء أنوثتى عنها.. حتى لا تقارن ولا تغار . أبعد عنها شبابها الذى بدأ بأفل .. وفىّ يسكن وجود مر وقاس وموجع .. وفىّ وفاء ونقاء وعزوف عن لذات أطمح إليها وأريدها .. وفىّ إرادة إيقافها من أجلى أولاً . من أجل أنغام ، وابى وامى .. وفِىّ ، وفِىّ .. أشياء كثيرة لا أريد أن أعلن

عنها حتى لنفسى خشية أن تسرقها نسمة وينتشر أمرها بين الناس .. والنـاس يحرقـون آمالهم بآلامى ، والناس يسلبون إرادتى بعد أن سلبت إرادتهم ، والناس يبكون بعيون سواهم ، والناس سعداء ما داموا قد أفلحوا فى التغلب على سواهم .

سواهم عدم.. وليس لسواهم سوى السقم ، لا يهم ، المهم أن يكونوا وفق ما يريدون أن يكونوا عليه .. وأخى واحد منهم .. هاتفه يقول هذا . هاتفه يرشح ذاك الذى إسمه أبن خالتى .. وخالتى غائبة من الذاكرة .. !

و.. فوجئت به ذات عتمة . أراد أن يكلمنى مباشرة . وجد فى صورتى أجمل من سابقتى .. كان قد اعتذر لسابقتى لأختى .. حبيبة قلبى ، ادعى أنه قد عاد إلى الوفاق مع زوجته ، وتخلى عن الزواج الموعود .. باركنا له العودة فى مكالمات عديدة ، وجعلنا الأمور تسير على وفق صورة صحيحة .. بعد أن كانت هواجسنا كلها مشغولة بشأن الزواج والاتفاق بشأنه من مواقع بعيدة وآجله وغريبة .. فماذا لو كان الزواج قد تم ونمت بذوره .. كيف كان يمكن أن تكون الحلول .. ؟ حسن أن ينتهى الأمر على هذا النحو .

إستبشرنا خيراً ، وإن كان الحزن يوشم القلب ويدميه .

تعلقنا بزمن النسيان .. تعلقنا بأهداب المستحيل .. حتى تجىء ، بعالم يأخذنا من الغفلة إلى اليقظة .

وجاء صوته .. فى ليل غاب فيه القمر .. وأنطفأ الكلام فى أول محطاته .

– قلت لك .. صورتك أجمل منها .

– شكراً . كلانا .. كل منا لها خصوصية جمالية .

واستوى الكلام إلى طلب :

– أنت من أريدها زوجة لي . لقد انفصلت عن زوجتى نهائيًا ، طلقتها .. وجعلت الاولاد من نصيبها . الآن .. أنا حر . أستطيع الزواج منك .. متى ..

عجبت لطلبه . أحسست به يصفعنى ، وأنا ضعيفة أصغى إليه عن غير إرادة منى .. امتلكت أعصابى وأندفعت إليه .. صارخة :

– من قال لك أننى سلعة يمكن لك شراءها وقت ما تشاء ، وتستردها ونستبدها كلما رغبت .. من قال لك أن أنغام وجود لكائن تريده أو ترفضه حسبما أردت .. من جعلك تعتقد أن الصورة ناطقة وجامعة .. من .. من ..

كنت أصرخ وأبكى ...

وجدت نفسى بين ثلاثة وجوه تحدق وتحنو وتسأل ..

وجدت عتابًا مرًا ، ووجعًا مخبأً ، واحزانًا ثقيلة .. تنوء بها تلك الوجوه وأنا أحدثها بما كانت من مكالمة ابن الخالة .. والأخ المشجع ، .. والألم المستهتر الذى يفطر الوجع .

ورحت اقرأ فى العيون أشياء كثيرة :

حروب تترك بصماتها . غربة تسحق بقايا نفوس هدم كيانها ، وشبيبة تصدأ .. آمال منطفئة .. هواجس يقتلها السقم .

وكنا جميعًا .. كنا نحس بالأختناق ، بلهفة إلى رجاء ما ، إلى مستحيل نستل من أعماقه ثمة أمل .. ثمة وجود نقطف من طول انتظاره نقطة ضوء ..

صورة صلاح القصب الأثيرة

وقف أمام لجنة الاختبار حائرًا ، لا يعرف إن كان عليه أن يجيب بشكل صادق ، أم يدبر إجابة ما قد تقنع اللجنة .. سألوه :

– لماذا إخترت فرع الإخراج دون سواه من فروع قسم المسرح .. ؟

تأمل وجوه اللجنة واحدًا .. واحدًا . رآهم يبحثون عن الجواب فى عينيه .. ظل صامتًا ، أعاد أحد أعضاء اللجنة السؤال ، وطلب الإجابة الفورية .

لم يكن يريد أن يرسم جوابًا جاهزًا قد يرضى أعضاء اللجنة ، وإنما أراد أن يواجههم بالحقيقة .. سواء كان جواب مقبولاً أو مرفوضًا يثير الحفيظة أو الأستياء و .. حتى إحتمال السخرية .

– حتى أتعلم الإخراج من صلاح القصب .. حتى أكون تلميذه .

تبادلوا النظرات ، وجعلوه حائرًا بين الاستحسان والاستهجان .. لكنه ظل مصّرًا على ما قال .. فلقد شاهد لصلاح القصب عددًا من المسرحيات التى أدهشته وأثارت الشجن فى قلبه ، وجعلت ذاكرته تستيقظ وتحلم وتتخيل وتؤّل وتصل إلى معان ودلالات مختلفة ..

كان إخراجه لمسرحية (ماكبث) قد سحرته ، وجعلته يدرك أن هذا المخرج يمتلك قدرة على إنتاج الرؤى من أبسط الأشياء ، ويقرأ النصوص

على وفق طريقته الخاصة التى لا يقلد فيها غيره ولا يستعيد بصمات الآخرين .

كان قد قرأ (ماكبث) لشكسبير . كما قرأ دراسات عنها ، وشاهدها في سلسلة عروض ، لكن القصب تعامل مع النص وفيه حس آخر غير مألوف .. إنه يعرف كيف يضيف ويكتشف . و .. تم قبوله فى فرع الإخراج .. وتفاءل خيرًا فى الإصغاء إلى صلاح القصب وتعليماته النظرية والتطبيقية .. لكن الفصل الأول بكامله انتهى دون أن يخطى بمحاضرة واحدة من القصب .. وانتظر الفصل الثانى من السنة الدراسية .. والقصب لم يكن حاضرًا ، وترقب العام الثانى والثالث و .. صار على اعتاب عامه الدراسى الأخير .. والقصب غائب عن عالم الدراسة والتدريس كان يراه فى ممرات الكلية أو فى الإدارة أو فى عرض مسرحى .. حيّاه مرة وأخرى .. أجابه القصب بشكل عابر ، وتجاهله مرات عديدة ، لكنه ظل بالنسبة إليه مخرجًا جديرًا بالانتباه .

قالوا له .. إن القصب يعانى من ضعف فى السمع ، وشرود فى الذاكرة .

انتابه العجب ، وتساءل : مثله أليس جديرًا بالمعالجة الفورية .. بالاهتمام والرعاية ؟

لم يحصل على جواب .. وإنما أثاره حفيظة عدد من الأساتذة والطلبة .. واتهموه بالوهم .. الإعجاب بفنان وهمى اسمه صلاح القصب .. واكد مصرًا .. إذا كان الوهم على هذا الشكل .

فأنا إنسان وهمى ..

وراح يبحث عن صلاح القصب فى صفحات الكتب والصحف والمجلات والصور ، ولا يحصد إلا القليل ، إلا أن إحساسه بعبقرية القصب كانت تزداد قناعة ، وتترسخ باستمرار .

وفى وقت كان يعمق صلته بفن مسرح ذكى ونابه وموجه .. له رسالة اخلاقية وجمالية ، له حكمته وخطابه الإنسانى ودلالته الفكرية .. ؛ كان يجد نفسه محاصراً بسلبيات كثيرة .. منها عروض ساذجة لا تبعث إلا على الاستياء .. ودراسة جامعية وهمية .

يدخل الأستاذ لإلقاء محاضرته ، بعد أن أيقظ سهرة الأمس بقليل من الخمرة ، واستعاد نشاطه الصباحى ، يدخل الأستاذ الآخر .. ليتحدث عن شؤون شخصية وأمجاد قديمة .. يتمطى الثالث مشيراً إلى أن المادة التى يتولى تدريسها هى الأهم من بين كافة المواد الدراسية . يكرر هذه المسألة فى مطلع كل محاضرة .. تم تبين أن جدول الامتحانات يخلو من تلك المادة . أستاذ آخر لا شأن له سوى البحث عن مخالفة تتعلق بالزى الجامعى .. خامس يغيب مراراً لأن له التزامات دراسية فى كليات أخرى .. وسادس يتحدث عن غرامياته وعطوره . سابع يدعو طلبته إلى أداء مشهد مسرحى تجارى ، فأذا أعجب به زملاؤه ، سمح لهم بالتصفيق ، وإذا وجدوا فيه الملل ، فأن من حقهم السخرية منه وإخراج أصوات تليق برفضهم له .. !

ثامن .. يطالب طلبته بشراء ملازم مصورة ، هى أفضل وأهم وأحدث ما كتب عن المسرح ، وأن عليهم أن لايسربوا تلك المعلومات لأحد .. فإذا بهم يجدونها فى صف آخر ، وفى أقرب مجلة عربية تصل إلى المكتبات .

تاسع .. يباهى نفسه بطالبة نشطة تعد رسالتها الجامعية باستدعاء حمار على خشبة المسرح .. مما يخلق حالة غريبة فى المسرح .. والمسرح اكتشاف للغرابة ..

أما العاشر .. فأنه أستاذ ينتظر تساقط الامطار وانسياب المياه فى الصف الدراسى ، ليصرف الطلبة إلى بيوتهم حفاظًا منه على صحتهم من البلل والبرد .

يحزنه أن يرى كل هذه المشاهد وسواها فى حرم جامعى ، ويبعث الأسى فى أعماقه وهو يدرك جيدًا كيف يتسرب الوقت ، دون أن يدرك الاساتذة والطلبة ما آل إليه علم المسرح فى الجامعة وفى المسارح كافة .

وخاصمه وعيه .. وزاحمته الضرورة بين أن يعلم كل شىء عن هذا الفن الذى أحبه والتحم به وراح يدرسه بوعى وعمق ، وبين أن يرى كل ما هو سلبى يأخذ مساحة متسعة ، حتى يصبح هو المعنى بجدوى أن يفهم .. أن لايفهم .. حتى يصبح بمقدوره أن يحيا بنعيم وسلامة وراحة بال .. وأن لا يجد من يتهمه بتهم شتى ، ويقوده إلى دروب مسدودة .

لكن ماذا يفعل بقناعات الأثيرة مع : صلاح القصب . وبيتربروك ، وستانلافسكى ، وبيسكاتور وجميل نصيف ، وجواد الأسدى ، وحامد خضر وأزاد صاموئيل ، وباربا .. وسواهم ممن قرأ لهم وتنبه إلى أعمالهم وتفاعل مع اجتهاداتهم .. ؟

هل كان عليه أن يتوقف عند شهادات (علمية) لم يتعلم منها شيئًا طوال مراحله الدراسية .. لمجرد أنها تحمل ألقابًا علمية ..

كان يحس بخيبة أمل ، تتسع كل يوم ، وليس بوسعة الخروج من أزمة وعية ..

هل يترك الدراسة وينصرف إلى التعليم الذاتى .. هل يعزف عن حضور محاضرات لا صفة لها سوى تبديد الوقت وتصريفه فى شؤون فارغة .. ؟

كانت الهواجس تلاحقه ، والجرأة مسكونة فى أعماقه ، ليس بوسعها أن تتنفس رفضها . و .. رآه ، رأى صلاح القصب يعد حقائبه ويحمل رسائل أصدقائه .. حاملاً أشواقه إلى الناس الذين يحبونه ، متوجهًا إلى الرحيل ، إلى عالم لا يرفضه إنسانًا ، لا يسخر منه مبدعًا كبيرًا ، لا يُتهم فيه بالجنون والغفلة .

معطفه الأثير ، دفاتره الأنيقة ، نظارته الدائرية .. مشاغله وهو ينصرف إلى مخيلة عجيبة يستقى فى بئرها عوالم شتى ووجودًا أسمى .. ويترك لاصدقائه بصمات خلود لمسرح الصورة ، وتشكيل العلاقة بين جسد ناطق الحركة ، وحركة نامية ترمز أبعادها وتشكل رؤيتها .. بعيدًا عن هذا العالم الرث الذى يريد أن يسرق احلامه ووجوده وألق الومضة التى تصنعها مخيلته العجيبة .

رآه .. رأى شبحًا يتعلق بسّلم الحافلة ، ويشد إلى صدره أوراقه وصوره وأحلامه .. يجلس على مقعد يزاحمه فيه رجل آخر .. لا يعرف من يكون الجالس فى صفة .

تسير الحافلة ببطء . ترتفع يد صلاح القصب مودعة ابتسامات شاحبة من عائلته وطلبته ومحبيه .. ولم يكن بين مودعيه فنان مسرحى واحد . ولا زميل تدريسى واحد ..

كانت به حاجة إلى البكاء . كانت به حالة اختناق وصرخة مكتومة .. وسحب أقدامه فى شارع قليل الإضاءة ، ضاج بالحركة ..

سأل نفسه : لماذا كلما قلّت الإضاءة ، إزداد عدد الناس .

إجاب : الإضاءة فجر .. الندرة وحدهم من يضيئون الفجر .

أسعده أن يصل إلى هذه القناعة ، وأن يظل صلاح القصب أثيرًا فى قلبه وذاكرته ..

وأن يثير فى نفسه أسئلة كثيرة .. أسئلة تراود فيه صحوة روحه وألق وجوده .. ومسراته الفاتنة المكتومة ، أساه العميق .. إلامن ومضة ضوء بعيد .

عش البراءة

تأمل الصورة المعلقة على الجدار الرطب وقد علاها الغبار ..

أحس أن الرطوبة تأكل فى جسده ، والتراب يخيم فوق عينيه ويحّول رؤيته إلى ضباب . حدق خارج النافذة المطلة على الحديقة المهملة ، رأى عصفورًا صغيرًا يتهاوى من عشه ، وبإحساس من الشفقة أسرع لإنقاذه .

كان شباط فى مطلعه ، والقطط تغازل بعضها ، وتتملق بعضها ، وتخاصم بعضها ..

وبالتأكيد سيكون هذا العصفور سبيلاً للتراضى بين القطط فى شهرها الأثير .

كان الجو باردًا ، وثمة قطرات من المطر تتساقط وتغسل الاشجار وتعطر الأرض قطرة إثر قطرة تسقط من غصن شجر الليمون وتترك أثرها فى الرمل .

العصفور بالكاد يتحرك . حركته توّسل ومحاولة للخلاص .. جناحاه لا تقويان على إنقاذه من محنته وغربته وعزلته عن دفء عشه .

ما الذى يمكن أن يفعله بهذا المخلوق الصغير ؟

أمسك به . كان يحاول الانفلات من بين أصابعه .

فكر .. كيف بوسعه أن يساعد هذا العصفور على أن يعيش .. كيف يقلب المعادلة التى تقول : إن الأقوياء هم الذين يمتلكون الحق فى الحياة ، وهم دائمًا لهم السيادة فى كل شىء ؟

لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا لهذا الكائن ، مثلما عجز عن فعل شىء لحياته .. تسلق الشجرة .. كان العش فى مكان قصى . كانت العصفورة الكبيرة تحوم حول العش .. تبحث عن فقيدها .

بلله المطر ، خدشت الأغصان أصابعه ، لكنه تمكن فى نهاية الأمر الوصول إلى العش .. ترك العصفور الصغير هناك ، وأحس بالارتياح .

عاد إلى غرفته الرطبة ، وجد المدفأة النفطية مطفأة . حركها .. تأكد أن النفط قد نفد وأن الفتيلة قد احترقت .. وهذا يتطلب ثمنًا لم يكن بوسعه تأمينة للحصول على دفء ملائم .. لرجل ستينى ، بدأت جهود الشباب المضنية تعيد ذكرياتها فى ذهنه وجسده .

جرّ البطانية العسكرية القديمة إلى صدره ، وراح يتأمل العش ..

رأى العصفورة سعيدة وهى ترى صغيرها فى أحضانها .. وهى تزّق له ما أكلت .. أمسك كتابًا وحاول أن يقرأ فيه . أحس أن فكره غير قادر على الاستقبال ، وأنه عرضة لمراجعة أمور شتى .. تبدأ من الصورة المتكئة على الحائط .. وصولاً إليه .. هو المتكىء على أوجاعه ومشاغل روحه وحسرات أنفاسه .

تساءل .. ما الذى يجعل هذا الجمع المشدود إلى بعضه فى الصورة يتمزق فى الواقع ؟

الزقزقة الصغيرة التى أيقظت إحساسه ورأفته للعصفور، ليس بوسعها أن تحقق يقظة الناس إلى ابنته وإلى ابنه .. عندما يتوسلون الرأفة من أحد .

كان يدرك جيدًا ، أن عددًا من الناس يبحثون عن ضحية ، تتحمل ما يتمنون ويرتجون ، فإذا أفلح البعض .. أثار الدهشة ، وإذا أخفق صار أمره على كل لسان .

وكان هو الضحية الأولى ، بحيث كان يبعد أمانيه ورغباته وأوقات راحته من أجل سواه .. دائمًا من أجل سواه ، ففى الطفولة من أجل أبويه وأخواته ، وفى الشباب من أجل أخيه الوحيد ، وفى أربعينه .. صار له زوجة وابن وبنت ، كان يعمل من أجل راحتهم فى شتى المهن ، حتى يعيشوا حياة رغيدة .

لم يكن قد عرف بهجة الطفولة باللعب ، ولا الشباب بالمرح ومغازلة الربيع ، ولم يكن عرق جبينه ليجف فى الأعوام اللاحقة .. ولا ينتظر أن يهدأ باله فى الشيخوخة .

من أبيه كان قد تعلم شرف العمل وقيم الحياة ونقاء وصدق التعامل مع الناس ، وقد حاول مرارًا أن ينقل ما اكتسبه عن أبيه إلى أولاده .

غير أنه كان يحس بالإخفاق مرارًا ، ويحزنه الشعور بالإخفاق ، ويجرحه أن تكون معاناته وتجاربه مضاعة على وفق ما يراه من خيبات فى السلوك والدراسة والجفاء .. فالإصغاء إلى كلماته يعنى الوصول إلى قناعة بكل ما ورد فيها .. يعنى ترجمتها إلى حقيقة ، ودعوته إلى الدراسة ،

دعوة إلى إنجاز ما كان يتمناه لنفسه ، ولم يفلح ، ذلك أن العمل والبحث عن القوت اليومى كانت أهم بكثير من الدراسة .

وانتقاء الأصدقاء ، انتقاء لخصائص طيبة ، وفضائل حميدة ، وإلا ما جدوى صداقة لا يشغلها سوى تبديد الوقت ؟

لم يكن الابن كما أراد له أن يكون ، ولم تكن البنت كما أرادها أن تكون .

ما كان يتمناه .. ظل أمنية ، أمنية غير قابلة للإنجاز .

الاثنان فشلا فى الدراسة ، وفى الحياة ، ووجدا أمامهما سلسلة متلاحقة من الإخفاقات ولم يكن أمامه سوى أن يداوى الجراح ، أما الجرح العميق الذى فى صدره ، فليس لأحد القدرة على تضميده ، وانتشال الوجع الذى فيه .

كانت الزوجة منكسرة ، حزينة ، تبحث عن نقطة ضوء ، عن أصغر لحظة فَرِحةٍ تمنى نفسها بنقلها إليه .. وهو المتعب المشغول فى جهد عضلى وذهنى فى كل الأوقات .. حتى أحلامه ، لم تكن سعيدة .. فقد أيقظها توتره وصراخه وحركته وفزعه فى ليال عديدة ، حتى حسبته لاينام ، وإذا نام ، فأنها نومة الإنسان القلق والمهموم والمشغول البال . لم تكن تجرؤ للحديث معه ، كانت تفضل الصمت ، فهذا أفضل ما تقدمه إليه ..

كانت حائرة بين مشاركته آلام قلبه ، وبين الحفاظ على راحته .. وهى تعلم جيدًا ، أنه لا يجد الراحة ابدًا ، ومشاركتها لا تسهم ولو فى جزء يسير فى الحلّ .. ولا حل لشيء مستعصٍ ، يتعلق بالسمعة ، بالطيب

والفضيلة والاستقامة التى عرفت عنه ، فإذا بكل ما زرعه على مدى أعوامه الستين ، قد أحرقت وتبدد الجهد الطويل الذى كان يحفر عميقًا فى داخلها ..

الابن متهم بالسرقة .. والابنة تلوك الألسن سمعتها !

فما الذى يفعله إزاء هذه المحن المتلاحقة ، كيف يواجه نفسه ، والناس من حوله .. هل بوسعه الآن الدعوة إلى الفضيلة والأمانة والشرف .. ؟

بيته من زجاج ، بيته بحاجة إلى من يحميه .. جدران بيته تكسرت .. وهو غير قادر على جمع فتات ما تكسر من زجاج البيت .

وبيته .. بيته ، يبعث الدخان ، والدخان مزعج وضار بأنفاس الجيران .. والجيران يومئون .. وثوبه قد تلوث .. وليس بإمكانه أن يمحو ما علق بالثوب والروح .

كان به حزن ثقيل مخبأ ، مكتوم ، يحبسه فى داخله ، وخارج عالمه ، يبدو كل الناس يتهامسون .. سيرته وأركان بيته الذى أصابه العفن .

يحدق فى شجرة الليمون . هذا العام لم يبعث قدامها العطر . زهرها تساقط من جفاء وعتاب ورغبة ملحة فى اختيار البعد .

والعش الذى بناه العصفور بين اغصان الشجرة ، هجره الفرخ الصغير .. فهو لا يريد النوم فى احضان شجرة جرداء كفت عن دفق الأزهار .

والصور التى كانت منسية على الجدار القديم ، استيقظت شخصياتها ، وأخذت زاويتها اليمنى تميل إلى اليسار ، كأنما هى تبحث عن الحركة ، وعن الخلاص والانفلات من المسمار الذى يحميها ، والجدار الذى تتكىء عليه . كانت الصورة تفتش عن فرصه ما . حتى تفرّ من المكان الذى بدا شاحبًا يعانى من مرض ليس لأحد قدرة على معالجته .

السرقة .. وصمة عار فى جبين إبنه .

السمعه السوء .. تجرى خشنة وحادة وصدئه .. على كل لسان ..

ويقرأ فى العيون سخرية منه ، وشتيمة إلى تربيته .. فقد كان هو المسؤول عن كل ما جرى ، وما جرى لا يقبل به ، مثلما لا يقبل به مجتمع كان .. كان يجتمع على محبته والإشادة به وبخصاله الحميدة .

كان به مس من الجنون .. وكان بزوجته إحساس بثقل جنون مماثل .. يحدق فى الجنون وفى اللعنة وفى الهروب وفى نظرات التشفى والاحتقار والعتاب .

كان الذّل .. جبلاً يثقل عليهما وكان الجبل يرّق من وطأته ، ويترك ثقله منسابًا على السفوح ، حتى يخفف من أثقاله .. على أبٍ متعب ، وأم صابرة .

و .. حدق فى البقعة الرطبة التى وشمت الجدار . أحس أن الوشم يتسع وتبدو ألوانه داكنة .. بعد أن كانت باهته خجلى .

أدرك أن شارة الاتهام تتوجه إليه .. إليه ، هو الذى كان من طبعه أن يرق ويحنو ، ويضحى ويركض .. يركض ، كما لو أن الزمن يلاحقه ويريد الإمساك به .

التفت ، ثمة امرأة تتعلق بأسفل ثيابه ، لم تكن تريد البقاء وحيدة فى غرفة باتت جدرانها تتضاءل وسقفها يهيط وبقع الرطوبة تتسع ، وتأتيها من كل جانب . . تضيق عليها أحلامها القتيلة ، وآمالها الدامية .

أمسك بيد المرأة . أمسكت به بقوة .. تشابكت أصابعها الباردة .. خرجا إلى فضاء غائم واشجار شاحبة ..

سمعا صوت ارتطام وهدم .. إلتفتا سوية . كانت جدران البيت قد ضاقت بالأحزان فتهدمت من وحشة وقلق وعتمة .

أحسا بنسائم باردة وأصوات برق وضوء ومطر .. جرا خطى متعبة ، متوجهان إلى مكان لا علم لهم به .. يحاصرهما صمت ثقيل ، وظمأ .. ظمأ إلى ومضة من حياة .. حياة ما .

إرهــــاب

وقفت الآنسة ليزا تحدق فى الوجوه ..

كانت تمارس مهنة التحديق هذه لأول مرة فى حياتها . كانت مهمة عسيرة لم تعرفها من قبل .. وليس من السهل عليها أن تصدق قيامها بهذه المهمة ... تلك المهمة الغريبة والعسيرة واللا إنسانية التى وضعت فيها ..

ومن قبل كانت تباهى نفسها ، كونها تتولى عملاً جديرًا بالاحترام .. فهى تحفظ لركاب الطائرة أمنهم وسلامتهم وصحتهم ..

تفتش الحقائب والرزم ، تبحث عن مخدرات أو أسلحة .. وفى الغالب تجد الاطمئنان فى الوجوه إلا فى القليل النادر الذى تشك فى أمره ، وتفتش حقائبه .. أما الباقى فقد كانت تودعهم بابتسامة شفافة ، يأخذها المسافر معه إلى فضاءات أخرى .

وعندما حلّت الأجهزة الحديثة الكاشفة ، باتت مهمتها محدودة .. لاتزيد عن كونها مساعدة لأعمال الكمارك والمراقبة العابرة .

الآن .. وضعت داخل دائرة ، ليس بوسعها الانفلات منها .. أو الاعتذار عنها ، وتحوّل عملها إلى مسؤولية ، والخطأ فيها يجرها والركاب إلى كوارث غير مأمونة العواقب .

– آنسة ليزا . إنتِ موظفة فطنة ونابهة وموضع ثقة .. نريد أن نضعك في موقع ليس بوسع أحد تنفيذه بإتقان أفضل منك .

– شكرًا . شكرًا أستاذ .. وما هي حدود هذا العمل ؟

تحدثت بقلق وخجل .. كانت تعتقد أن عملاً أفضل ينتظرها ، ومكافأة تستحقها سوف تمنح لها . وكتاب شكر وتقدير سيصدر بحقها .

ابتسم مدير شركة الطيران ، أجاب :

– أنت على علم بما جرى ، بما فعله الإرهابيون .. وما سوف يفعلونه إن نحن تركناهم ..

– وماذا بوسعنا أن نفعل ، أليس بوسعنا مراجعة ما كنا قد فعلناه ؟

– بوسعنا أن نفعل الشيء الكثير ..

– قبل أن نراجع ما فعلنا .. !

– تلك ليس مهمتنا ، إنها مهمة جهات عليا .. هي صاحب القرار .. مهمتنا تقتضي منا الانتباه والحرص وتحمل المسؤولية كاملة .

– وماذا بوسع موظفة بسيطة في شركة للطيران .. أن تفعله ؟

– يمكنها أن تفعل الكثير .. إن هي أحسنت التحديق .

راحت ليزا تراجع الجملة ، أن تجد صداها في عقلها وإحساسها .. فماذا يعني أن تحسن التحديق .. وهل كانت تهمل التحديق في الحقائب .. ربما ، لكن الجهاز لم يعد يغفل شيئًا دون أن يحدق فيه ! قالت :

- وهل سأكون أكثر دقة من الجهاز الكاشف ؟

- الجهاز عاجز عن التحديق في الوجوه وقراءة اللغز الخفى فى تقاطيع تلك الوجوه .

- ها .. هل سنخضع الوجوه للتفتيش .

- نعم .. هذا ماكنا قد أهملناه ، لذلك حدث .. ما حدث .

أثارت إجابات المدير ، أسئلة كثيرة في ذاكرتها ، وبدت كمن لا يفهم أبعاد الحديث ، وكأن هناك من الأحاديث الخفية ما هو بحاجة إلى إيضاح ..

أضاف المدير وكأنه أدرك غموض حديثة .

- ليزا .. أنت موظفة ممتازة .

- أنا .. أنا لا أفعل شيئًا استحق عليه درجة الامتياز .. أنا أتولى مهمة روتينية ، ووجودى لا أهمية له .

- الآن ستكون لك مهمة كبرى ، وبعينيك الذكيتين سيكون مصير الملايين .

- أستاذ .. أرجوك لا تسخر منى .

- ليزا .. إننى لا أسخر ، إن مهمة عملك الجديدة تقتضى منك إتخاذ منتهى النباهة والحذر .

- النباهة نعم ، أما الحذر ، فلا شيء عندى يستحق أن أحذر منه .

- آنسة ليزا .. افهمينى ، اقتضى الموقف الراهن ، وضعك فى موقع

المراقبة الدقيقة .. اقتضى أن تكونى محدّقة .. أن تنظرى فى العيون الزائفة والقلقة والحذرة ..

وأنت الأكثر قدرة على اكتشاف الوجوه التى تخبىء الأسرار .

استيقظت ليزا ، وكأنما غفوة كانت قد أخذتها عن الزمان والمكان .. استعادت كل كلمة قالها السيد المدير ، وامتحنت نفسها بالجواب .. وجدته عسيرًا ، وأن عملها غريب وطارىء ويتطلب الحسم السريع .

- أستاذ هذه مهمة صعبة وغريبة . لم أمارسها من قبل .. اعطنى فرصة أفكر فيها ..

- ليس هناك وقت للتفكير ، هناك وقت واحد للتنفيذ .. الطائرة الاولى ستقلع بعد ساعة ، لديك الوقت لتجهيز نفسك والالتحاق بالعمل فورًا .. الإجراءات سريعة ومشددة ودقيقة جدًا .. تفضلى .

أدركت ليزا .. أن القرار محسوم ، وليس أمامها سوى أن تلتحق بعملها الجديد فورًا . وقفت أمام سلم الطائرة ، تستعرض الوجوه واحدًا واحدًا ، تبحث عن وجه زائغ يخبىء أسلحة محظورة أو جمرة خبيثة أو شيئًا غريبًا مما لم تألفه العين .. ووجدت نفسها تمارس عملاً إرهابيًا ضد براءة تلك الوجوه .. مثلما أحست أن قوة إرهاربية قد ألزمتها بهذا العمل .. وأنها باتت مجندة لدى هذه القوة الأرهابية .

إرهاب تخضع له ، يقابله إرهاب تتولى القيام به !

كانت حزينة ومثقلة بالهم والندم والاستسلام والتناقض . كانت حائرة بين أن تنفذ عملاً لا منطق له ، أو تتمرد عليه وتعانى من الفاقة والأسئلة ..

تساءلت : ماذا يعنى أن أحدق فى العيون الزائفة ؟

يعنى : أن أكون فى حالة شك واتهام لعيون غير مأمونة !

استعانت بكتب علم النفس ، وقرأت تفاصيل عن الشخصية ، والوان العيون .. وتشريح العين .. ودراسات عن الشك والإرهاب والجريمة والمجرمين ..

كانت تريد أن تكتشف صيغة علمية وعملية لطبيعة عملها ، أن تجد مسوغًا لمهمتها ..

غير أنها لم تجد ما يفيد توجهاتها الجديدة .. سوى فراستها ، وشعورها الداخلى . كان الشعور بوطأة الإرهاب قد ثقل عليها ...

هذا وجه برىء وساذج . هذا وجه حاد وقاس . هذا وجه كئيب وحزين ، هذا وجه يحمل البشائر والفرح . هذا وجه .. وجه قلق .. ما هو مصدر القلق .. طلبت وثائقة . كانت كلها سليمة . أعادت تفتيش حقائبه وثيابه .. لم يعد أمامها سوى تفتيش أعماق نفسه وذاكرته وأحاسيسه .. أخضعته لاسئلة شخصية .. أجاب بحذر .. قال أنها شؤونه التى تعنيه ، واضطر أن يبوح بها جميعًا ولم يعد عنده ما يخفيه .. رجل اختار الغربة بحثًا عن عمل مجهول فى عالم لا يعرف دقائق الحياة فيه .. فكيف لايكون قلقًا ، وهو لا يعرف ما تخبؤه الأيام ؟

اضطرت ليزا أن تعتذر له ..

وتكرر الاستجواب ، وتكرر الاعتذار ..

مرة .. توقفت عند عينين ساحرتين ذكيتين . كانتا أشبه ببحيرتين ساحرتين ، كان بودها أن تسبح فيهما ، وتعيش وقت مسراتها فى أعماقهما .

سألت الشاب :

– هل تنشد البحث عن بحيرات أخرى فى عالم آخر !

– لا .. أنا لست سائحًا .. أنا أسافر للعلاج .

– ماذا بك .. ؟

– عيناى .. عيناى ، لا أرى فيهما إلا الشىء القليل .. لقد تعرضت إلى اشعاعات حربية قاتلة . فوجئت بخيبتها ، بعجزها عن النظر ، نخجل وامتحان مر .

– منذ متى .. ؟

– منذ عام ٩٠ .. والألم يزداد ، والنظر ينعدم شيئًا فشيئًا ، اريد الاحتفاظ بما تبقى .

– هل أنت ضابط .. ؟

– لا .. مدنىِ ، موظف بسيط فى دائرة للتقاعد .

– أنا أيضًا موظفة – وسكتت عن تحديد العمل الذى تمارسه .. قل لى هل أنت متزوج ؟

– ومن ترضى برجل يشرف على العمى ؟

أحست بها جس ودى يقرّبها منه ، ويجعلها على تماس معه ، وودت أن تكون له عيونه ، أن ترى الأشياء بدلاً عنه .. أن تكون له بديلاً عما افتقده وعاناه وأثقل عليه أعوام شبابه .

إنتابها شعور أن تكون مثله ، مثله تمامًا .. أن تشرف على العمى ، لا تبصر الناس ولا تبحث عن الأسئلة فى عيونهم .. وصار بها رغبة أن تستبدل عينيه بعينها .. سألته :

– هل .. هل تعلم إن كان من الممكن استبدال عينيه مبصرتين بأخرى منطفئتين ؟

إبتسم بحزن . قال :

– هل يوجد فى الكون من يقبل بهذا .. ؟

ترددت وخجلت وتجرأت على القول :

– أنا مستعدة .. مستعدة للقيام بهذه المهمة .

عجب الشاب من إجابتها . قال :

– هل أنت مجنونة .. ؟

.. وجاء نداء إقلاع الطائرة .. وقف الشاب عند سلّم محييا شبح امرأة تلوّح له .. جلس الشاب على مقعده محدقًا فى زجاج لا يرى من خلاله سوى الفراغ .. فيما جرّت ليزا قدميها متجهة إلى قاعة الانتظار ، باتجاه الباب الخارجى ، ودخول وجبة أخرى من ركاب طائرة ما ، تتوجه إلى مكان ما .. وهى .. تبحث عن عينين زائفتين ، علّها تكتشف فيهما الرعب والعنف والاسئلة .. عندئذ

ستعلق بصاحبها تهمة مجهولة إسمها الارهاب ، ومسحوقًا لعينا إسمه الكونتراس أو الجمرة الخبيثة ..

أحزنها أن تمارس مهنة الاتهام هذه .. أحزنها أن تفارق بحيرتين منطفئتين .. وأن تظل هكذا .. كائنًا يخضع للإرهاب ، ويمارس الإرهاب على براءة العيون .

الطبــل

ذات مساء انتبه الطبل إلى نفسه ، وانتابه شعور بالغبن ..

فهو الوحيد من بين سائر الاشياء والمخلوقات لم يضحك ولم يرقص ولم يكن أحد لينتبه إليه .

ومع أنه كان سيد الاحتفال ، وصوته العالى المتدفق هو الذى يبعث السرور فى الآخرين .. إلا أنه لم يأخذ القسط الذى يستحقه من الاهتمام والرعاية والاحترام ..

ففى وقت يظهر الاهتمام به ، ويحتضنه الطبال ناقرًا فوق جلدته .. ألا أن أهميته تنتهى حال انتهاء الحفل فيظل مركونا فى زاوية غرفة قميئة أو معلقا على الجدار .

ومع أن صوته رخيم كما يعتقد ، وأن له قدرة على ايصال صوته إلى مناطق بعيدة .. وأنه لوحده فقط قادر على تسلية عدد كبير من الناس .. وأنه من دون كل الآلات الموسيقية يستطيع أن يرفع صوته عاليًا .. إلا أنه مغبون .. وحزين .

وراح الطبل يتذكر .. لو أنه لم يكن مهمًا فى الحفلات ، وغير جدير بتقدم الجيوش نحو معركة حربية ، ولا أهمية له فى المأتم الجنائزى .. لكان أمر إهماله يعتبر حقًا ، ووروده مقنعًا .

لكنه يحس بهميته .. فهم بحاجة إلى خدماته ، يجلونه عند حاجتهم إليه ، يطلبون إليه أن يصوت معلنًا عن بيان سلطانى مهم . . كما تحدثت عن مهمته كتب التراث ، وأن دوره صار يعظم باستمرار على عكس كل زملائه .. الذى استبدلوهم الواحد بعد الآخر بالآت موسيقية كهربائية أو وترية جديدة .. ويبقى .. هو الوحيد شامخًا ، صائتًا غير قابل للاستبدال ، وكأنما خلق ليبقى ابد الدهر .

مرة سمع بأن رجلاً اطرش كانت امنيته الوحيدة سماع صوته .

ومرة سمع بأن شاعرًا هجاه فى قصيدة ووصفه بأنه « أجوف » !

ومرة قالت عنه امرأة ذبحت آمالها بموت ابنها وزوجها : إلا يكفى هذا الطبل كذبًا ؟

ومرة ضج صوته وصات فى عرس .. فإذا صوت العروس تقول : كفى .

ومرة مزق جلدته طفل .. ومرة .. ومرة .

الطبل راجع كل دفاتره .. وعرف أنه يناقض نفسه ..

فهو الذى يعلن عن نشيد حماسى ، وهو الذى يكذب فرحا على عروسين لما يحبا بعضهما ، ولكن طقوسا أسرية الزمتهما بالزواج .. وهو أيضا من يعلن عن تنفيذ حكم على رجل يحمل أفكارًا نبيلة ، مثلما يعلن عن إعدام لص أو مجرم .. لا شىء يميزه .. وليس له علاقة بما يجرى .. لكنه ينفذ .. ومن ينفذ يكون هو المسؤول .

قال الطبل : ما دمت مسؤولا عن افراح العرس وساعات الإعدام الرهيبة ، وحث الجيوش على الإقدام ، والسير فى خشوع جنازة .. وما دام لى تاريخ عريق فى حياة الناس .. فلم لا أكون أنا .. أنا سيدهم ؟

وقرر أن يفعل شيئًا .

أرخى جلدته ، فلم يعد له صوت .

كسر صندوقه ، فبقى جلدة لا أهمية لها .

واضاع خشبة الطرق .. فسكتت كل الأصوات .

لكن أحدًا لم يهتم له ..

الأفراح أقيمت بصوت بوق وأغان ..

والموتى نقلوا على أكتاف الرجال بموسيقى حزينة وحكم الإعدام صدر معلنا بصوت خشن .

كل شيء نفذ فى غيابه .

حزن الطبل كثيرا .. وأدرك أن أهميته بدأت تتضاءل يومًا بعد آخر .

لكن الدور الأهم الذى لم يستطع احد أن يشغله .. هو .. هو دوره فى تلك الأناشيد الحماسية التى لا يعنيه أمر كلماتها والحانها ..

وأنه هو الوحيد الذى يتقدم رافعًا صوت التحدى فى مواجهة الغزاة .

أنه يتقدم الآخرين ، دون أن يعرفوا قدره .

أنه القوة التى يرهبها العدو قبل السلاح .. قبل أن تطلق الرصاصة .

أنه فى موضع متقدم .. على صدر جندى شجاع .. يستأذنه أن يصرخ بالعدو ..

ولم يكن ليخذل الجندى أبدًا .. بل إن صوته كان يعلو ويبعث الرعب فى قلوب الأعداء .

هى مهمات كبيرة يقوم بها .. ولذلك ينبغى أن يتحرك باتجاه أن يحترم ويقدس وتصبح له قيمة .. وأن .. أن يكون بطلا ، ولم لا ، لم لا ..

ألا يستحق لقب البطولة من يكون صوته هو الأعلى ؟

إلا يكون من حقه أن يتبوأ السيادة مادام صوته الاقوى .. وأنه الضرورة التي ينشدها الناس فى كل مناسبة ، وأن اسمه « الطبل » على كل الألسنة وعند كل حفل ومأتم وبطولة وإعلان مرسوم ؟

بدأ الطبل يفكر فى طريقة ينفذ فيها خطته لنيل السيادة ، بحيث يجعل الجميع يجلونه ويحترمونه ويفرزون مكانته وليس باستطاعتهم الاستغناء عنه فى كل ساعات المحن والأفراح المكتسبة التى لم يحققها سواه – كما يدعى – وبينما كان الطبل مشغولاً بالبحث عن وسيلة تجعله فى الموقع الأهم ، والارتقاء إلى سلم السيادة .. أخذه طفل صغير بين يديه .. وفى غفلة من الأهل .. رماه بحجر ، فمزق جلدته ، ولم يكتف بذلك أنما حول قوسه إلى عربة راح يلعب بها مع بقية الأطفال .. وهم سعداء باللعبة الجديدة التى ابتكرها زميلهم .. وقرروا جميعًا أن يحولوا كل الطبول التى أزعجتهم أصواتها .. إلى لعب يتسلون بها ، ثم يرمون بها فى مكان مهمل .

فيــض

حين دَخَلَتْ المطبعة ، سبقتها أصوات بشرية مختلطة مع اصوات المكائن وعندما وضعت قدمها داخل المكان ، توجهت الأنظار إليها ، وتوجه جمع من العمال والعاملات نحوها مرحبين مستبشرين .

كان وجهها مألوفًا لديهم .. كان يزورهم فى بيوتهم كل مساء ، فينتبهون إليه ويصغون إلى نبرات الصوت الناعم والعميق ، وتتفتح أساريرهم لتلك الابتسامة اللطيفة التى تمنحها لهم عبر شاشة التلفزيون .

كان بها شوق إلى تحية الجمهور الذى يستقبلها ، واستطاعت خلال فترة قصيرة أن تحقق حلمها السعيد بأن تكون موضع حب واحترام زملائها وزميلاتها ، والناس الذين تخاطبهم .. وتدرك أنها على علاقة صميمية بهم .. وأنها تعرفهم ويعرفونها.. حتى إذا انطوت عدة أعوام من عملها كمذيعة تلفزيونية .. اكتسبت فيها خبرة طويلة فى طبيعة عملها، وتوطيد أواصر الصداقة مع جمهورها .. كانت تجيب على الخطابات التى تصلها والنداءات الهاتفية التى تطلب الحديث إليها ..

تحترم كل تحية وتستقبل الناس بسعادة .. وذاك مناها منذ الصغر فى أن تكون موضع انتباه واحترام كل من حولها .

وازداد عدد المعجبين بها .. وكان عليها أن تختار أكثرهم حرصًا على مودتها وتفاعلاً مع عملها .. وشغفًا بإنسانيتها ..

اصطفت شاعرًا كان يخاطبها برقة ودفء ، ويغازلها بقصائد رومانسية . عشر سنوات بهيجة مضت ، وهى لم تمل عملها اليومى .

وخمس سنوات فى العشق والعمل .. جعلت وجودها أكثر سحرًا وأدل عمقًا وأغنى زهوًا .

كانت كل حياتها مملوءة بالعمل ، وهى سعيدة بهذا الانشغال الذى وطده حب معافى بالوضوح والأمل ونشوة السعادة .

* * *

فى ذلك الصباح الذى دخلت فيه المطبعة ، استعادت ذاكرتها كل الماضى .. وادركت أنها على وشك البكاء الملح لمجرد أن كل ما عاشته قد أصبح صفحات مضت ..

ولم تكن تريد أن تصدق تلك الحقيقة التى ترتبط بها ، وتتمسك بوجودها .

كان يوم أمس كابوسًا رهيبًا ، ليلُه امتزج بنهاره ، وكل شىء بدا حولها معتمًا .

بحثت عن حبيبها الشاعر ، فلعله ينقذها من حيف لحق بها ، وتهمة باطلة أسندت إليها ، وخطأ يمكن تجاوزه على وجه السرعة ، جاءها جواب الشاعر ، أنه منشغل الآن فى نظم قصيدة سيلقيها فى مناسبة سعيدة ، وربما سيكون مردودها المادى معادلاً لتكاليف الزواج المرتقب .

توسلت إليه أن يأتى ، غير أنه اعتذر .. ذلك أن نظم قصيدة أهم بكثير من حب ممكن فى كل الأوقات .. !

انطفأ الأمل الأول لديها، ومنذ أمدٍ طويل ، اعتمد على حسن بصيرتها أخ جامعى وأب متعب ، وأم غابت فى نسيان التراب ..

وتذكرت قولاً لأبيها :

– أنا مشفق عليك ..

– لماذا ؟

– على صراحتك المطلقة ..

– وهل تريدنى ألا أكون صريحة ؟

– كل الأشياء نسبية يا ابنتى .. هكذا علمتنى الحياة .

وانصرفت عن ابيها .. وأقنعت نفسها كونه يفكر بطريقة لاتتلاءم مع ما اكتسبته من تجارب عصرها وقراءاتها التى كانت تعدها بالإجابة عن كل سؤال يشغلها .

.. والآن ، فى محنتها الراهنة تبحث عن إجابات لأسئلة عديدة .

– ما هو تفسير الأمر الإدارى الوارد فيه اسمها والذى يشير إلى نقلها إلى دائرة ثقافية أخرى لزيادتها عن حاجة الملاك الإدارى .. ؟

– ما هو تفسير عزلة شاعرها عنها طوال الأسبوع الماضى ؟

– و .. ما الذى ينبغى أن تفعله الآن ، وهى تنصرف عن عمل تقدسه ، وحبيب مخلصة له ؟

استعادت عناوين الكتب التى حولها .. وبحثت عن مفهوم كلمة «فائض» فى كل القواميس .. واستدلت على أقرب المفاهيم التى تنسجم مع مشكلاتها .. وجدت نفسها أمام مفهوم اقتصادى محدد : «فائض القيمة» ! ودهشت لأول مرة أمام تساؤل غريب صار يلح عليها ..

كل شيء ارتفع ثمنه .. إلا .. إلا .. الإنسان فقد أصبحت قيمته زهيدة . زهيدة جدًا .. ورب العمل يتعامل معه على هذا الاساس . هى الآن فى مصنع يتعلق بالطلب وكفاءة اليد العاملة وتشابك الارقام بين المادة الأوليه وتصنيعها وكلفة العمل والمردود المربح الذى يعادلها كـ « فائض قيمة » .. فهل تفكر بأن تأخذ حصتها من « فائض القيمة » ؟

كانت تحس بفداحة الخسارة التى لحقت بها ..

خسارة زمن أمضته كالحلم ، وعشق اكرمته دون أن تعمل ذاكرتها فى استبصاره مليًا .. وحقيقة لم تدرك أبعادها ونسبيتها .. ما جدوى أن تناقش فى أمور اتخذت بشأنها القرارات .. ؟

ألم تكن تعتقد فى نفسها أنها ذكية وعارفة فى أبعاد الأشياء .. ألم تفكر قبل أن تدلى برأيها فى موضوع لا مناقشة فيه .. مع أن المدير العام قال بأنه سيشيع مبدأ الديمقراطية وحرية الرأى .. ؟ !

أشفقت على ذاكرتها إذ تستيقظ ، وتجر عليها المحن .

وعادت تبحث عن معنى « الفيض » .

وقرأت فى « الموسوعة الفلسفية » .

« الفيض : مقولة فلسفية دالة على قابلية الأشياء والظواهر للتحول ، وتحولها بلا توقف إلى شيء آخر » .

ومضت تقرأ : « وقد عبر هرقليطس – الداعية الكلاسيكى لنظرية الفيض – عن مفهومه للواقع فى صيغته الشهيرة (كل الأشياء تفيض) وترتبط مقولة الفيض ارتباطًا عضويًا بالنظرية الجدلية للعالم :

فهى تقوم على أساس المفهوم القائل بأن كل الأشياء والظواهر هى وحدات أضداد – وحدات وجود ولا وجود .. » .

واكتفت بهذا القدر من القراءة ، ووطدت نفسها على إدراك حقيقة «الفيض» الفلسفى فى منظوره المثالى ..

*   *   *

فى المطبعة ، قرأت كل الوجوه .. التى كانت تستقبلها بخفاوة ، وتكرم ابتسامتها الأليفة .

فى الدائرة الثقافية التى نقلت إليها ، خاطبوها بأسلوب جاف :

– لا توجد عندنا وظيفة بعنوان (مذيع) .. وليس أمامك سوى أن تكونى عاملة فى المطبعة .

دخلت المكان .. توسلت الوجوه واحدًا واحدًا .. أن يقبلوها زميلة بينهم ، وليست ضيفة على مساءاتهم اليومية .

أحسست أن اناقتها غريبة عن المكان .. أن الدهان والمكائن والورق والأحبار وحروف الرصاص .. تخاطب إلفتها .. وما لم تنسجم مع هذا العمل .. فهى فائضة ، وعليها أن تبحث عن عمل آخر .. لايفيض بأهله . كانت غريبة عن المكان ، قريبة .. ومعرفتها وطيدة مع كل الذين يحيطون بها . المكان بطيبة أهله .. قالت فى سرها ..

وأهل هذا المكان طيبون .. وأنها ستجد لنفسها موقعًا طيبًا بينهم .. فهذه الوجوه التى تبادلها الابتسامة ، لا تضيق بوجودها ، والعيون التى أبصرتها طوال خمسة عشر عامًا لن تبخل عليها بالمحبة .. وأنهم يألفون وجودها .. وليست قائضة عن ودهم الفطرى وعن امتنانهم أن تكون بينهم الصورة التلفزيونية التى أحبوها مجسدة أمامهم ، تعمل معهم وترافق جهدهم .. وتعرق حين تعرق جباههم .

ابتسموا لها .. قال شاب ظل هادىء الطبع ، تلتمع صورتها فى عينيه :

– سنضعك فى عيوننا .

كانت أصدق عبارة سمعتها .. فيما كانت كل القصائد الرومانسية لشاعرها تفيض عن حاجتها .. ليركن فى المكان إنسان هى فى حاجة إلى صدقه ونبله ..

وانتشى بها المكان ، صار الكل بحاجة إلى أن يتجمعوا فيه .. وجودهم خارج مفهوم الفيض .. داخل الحاجة إلى ابتسامات نقية ..

الحـــارس

منذ أن عُينّ هذا الحارس في دائرتنا ، وأنا غير مطمئن إليه ، وغير مشفق عليه ، مع أن كل من يعمل في دائرتنا ، يرفق به ويتودد إليه .

كان الحارس يعرف جيدًا بأنني أنا الوحيد الذي لايرتاح لوجوده ، لذلك كان يحاول التقرب مني وتقديم خدمات لا احتاجها منه .

ولم أعرف مصدر شعوره نحوي ، هل كان ودًا حقيقيًا أم ودًا زائفًا .. ؟ لكنني ارجّح بأنه ودّ زائف !

وقد حاولت أن اكتشف مصدر معرفته بشعوري نحوه ، خاصة وأنني لم أقل لأحد شيئًا يتعلق به .. ولم أصل إلى يقين ثابت أدين به أحد زملائي في نقل اشمئزازي وقرفي منه .

لم يكن الحارس بليد الإحساس كما يعتقد البعض ، مع أنه فاقد لحواسه ، فهو أصم أبكم ولا يرى .. لكن حاسة الشم لديه قوية جدًا بحيث تحتوي كل الحواس الأخرى .. وهو يتعامل بحاسة الشم هذه على أسس عجيبة ، فأنت لا تعرف كيف يعرف بتفاصيل كل ما يجري في الدائرة وبم يتميز فلان أو فلانة عن غيرهما .. وقد عبرالبعض عن الإحساس بأنه فضيلة الإله ، فهو يأخذ ممن يشاء ، ويهب من يشاء وهو على كل شي قدير .. وأثنى البعض الآخر على إنسانية المدير العام وإصداره أمر تعيينه

حارسًا فى دائرتنا .. وأعجبوا لأول وهلة بهذا الإجراء ، واتهموا المدير العام بأن هذا الحارس لابد أن يمت له بصلة قربى ، ويرتبط بعلائق أسرية معه ..

لكن توقعاتهم خابت جميعًا .. والثابت أو المرجح للجميع أن السيد المدير العام يعتقد بأن ما يتقاضاه هذا الحارس ، إن هو إلا زكاة من بيت مال المسلمين .

ومسألة تعيين الرجل بمهمة حارس ، ما هو إلا اجراء انسانى ، قصد من خلاله إكرام الرجل والاعتراف بإنسانيته وحقه فى الحياة ، وأنه لا يعول شيئًا على حراسته ، لذلك تم اختياره للعمل نهارًا .. والدائرة فى أمان ولا تحتاج إلى حارس أصلاً ، فالعيون كلها مفتوحة ، ولا سبيل للصوص والمخربين للدخول إلى اسوارها ، كما أن هناك استعلامات صارمة فى تعاملها مع كل زائر .. والتعامل معه بروح من الشك ، ولا يسمح لأحد بالدخول مالم يترك هويته وتؤخذ منه كافة المعلومات التى تتعلق بأسباب زيارته ووقتها .. ولعل البعض يسأل : هل كان الرجل يقوم بمهمة كلب حراسة ، مادام يعتمد على حاسة الشم القوية ؟

والواقع أن هذا الأمر لم يرد على ذهن أحد غيرى ، ولم أكتف بهذا الأمر وحسب ، وإنما كنت أضع الرجل فى موقع الشك دائمًا ، وأتعامل معه على أنه إنسان طبيعى يسمع ويرى ويتكلم ..

أما كيف ولد هذا الشك لدىّ ، فإن أمره متروك لإحساس بكذب وزيف هذا الحارس أولاً ، ووجود قناعة باتت أكيدة لى ، بأن المعلومات التى تصل المدير العام اولاً بأول ، مصدرها واحد ... وهذا المصدر هو الحارس

وليس أحدًا غيره ... مع أنه لم يكن بليدًا ولا غافلاً عن نفسه فى أية لحظة كونه إنسانًا سويًا .. فقد كان يتصرف مع الآخرين وفى غيابهم على أساس واحد : أصم . أبكم . أعمى ... وإن المدير العام قد أكرمه وأحسن إليه وأعاد إليه إنسانيته التى افتقدها .. إلا أن هذا الثناء سرعان ما تغير ، وبات المدير العام ، رجلاً متكبرًا لا يعرف العدل ولا الاستقامة فى عمله .. وانه يقرب نحوه من يشاء ويبعد من يشاء .. وفق هواه .

وانتقل الحديث إلى استياء من ظروف العمل .. إلى رفض لعدد من الإجراءات والتعليمات التى تصدر من مصادر عليا .

وحين كنت أسأله عن أسباب استيائه ورفضه . . كان يفهم ما أقصده جيدًا .. ومن هنا إزداد شكى بأمره .. فكيف يفهمنى باللمس ، وكيف يتحول همسى الداخلى إلى صورة مكبرة وصريحة وصائتة .. وكيف تصل إليه بسهولة .. ؟ !

لقد كان يجيب إجابة العارف بفحوى السؤال ومقاصده ، إجابة وافيه ، لا تدل على ذكاء ، بقدر ما تدل على فطنة ببواطن الإمور ..

كان يجيب : أنا إنسان من حقى أن أرفض ما هو غير سليم فى الحياة .

- ولكن الحياة لاتصنعها أنت ..

ألمس كفه ، كما لو أننى أدون وأقول .. وكان يحاورنى بطلاقة ، محاولاً أن يستدرجنى إلى مزيد من الكلام ، وكأننى خزانة من المعلومات يستهدف الحصول عليها بشكل أو بآخر ، وكنت أحسن فى كل مرة بنياته التى يبيتها نحوى ، فأطرد أسئلتى وانصرف إلى عملى .. وأتجاهل وجوده كليًا .

كان زملائى يعجبون لهذا الحوار بيننا ،كيف أترجم أسئلتى معه ، وكيف أترجم إجاباته الخرساء لى ، وباتوا يقصدوننى كلما حاولوا التفاهم معه ، فأجرى اللازم ويتم كل شىء على خير.

وبدأت أشك بنفسى .. أسألها : هل تعلمت لغة الحارس ، أم تعلم لغتى الخاصة ، ووصلت إلى يقين ثابت بأن هذا الرجل ، ظل لرجل آخر يعيش فى داخله .. أما ظلى .. فهو أنا وليس من أحد سواى . وبدأت اكتشف بأنه يتسلل إلى غرفتى ، مثلما كنت اتسلل – دون علمه– إلى أماكنه الخفية .. فتارة أجده خلف جدار ، أو متكئًا على شجرة ، أو يقف عند سور .. كلانا كان يبحث عن الآخر ... وكبر هذا البحث حتى صار خوفًا .

كان يتظاهر بأننى الشخص الأقرب إليه .. فى حين كنت أتحفظ منه ، واختطف نفسى منفلتًا من اهتمامه الزائف .. الذى يبيّت لى من خلاله سبيلاً إلى الهلاك .

لم أكن أدرى سر الخصومة السرية بينى وبينه .. فيما يكون الود الزائف قدرنا معًا حتى اكتشفته ذات مرة وهو يخفى جهازًا صغيرًا فى جيبه ..

لم أكن أعرف نوع الجهاز ، ولكنه بالتأكيد لا علاقة له بالاستخدام (اليومى ... ومرة انتبهت إليه وهو يضغط على شىء فى جيبه .. كمن يستخدم هذا الضغط لمهمة ما . وكبر شكى ، وتحول إلى خوف ، وبدأت أتهرب منه .. فى حين كان يلاحقنى ويتقرب إلى بشتى السبل ..

وذات يوم . . عرفت بأنه قد شم رائحتى فى الدائرة . . وأنه قد نقل عنى أشياء لا أعرفها عن نفسى ، ذلك أن المدير العام قد أرسل فى طلبى ، وسألنى عن سر الخصومة بينى وبين حارس معطل كليًا .. وعن شأنى به ..

قلت مدعيًا : لا خصومة بيننا أبدًا ، كل منا يمارس عمله بعيدًا عن الآخر . . لكنه فضولى يتدخل فى شؤونى .

– أنه يحبك ، ويريد أن يكون صديقًا لك !

وفى نفسى رفضت هذه الصداقة المعروضة علىّ . . إلا أننى وخشية من استفسارات لاحقة من المدير العام ..

أجبت : إننى أحترمه وأكن له الاحترام والود . . فهل وصلك شىء خلاف ذلك . . قال : لا . . وكانت لا بمثابة نعم وبالتأكيد ..

وانصرفت على أمل أن نكون اصدقاء .

وبعدها التقيت بالحارس . . لم يفاتحنى بشىء ، ولم يظهر عليه بأنه يعرف مادار بينى وبين المدير العام بشأنه ، إلا أننى كنت أدرك تمامًا بأنه على معرفة بكل التفاصيل .. تجاهلت الامر متعمدًا . لكننى لم أكن أطيق حاسة الشم التى يلاحقنى بها وينفذ بها إلى عظامى .. إلى كل الخلايا فى .

وبدأت أخافه أخاف صمته وحركاته وتماديه فى استغفالى واستغفال زملائى .. حتى قال لى أحد زملائى مرة : مديرنا يعرف كل ما يدور بيننا .. كل صغيرة وكبيرة سمعتها على لسان المدير .. من نقل كل هذا للمدير العام .. ؟

– من كان فى الغرفة .

– لا أحد سوانا !

– والحارس .

– موجود .. هل تشك فى أصم ، أبكم ، أعمى؟

– أشك ! .. إننى متأكد .

– معنى هذا أن الحارس ..

– نعم

وانتقل حديثنا من المدير العام إلى جهات أعلى .. حتى استدعيت ذات مرة إلى جهة ما .. بدأت التحقيق معى بأن اسمعتنى صوتى .. ولم يكن إنكارى مجديًا .. فقد أدنت ...... مثلما أدين صاحبى بعد أيام .. وأنا أتوقع إدانة الآخرين تباعًا .. وليس بأستطاعتى أن أعلم أصحابى بأن الحارس هو السبب .. فانتبهوا إليه .. ولا تتركوه يمارس لعبته عليكم . . . ترى من يخبر زملائى بالأمر ، حتى لا يحسبوا أن مال المسلمين . . زكاة محمودة لمن يحرس ألسنة الناس . يرقبها ويمارس وجودًا زائفًا عليهم .. ؟

بازوفت ..
كل الطرق مغلقة

كان الربيع يتنفس عطر الحدائق .. فيما كانت الشمس تمد أنوثتها المضيئة على بغداد ، فتبدو زاهية ، مثل عروس تزف فى ليلة عيد .

كانت سبع حمامات تحلق فى سماء بغداد ، وعلى امتداد بصرها كان يمتد دجلة بهدوء .

الحمامات حلقت فوق غابات من النخيل والزيتون .. رآها الأطفال الذين كانوا يلعبون فى الساحات .. وتركوا الألعاب السويدية . وتصالح فريقا كرة القدم ..

كانت الحمامات تدور ، تدور .. كأنما تلقى السلام على الناظرين إليها ، تحييهم ، وتبارك لهم أمنهم .

كان ربيع بغداد يترك سحره فى القلوب ، فتنشرح بالبشر والفرح . هكذا بانت بغداد فى عينى : فرزات رباطى بازوفت .. وعندئذ انتابه الغم ، وامتلأ قلبه بالغضب .

قال فى نفسه : لابد من إعادة التجربة .. ولابد لبريطانيا أن تبقى هى العظمى .

كان غزو جزر الفوكلاند ماثلا فى ذاكرته .. كان يرفض أن يقال بأن بلاده (غازية) .. أنما هى بلد (فاتح) يريد أن ينشر الحضارة فى جزر مجهولة ، مقطوعة الصلة بالعالم المتمدن ..

فكر بالمهمة التى جاء من أجلها إلى بغداد .. كانت مهمة صعبة ، وأمامه أن يتحدى الصعاب ، ويؤكد للثقاة به حسن اختيارهم له . كان يعرف جيدا أن بغداد تبحث عن المزيد من التكنولوچيا الحديثة لتطوير الحياة فيها . وأنها دائمة البحث عن سبل لمعالجة أوجاع كل مريض فيها .. وأن الناس فى هذا البلد متآلفون ، تواقون إلى السلام والفرح والحياة الآمنة والرزق الحلال .

وكلما ازدادت معرفته ببغداد ، كان حقده يكدر بحلمه فى إنجاز ما جاء لتحقيقة ضروريا .

كان دائم الغضب من بغداد .. ذلك أن أبناء هذه المدينة لا طاقة لهم على احتمال ساعات طويلة من النوم فهناك من يوقظهم من نومهم فى أوقات محددة ويدعوهم للطهر والنقاء والصدق غير منابر تناديهم للصلاة .

خبزهم حار ، وأفرانهم لاتنطفىء .. فهو يرى الناس يستيقظون فجرًا ويتوجهون إلى الأفران ، ويتسابقون للوصول إلى أعمالهم وفى الظهيرة المتأخرة ، يستعدون لجولة أخرى من العمل المسائى ، وحين يخيم الليل ، تشعل بغداد قناديلها ، وتتجمع الأسر .. كل فى شؤونه ، وكل يعد نفسه للغد .

عمل .. عمل .. الكل يعملون ، ولا أحد يتوقف عن العمل .. كانت الصورة غير الصورة التى رسمت له .. كون بغداد سيعرفها بوضوح ، ذلك أنه سيجد (بين كل مقهى ومقهى .. مقهى) .. الآن

.. لم يجد إلا محلا عامرًا ، وآخر يشيده العمرانْ .

تساءل مع نفسه

كيف سيشق طريقة أمام هذا الزحام .. زحام الناس ، والنخيل والشواطىء ، والحمامات المتجمعة فى سماء بغداد ؟

كان متشغلا بترتيب افكاره وخططه .. وحين استيقظ صباح بغداد ، راح بازوفت يقرأ وجوه المارة واحدًا واحدًا .. لم يلتفت إليه أحد .. وحين اطمان إلى أنه لايثير الانتباه .استأذن أحد المارة وقد حسبه طالبا جامعيًا .. بعد أن شاهده يرتدى ملابس تجمع بين اللونين الأزرق والرصاصى ، حاملاً كتبا إنجليزية .. استوقف بازوفت الطالب وساله :

- Please do you speak English?

- Yes, I do .

- Please can yon help me get some information?

- Yes, now you can askme

- Where is the Medical City ?

- It is in Bab al-Moatham

- Then what is the building which is beside the Medical City ?

صمت الطالب الجامعى قليلا ، وحدق فى وجه بازوفت مليا وانتابته شكوك فى أسئلة بازوفت .. وأجابه قائلا :

- I can't . give you more information

إلا أن الجامعى ، أحس بأنه قد أجاب بسرعة . ولم يعط لذاكرته فرصة لكى تفكر ، فاستدرك قائلا :

- But I shall lead you to the neighbouring building to the Medical City.

وأخذ الجامعى بيد بازوفت فى محاولة منه لإشعاره بالاطمئنان .. فيما كان كل شيء فيه يتحول إلى جهاز انتباه ويقظة وحسم للموقف .. سارا معا الطالب الجامعى تنتابه شكوك عديدة ، فيما يتعجل بازوفت كل لحظة لمعرفة ما يدور حول ..

فكرة استيقظت فى رأس الجامعى .. وطلب إلى بازوفت

- Please, just a minute, I have a friend I shall invite him to lead him to the place you want

كان الطالب يستعجل الوصول إلى أقرب مركز للشرطة بحيث لايشعر بازوفت بأن رفيق دربه يدخل المركز .

فى الطريق تحدثا عن جمل بغداد وربيعها ... وشعر بازوفت بالأمان . عندئذ اوقف الجامعى . بازوفت .. ثم عاد بعد قليل ومعه شاب وسيم يرتدى ملابس مدنية .. وصافح الشاب بازوفت بحرارة .

توجه الجامعى إلى كليته . ينتابه شعور بانه قد ادى مهمة كبيرة . وكان إحساسه بالسعادة يملأ عليه نشوة ذلك الصباح ، فيما كان الشاب يبذل مساعيه لكى يطمان إليه بازوفت .

كان الشاب يتقن الإنجليزية بطلاقة . مما ساعد على إيجاد حوار مشترك بينه وبين بازوفت .

ظل بازوفت تلك الليلة يقظا . يفكر بالشاب . الذى كان يلح على مساعدته ، باعتبار أن إكرام الضيوف جزء من خصائص بلاده .. وصارا يلتقيان يوميا .

بازوفت التقى ممرضة فى مدينة الطب كان يحمل إليها رسالة ثم صار يخرج معها ومع الشاب .. الثلاثة فى محور صداقة حميمة كان بازوفت يبذل مساعيه لادامة علاقتة بالشاب العراقى الذى كان يلح علي بازوفت أن يتحدث لكى يتعلم منه كيفية نطق الكلمة الإنجليزية باعتباره طالبا جامعيا يدرس الأدب الإنجليزى .

بينما كانت الممرضة تحسن الابتسامة الجذابة ، وترتدى ملابس أنيقة دالة على ذوق رفيع وتتعطر بعطر لايستطيع المرء إنقاذ نفسه من سحره وجاذبيته .

بازوفت يرى ، ويسمع ، ويلتقط صورا ، كانت صفته طبية ، لطبيب هندى يتقن الإنجليزية ويريد أن يسجل لقطات مصورة لكل مدينة يزورها .

ولما كان يعرف جمال المرأة .. سبيلا للإغواء ، وأن علاج المرض أهم من كل شيء لدى المرء .. راح يدعى معالجة المرضى مجانا ، ويطوف المدينة مع أنثى تلتف العيون حولها .

كان يرى بغداد فى عينيه ومرضى .. وكلاهما خاضعان لعلاجه . فيما كانت بغداد تنظر إليه من خلال عينى الشاب بكثير من الحذاقة والانتباه .

ادعى الشاب عشقا وهياما بالفتاة . والفتاة تستجيب وتتخفى وفى محاولة لاحترام نباهة بازوفت الطبية . كان الشاب يجىء ببعض معارفه قصد المعالجة على يد طبيب ماهر مثل بازوفت .

كان ضوء القمر البغدادى يتسلل من زجاج النافذة . ويلقى ضوءه على خرائط وكلمات متنسترة ، يرسم « بازوفت » أبعادها وملامحها فى كل ليلة .

كل ليل بغداد يسهر .. مع النجوم والقمر الوحيد ويازوفت يرسم خطته لقتل هذا السهر السعيد ..

كانت به رغبة شديدة فى أن يكون البادىء الأول والمخطط لجزر عراقية . أسوة بجزر الفوكلاند فالتجربة (الناجحة) لبلاده فى تقسيم البلدان إلى جزر وكيانات وتقطيع أوصال الخارطة الواحدة ، لابد أن تتواصل . ولابد من اقتسام الجزء إلى أجزاء .

بازوفت يعد وثيقة ، ويرسم خارطة ، ويكتب معلومة . ويصور هدفا ، ويسجل أصواتا .

الطبيب الذى رسمه لنفسه ، كان يمارس مهمته (الإنسانية) ، تساعده ممرضة حسناء ، تجعل الطريق أمامه سالكة ..

درب يقود إلى دروب .. والشاب يرصد . ويؤكد أواصر صداقته للحسناء والطبيب الهندى البارع .

ويسهر ليل بغداد .. ليل لاينام عند آهات أم كلثوم ولا يغفو على خدر جو ربيعى يبتكر الهدوء والجمال لنفسه ..

ليل بغداد .. لاينام .. وبازوفت يترقب ليلاً تنطفىء فيه النجوم والقمر الوحيد ... حتى يعد تقارير لاحقة ، ويدلي بمعلومات أكثر وضوحًا .. غير أن ربيع بغداد كان يتنفس ..

فيما كانت انفاس بازوفت لا يكفيها أن تكون بريطانية المهمة ، ولا إيرانية الأصل ، ولاهندية الادعاء .

كانت أنفاسه محاصرة بطوق يشد .. يشد .. حتى النهاية .. وحمامات تتسع مداراتها . وعطر النرجس والياسمين والروز والقداح .. قد جعل من بغداد مفتوحة الأفق .. ودون أبنائها كل الطرق موصدة .

بغداد في ١٦/٣/١٩٩٠

همس الليل

منذ وقت مبكر ، كان شهر شباط يتسلل إلى الأشياء ، يعطيها عافيته وألقه وتفتحه .. كانت الأشياء تنمو وتزهر وتكبر من خلاله .

الأزهار تعلن رغبتها بالتفتح والبوح بعطورها ، وفساتين الفتيات تتلون مزهوة بربيع الشباب والفتنة التى تكشف عن فرح مكتوم . والنمل .. النمل هذا المخلوق الصغير . الصغير . بدأ يتنفس الضوء والشمس ، بعد أن كان اشهرا يخفى رغبته فى الخروج عن وجوده السرى .

كل شيء حولها . كان يعلن عن نفسه ، إلا هى .. هى وحدها تحتضن البرد إلى أمد يطول ، فيسحقها ، ويقتل فيها أى حافز لاستقبال دفء شباط .

ليس هناك من يدق باب غرفتها إلا الريح الباردة .. وليس هناك من ألق يدفع عنها حصار الجدران الأربعة . سوى نافذة تطل على حديقة صغيرة مهجورة ، تركت للطبيعة ، لتفعل فى رملها ما تشاء .

هاهى قد انتهت من اكتشافاتها جميعا ، اكتشاف أن تكون صاحبة شهادة جامعية رفيعة المستوى ، وأن تكون موضع ثقة من حولها وأن تكون امرأة تتحلى بأجمل الكلمات وتتقلد أسمى ابتسامات التفاؤل والانشراح .

ويات صبرها يحاصرها . وحرصها على أن تحقق حضورها بين الآخرين . وأن تعنى بوحدة أمها المريضة . بعد أن تخلى عنها كل أبنائها وبقيت هى . . هى الإنسانة الوحيدة التى ترعاها ، بعد أن كانت ترعى اخوتها الخمسة الذين يصغرونها رعاية خاصة . فيها اندفاع وتفان واستعداد وتصميم للتخلى عن كل خصوصياتها من أجلهم .

الأخوة الخمسة تزوجوا الواحد بعد الآخر ، وتركوا أمهم لديها . كأنما وجدوا فيها خاصية العناية وتحمل المسؤولية ، دونها جميعًا .

كانت تحس بمرارة داخلية لاتكشف عنها أبدا ، وقد تجد لنفسها فرحا ، تبرر به هذا الثقل الذى بات طقسها اليومى الذى بدأ مع حياتها وانتهى به .

كانت أمها قد نامت ، وقد اطمانت إلى أنها لن تستيقظ إلا بعد ساعات طويلة .

تسللت إلى غرفتها ، وجلست عند النافذة تراقب همس الليل . والضوء الشاحب عبر النافذة ، كأنما يعلن عن شحوب الحياة نفسها فى هذا الليل المختنق عميق عميق كأنه يخرج من أغوار سحيقة فى البعد والرغبة والحاجة والاستجابة والألم اللذيذ .

وصارت تلح عليها رغبة داخلية فى اكتشاف هذا الصوت المبحوح الذى يجمع بين الحزن والوجع والترقب المستجاب .

أزاحت بقية الستارة التى كانت تسدل على طول وعرض النافذة ، ولا تتيح إلا فسحة صغيرة لتمد من خلالها ، حدودا ضيقة للبصر .

هناك ، فى القريب البعيد ، فى الغائب الحاضر ، فى العتمة والضوء . فى الحزن والفرح ، فى السعادة إلى أقصى مناها ، وفى الأسرار حتى

مقتلها واختناقها وأفولها حتى تبصر ، تبصر بكل شيء فيها تحولت إلى كتلة من العيون ، كل حواسها استجابت للمشاهدة والتحقق واللااستجابة والحنو.

تفجرت كل خلية فيها ، لتصبح نافذة ونظرة ودهشة .. وأشياء لاتعرف كيف تحددها .

هناك تحت شجرة التفاح ، شجرة التفاح ، تفاح اللذة الأولى يستعيد مجددة الآن ، التفاح المعافى ينشد بخدين موردين اغنية هادئة ، سحرية ، ممجدة ، وديه .. لمخلوقين يلتمان إلى بعضهما ، كأنما يتداخلان فى صميم الآخر ، كأنما يستجيبان بالهمس والرغبة للتفاحة التى امتلك سحرها الأول ، فتمجدت بالخلود تارة واللعنة المستباحة .. صوت قطة تموء . وقد متباه يجعل للصوت حميميته الخاصة ولهائه الحار يتداخل فى لحظات تتجلى فيه الاصوات لتصبح طقسا من الفرح الغامر ، والجنة المستجابة .

مخلوقان صغيران ، قط وقطة .. حولا كل سنوات عمرها إلى عالم لم تألفه من قبل .. عالم يصرخ فيها ويتحدى صمتها الخائف .

ظلت تحدق هناك ، فى المكان الذى أسر نظراتها ، وجعلها تحلم بالمستحيل هناك ، خفق قلبان . وتنفس الشجر ، وظل الشجر ، وتراب الشجر .. جذره .. تنفسوا جميعا حاجة .. تحقق مناها ، وصار بمقدورها أن تزهو وتنطلق فرحة .

هناك .. هناك ، كان اللهاث من تعب لذيذ ، يدق أبواب قلبها ، يخاطب حواسها ، يجل من نظراتها .. ترى مالم تره من قبل .

وألفت المكان ..

صار المكان المقدس ، الشفاف ، السعيد ، الحالم ، السرى ، الفرح ، الأمل ....

ترى فى المكان سحراً جديداً . . . فهناك تفاحة اللذة البكر . . نشوة لمخلوقين لم تكن تعيرهما أهمية . . أما الآن فقد أصبح كل شىء يحيط بها لا يخرج عن إطاره الثنائى .

اثنان . . الرقم الذى يثير الدهشة . . كل اثنين يثير فيها الحاجة إلى أليف يطرد عنها وحشية (الواحد) المحنط بالندم والحزن الثقيل .

ظلت تنظر إلى المكان السحرى . . وفى نظراتها الكلية هناك فوجئت بظل رأس . رأس رجل ، ظل لرجل ما ... الآخر الذى يتخفى هناك كان رجلا .. كان فى أقصى العالم بوجودها الانثوى ..

هناك . . سر يكتشف .

هناك .. تفاحة حواء تخاطب المجهول ..

والمجهول هناك كان يكتشف الأشياء مثلها . . مثلها تماما . . هكذا تقول نظراته إليها . . هكذا تقول نظراتها إليه .

وإليهما معا ، كان المخلوقات يعلمانهما أبجدية العشق . . فيما كان شباط يدفع بعمريهما إلى الربيع . . فيما تجمع شجرة التفاح حصار الظل والترقب والموعدة الغائب وحدود الجوار المكتوم ..

فى تلك الساعة من الليل . فى ليلة الساعة المشتهاة ، كان العمر يتوسل المواعيد الجميلة .

فى الليل من تلك الساعة . كان ضوء غرفتها يتسلل خارج النافذة . فيما كان ظل النافذة الآخرى ينعكس على خضرة الحديقة ويقترب من الشجرة التى تخضر باللذة الأزلية .

هناك حيث العالم يترقب همس الليل .. عالمه . عالمها .. عالمهما معا ، كأنما يوثق بينهما موعدا غائبا .. يراد له أن يحضر فى الساعة نفسها ، وفى المكان نفسه .. كانا يلتقيان . . ظل لرأس رجل ، وأنفاس امرأة بعيدة – قريبة .

هناك .. صارت النوافذ مفاتيح هواء يمر بها ، مثلما يمر به .

هناك الضوء والظل ، الانفاس والبوح المتستر يستظلان تحت شجرة التفاح .

فى ذلك المكان . تكسرت الفصول اليابسة . وصار الهمس الداخلى للغصون يعلن عن نفسه فى براعم تشق الجفاف بحافز من الخضرة التى تريد أن تستديم .

ظل لرجل مكتمل يفترش بهاء الخضرة ، فينتشى المكان بالزهو .

وإلى الظل تتقدم امرأة خجلى تبوح للرجل بالضوء المشع لجسد يتوسل لحظات الفرح العميق .

وهناك .. فى الساعة التى تترقب . المكان الذى يريد أن يستريح كانت شجرة التفاح تمد أغصانها المخضرة على مخلوقين يتداخل فى حضورهما الفرح والخوف والألفة .

هناك .. كانت تفاحة الأمل تزهو لأدم وحواء ، حيث يعيد كل منهما قراءة الدرس الأول فى النشوة ....

وهناك كان رمل الحديقة يتداخل فى مسامات الأصابع التى كانت تحفر اللذة الغائبة طويلا . الحاضرة فى الرغبة التى اشعلت قنديلا أزليا لا ينطفىء .

١٩٨٩/١٢/٢١

الســاحة

الزمـان المنسى .. اتذكره .. وهـا أنا أعيد صيـاغته من ذاكرتى .. ذلك أن العام مفتون بـالحجر .

نفترق ..

عند الساحة التى تتكوم فيها الأشجار نفترق . . أنت إلى منزلك المجاور لشجرة التوت . وأنا إلى غرفتى المجاورة لمركز البوليس .

وأدور فى غرفتى بعد وصولى إليها حالاً .. اقول لنفسى لعل الدوران فى غرفة محاطة بالرطوبة والعفونة ..

أسلم كثيرًا من الدوران حول ساحة محاطة بفضاء شاسع .

أتحدث . بعد أن أكون قد تأكدت تمامًا بأن ليس فى غرفتى جهاز تسجيل ولا كتاب ممنوع ولا سكين حادة الحافة .

الجهاز وثيقة ، والكتاب يعلن للآخرين كيف أفكر ، والسكين قد تكون خلاصى من أزمات اعيشها وربما تكون أداة سهلة الاستخدام من قبل زائر الليل الثقيل ..

أخاف .. وتخاف .

أخاف منها . وتخاف منى .

أخاف من إرادتها الأنثوية وعطرها الحدائقى ، وتخاف من أشياء تجعلها مترددة ، فهى لا تعرف إلا صفحات قليلة عنى .

أقول لها : تعالى نكسر خوفًا بخوف .. نتجاوز مخاوفنا معًا .

تقول : بهذه السرعة .

أقول : الوردة تزهر فى أوانها ، الطيور تفقس عن أفراخ فى مواقيت محددة ، الديدان تتكاثر فى زمن خاص .

تجيب : وللعلاقة بيننا زمانها أيضًا .

تجيب : وللعلاقة بيننا زمانها أيضًا .

أجيب : ولكن لبعض الورود ، ولبعض الطيور ، ولبعض الديدان .. خصائص معينة ، سابقة لغيرها . هناك أزهار تعطر الأجواء حال شتلها ، وهناك حمامات تبيض وتفقس فى أيام ، ولاتعدم الديدان خصائص مماثلة .. كيف لا تكون خصائص لقائنا متميزة ؟

عند الساحة نفترق ، ونقتل حديثًا مورقًا .. تعيد هى مجد الحديث عند شجرة التوت ، وأعيد أنا الحديث عند نافذة المنزل ورتاج الباب .

أقول : متى يكون الصحو شاملاً ، فسيح الأرجاء ... ؟

لا أجد إجابة . . وربما تكون هى قد طرحت على نفسها ذات السؤال ولم تجب عنه .. تعالى ، تعالى نجد الإجابة معًا . . أنت وأنا أسعد مخلوقين يجدان الأجويه عن الأسئلة الحائرة .

نافذة الغرفة مفتوحة ، قفزت ، أغلقتها ، انساب صوت اندفاع سيارة وتوقفها فجأة ، ثم الضغط السريع على بوقها .

البوق لا حقنى مرارًا . كرهت اسمه وصوته وشكله .. وكنت أقفل كل جهاز يرتبط به . فأنا لا أريد سماعه من خلال المذياع أو التلفزيون أو .. السيارة ..

اندفع الباب فجأة ودخل صديق .. على غير عادته .. أنيقًا معطرًا .

لم أسأل ، أدركت أن المسـألة تتعلق بعشق جديد يلذ له أن يتجدد دائمًا ...

فكلنا إلى التراب كما يقول ويبقى وجه.الرب .. والوجوه المرتاحة .. تنام بسلام ..

كدت أبكى . وأنفجر وأدفع بالحيطان خارج غرفتى ..

كدت أصيح بك أنت .. تعالى . تعالى . اعبرى الساحة وتعالى إلىّ .. إياك أن تدورى حول الساحة ، الساحة سورت بالأسلاك الشائكة . . حبسوا أزهارها وأشجارها .. لا تقتربى أخاف على أصابعك أن تدمى .

ولكننى بحاجة إليك ، فكيف أعبر إليك أو تعبرين إلىّ :

صديق .. ضجر لاستقبالى الرتيب .. سألنى :

– ما بك ؟

– لا شىء .

– حب جديد ؟

– لا حب بدون خوف .

– ومن أين يأتى الخوف ؟

– من مفترق الساحة القريبة .

– الساحة .. ؟

– نعم هى . هى المفترق بينى وبينها .. هى مسلحة بالكتمان والخوف . وأنا مطعون بالهزيمة والأحزان العميقة داعبنى . لم أستجب . ضحك . لم أضحك . أقفل الباب خلفه . فتحت الباب وجعلت الهواء يدخل بحرية تامة ..

فى اليوم التالى التقينا معًا .. أنا وأنت .

صفحة مضافة إلى معرفة بعضنا .. كل صفحة من حياة واحد منا ، تمتلىء بالخطوط التى تدمى وتتوتر وتلتق ببعضها .

الصحفة تقود إلى الصفحة . المعرفة تزداد تقطعها بمسار طويل تقترحه .

– أريد السير فوق الجسر وحيدة .

أومأت برأسى .. وبقيت أراقب خطواتها . خطوة خطوة ..

الماء من تحتها كان يغنى . والجسر يحلق بها .. وأنا الحجر الميت هنا انتظر موجة من ماء دجلة ونفحة من سماء زرقاء تراها .

توسلت إلى دجلة وإلى سماء الجسر أن يصونا وجودها فى المكان .

وعدت عندما ذابت عن أحداق عيونى ..

عدت أجر خطى ثقيلة . ويركبنى رأس مصدوع .

أتراها اختارت الذهاب إلى الساحة وحيدة ؟ أن تقترب من الأسلاك الشائكة ثم تذهب إلى منزلها الشجرى ، أتراها اختارت حقيقة أخرى

تمتحن فى الرجولة ؟ أتراهـا تعود إلىّ بضحكتها ولغتها ووجهها الذى لا يستطيب للاصباغ وأنما يهوى العطر . العطر مساء فحسب .

وأنا أضىء الداخل . أعرف دقة الأشياء ، أعرف اغتصاب لحظات الحنان هنا ، والفستان الملون هناك . أعرف أن ضحكة طفل قد جفت .. وأعرف .. أعرف .. أن كفنى دونك أسود .. أسود ، ومن يومها التصق فى وجودى اللون الاسود وفوجئت بأن النصاعة شوهت . صارت لعنة .. أردت عندئذ أن أمزق كفنى .. ، وأبعثه من جديد وأنفخ فيه الروح ، حتى أرى وجهك الغائب وأدعوه للمجىء ... وأهتف بالحياة وبالدم فى الحدائق وأقر بأن الدائرة تدور وأن هذا العالم متغير لامحالة وأن الشجرة تلتقى الشجرة ، وألتقيك حتمًا ، دون أن تكون غرفتى مجاورة لمركز البوليس ..

شع الأمل فى داخلى ... يوم أضاء وجهك فى أعماقى .

فيا لوجهك النبيل أن يعود حتى تخترق معًا أسلاك الساحة ... ونجلس فوق العشب ونتناول قدحين من شاى العصر ..

العطـــر

احترق العطر فى أعماقه .. لمرات عديدة قال لـ « فلانة » أن العطر قد احترق . كان به إحساس يمتد إلى سنوات تالية . بأن عطر الزمن الآتى سيثير البهجة ويحقق أجواء محبة تمتد إلى آخر العمر .

لكن العطر قد احترق بين أصابعة وفى عينيه وقلبه .. وظلت «فلانه» تتفاءل ..

جلس يتأمل تفاصيل هذا الاحتراق .

كان الليل قد اختفى أكثر من منتصفه . . ومنذ وقت ليس بالقليل أعلن تلفزيون بغداد عن نهاية البث . وتابع المذياع حتى أنفاسه الأخيرة . ويقى لوحده يمارس طقوس التذكر .

حاول أن يستسلم للنوم ، احتمى من البرد فى مطلع الشتاء .. التف بغطاء ثقيل . ضاقت أنفاسه . أشعل المدفأة الغازية وراح يحدق فى ضوئها الأحمر .

ليس ثمة أمل قادم . هذا آخر ما توصل إليه .. ومن هنا لا سبيل إلى مقاومة تسلسل الأشياء والوقوف فى مجرى امتداد النهر .

كل شىء يسير بشكل معاكس . حياته والأيام التى تواجهه . والحقائق التى تطرح أمامه .

آخر الأمور جرى بالشكل الآتى .

باعتباره مسؤول الحسابات فى الدائرة . كان أمامه تدفيق الأوراق الحسابية .

كان به مس من الحب لعمله . حتى لكأنه يجد فى أقل مبلغ يصرف ويوقع عليه هو جزء من مصروفه الخاص .. وعرف فى دائرته كونه الأكثر دقة والأكثر حرصا . وظل العاملون معه يحرصون على أن تكون كل الأوراق التى توضع أمامه خالية من الخطأ .

وهذه المرة واجه الخطأ مباشرة .

وكان كل شىء أمامه يصرح بالخطأ . كانت الجدران تصرح به . ويداخله مرجل من الحركة والتوتب ، وحنق الأصوات فى داخله .. وكاد ينفجر .

الأمر ، يهمك ... وقع وينتهى الأمر . المدير الأعلى هو المسؤول ..

أنت الموظف الأدنى . وقع .. لاشأن لك .

أمسك بقلم الحبر . كأنما يمسكه للمره الأولى فى حياته . وجد أن كل الأوراق جاهزة ما عدا توقيعه .

– هيا وقع . ولا تعمل على إقامة فضيحة .

طلب فنجان قهوة . ودخن سيكارة وأخرى . تخطى . . كانت أقدامه ترتجف . وأصابعه متمرده على الاستجابة .

كان الامر يتعلق بالمدير العام نفسه .. فهل يسكت ؟

مضت دقائق . ثم ساعات وهو يربط السيكاره بالسيكارة . وفنجان القهوة بفنجان آخر . والآهة بالآهة . وفجأة أمسك بالقلم وراح يكتب :

« السيد المدير . تحية .

طيا قائمة الحسابات المتعلقة براتبكم . وباعتبار أنكم لا تمارسون فعلا العمل السابق الذى تتقاضون عنه مخصصات مهنة الهندسة . . ثم استقطاعها من راتبكم للعلم مع التقدير » .

ثم كتب اسمه ووقع فى آخر الصفحة .. وغلف طلبه بمظروف ونهض .. دخل إلى سكرتيرة المدير الأعلى ، وأوضح لها خصوصية المظروف إلى السيد المدير .. أومأت برأسها دون أن تجيب .. وأحس بأنها ضجرت لطلبه فمثلها وحدها من يحتفظ بكل أسرار السيد المدير . وهكذا عرفها الجميع . وكل عقوبة أو ترقية أو إجازة لا تمر إلا من بين أصابعها وابتسامتها الحلوة للسيد المدير .

انصرف ، ودخل غرفته ، وما كاد يجلس حتى دخل عامل الدائرة قائلا :

– السيد المدير يطلب حضورك فى الحال .

وأسرع لاستجابة نداء السيد المدير .. وكان قلبه يخفق للمفاجأة التى تنتظره . . طرق الباب . بعد أن أومأت له السكرتيرة بالدخول ، واستقبله المدير بغضب .

– ما دخلك أنت فى مخصصاتى . هل وصلك أمر بحذفها ؟

– أستاذ . ولكنكم تتقاضون راتب مدير عام وليس راتب مهندس . وقد صدر أمر بذلك ؟

– سألتك ، هل تسلمت أمرًا بإلغاء مخصصاتى ؟

– أستاذ ..

– أجب بنعم أم لا .

– لا ..

– إذن ، أنت تتصرف فى شؤون هذه الدائرة حسب رغباتك .

– أستاذ ..

– أخرج ..

وخرج مكسور الخاطر فيه أسى ثقيل . جلس مهموما ، وأمسك برأسه الذى راح الصداع يضرب فيه .

ولم يمض وقت طويل حتى دخل عامل الدائرة وسلمه أمرًا أداريًا مطبوعا بالآله الكاتبة يشير إلى توجيه عقوبة « إنذار » إليه لعدم التزامه بالأوامر الصادرة . وأنه سيعاقب بشدة مستقبلا إذا تكرر إهماله .

انكمش على نفسه . وضاقت أنفاسه ، وأحس بالاختناق .

قال : هو العطر يحترق .. وكل سبيل إلى أن تكون حدائق المستقبل معطرة . . أمر مستحيل . . وسيقول لـ « فلانة » مؤكدا أن العطر قد احترق .

* * *

فى المساء التقاها ، ورغم سوء صحته ، ومصاعب يومه ، كان قد سبقها إلى الموعد .

– مساء الخير يا « فلانه » .

وتجيبه بخجل :

- ومساؤك .

كان يسبقها فى التحية والموعد والابتسامة .

وفوجئت بابتسامته باهتة . خالية من ذلك التألق الذى عرفته .

أمسكت بيده . قالت فى سرها « ليس من المناسب أن أقول له .. »

وسألته :

- ما بك ؟

كانت تبحث عن الإجابة فى عينيه قبل لسانه . وفى وجهه قبل صوته .

- لا شىء ، لا شىء .

- بل كل شىء ، كل شىء

ابتسم مرة أخرى . واتضح لها هذه المرة ، بأن ابتسامته قلقة ، وفيها حزن غريب .

وتوسلت نظراتها إليه . كان لنظراتها فى صميمه فعل لا يعرف تحديده وموقعه ، ولكنها نظرات تملأ فراغ حياته كلها . وتحكم كل أوقاته بسعادة متناهية يحس بأن العالم سعيد ومعطر .

وحدثها بما جرى .

وظل الصمت بينهما مرًا .. كانت المرارة تعدم فيهما الإحساس بالسكون ، وبأن كل ما يحيط بهما يضيق عليهما .

وكان الوقت مملوءا بالهم .

وكان الصمت يشكل فراغا مذهلا بينهما .

فكرت بأن تبدأ بالكلام ، واحتارت .. كيف تبدأ ؟

وفكر هو بأن يواسيها قبل أن يواسي نفسه . قال وهو يمسك بيدها ويضغط عليها بشدة ويشابك أصابعه بأصابعها ..

– لا شيء يهم ما دمت معى .

– ولكننى لست معك دائمًا .

– المهم أن أفكر بك . . أن التفكير بك يسعدنى جدًا .

– وأنا .. أنا أخاف عليك فى غيابى .

– أذن كونى معى كل الزمن .

ابتسمت . ورددت « كل الزمن » بصوت هامس .

ودت لو تحقق أمانيه وأمانيها معا . وتشكل مع هذه الأمانى عطر الهناء .. غير أنها كانت تواجه الغربة عنه دائما .

ويقبض على روحها هم . تحاول أن تزيحه . ويضيق عليها ، تبعده . وتضيق أنفاسها ، يحس بها . بهمها وحزنها .

تعلم . تعلم جيدا . بأنه قد اصطفاها من دون النساء جميعًا وتعلم أن فرحه بها . فرح مشبع بالهناء . ويؤلمها أن تقتل فيه ذلك التوهج . وذلك التفجر بالغبطة .

وتعلم أيضًا أن عشقه لها. دفء ترتاح إليه . وتجد فى لغة الدفء هذه وشما هنا على الخدين والشفتين والنهدين .. والأصابع وخيوط شعرها .

كان شوقه يتبرعم كالورد فيعطى عطرًا . ويصفق نهار العصافير والفراشات .

وتعلم بأنه دونها لا يكترث لأمر . كل الأمور أمامه نائية . وكل الجسور قد تكسرت .. دونها لا يهمه أحد . ولا يهتم به أحد سواها . يخشى صراحته . فالعطر عنده ينبغى أن يوضع فى قنينة ويقفل . دون أن يفوح .. ذلك أن العطر حين يتسرب يصبحُ كل شيء مباحا ..

الأسرار والعشق والكلمة الجريئة . صادقة كلماته ، صادقة ، غير أن مهمتها ألا تعدم فيه الأمل ..

وقطع صمتها :

– لماذا لا نلتقى مرة تحت ضوء الشمس .. ؟

كانت تلك أمنية كبيرة يحملها ، وعاد يسألها :

– لماذا نلتقى فى الخفاء دائما .. ؟

كانت الأشجار فى حديقة الزوراء تحتضن حبهما ، وتحفظ كلمات الغزل الجميل .. تسكت العصافير فوق الأشجار ، تصغى لمناجاتهما . وتختزن سعادتهما وضحكاتهما معا . وفى الصباح يسعد كل الناس بالعصافير تنشد ما تحدثنا به ليلة أمس .

أحبا العصافير .. وارتبطا معا بصداقة وذكرى لقاء معها كل صباح .

سألها :

– تحدثى .. أرجوك .

آلمه سكوتها . أحست بقسوة سكوتها عليه .

– طوال أسبوع لا أجد من أتحدث إليه بشكل مطلق سواك ..

وأنت . أنت الآن ساكتة !

– إذن تحدث أنت .

– أريد أن أستمع إليك .

وتبتسم فى داخلها . كان حدسها يقول بأنه يفكر فى حديث عينيها وهى تغازله ، أكثر من كلماتها . . قال مرة :

– الكلمات تذوب كالشمعة ، ويبقى ضوء النظرات .

وظل يستقى من عينيها عشقا متبادلا ، وأناشيد فرح . قال .

– أنت حزينة ، حدثينى .

« هل تحدثه ؟ » خاطبت نفسها . سيزداد همه ، سيقول لها مؤكدا .

– « فلانه » العطر يحترق ، العطر يحترق .

جف حلقها . ولم يعد بإمكانها أن تقول له . « لن نلتقى » .

منذ عدة أيام ، وهى تحاور نفسها ، هل أقول له « لن نلتقى ؟ » .

وتؤكد لنفسها : « ولكننا لابد أن نلتقى . ولكن فى أوقات متباعدة » .

ستقول له « لن نلتقى » حتى لا تجعله يفكر بها وينتظرها فى الشارع أو على الهاتف أو . . أو فى أحلامه .

كانت تحاول أن تطرد نفسها من داخله . . لكن داخلها لايطرده .

كيف ، كيف إذن ستتحدث إليه ؟

وفوجئت بسؤاله . كأنما كان يعرف بما تفكر فيه :

– « فلانه » هل صدر أمر تعيينك ؟

كتمت صرخة ألحت أن تقتل الصمت .. وإجابت بفتور :

– صدر .

– ولماذا لم تقولى ذلك من قبل . . هل أنت حزينة من أجلى .

– من أجلى ومن أجلك .

– كيف . . لم الحزن ، لقد عرفتك متفائلة ابدا ؟

وأسلمها السكوت إلى السكوت ، لن تراه ، وسيصبح فراغها مذهلا ، ستترقب رؤيته ، لكن الترقب يظل هو الترقب .

– بعيدة . بعيدة عنك ، فى منطقة يستغرق الوصول إليها يومين .

– هذه مسألة متوقعة . لم أنت حزينة ؟

– ولكننا لن نلتقى !

– معلمة فى قريه بعيدة . سأجىء إليك بين فترة وأخرى .

سأكتب لك وتكتبين لى ، لن يحترق العطر بيننا .

وفوجئت مرة أخرى بأن تراه متفائلاً من أجلها . فابتسمت له من أعماقها .

– والعقوبة التى تسلمتها . . ألا تحزنك ؟

– تحزننى ، لكنك موجودة . فالفرح موجود إذن .

ودت لو تقبله . لو تعطر كل فؤاده بالمسيرة .

سألها :

– « فلانة » لماذا يحترق العطر ؟

– كل الأشياء قابلة للاشتعال .. العطر والوردة والسيف .. إلا .. إلا

وخجلت أن تقول له « إلا حبنا ، باق ، باق .. معطرا » وقبلته فى خده .. وراحت تركض فى حديقة الزوراء ، وراح يلاحقها ، بينما كان عطر الأزهار يفوح والعصافير تصغى إلى همسات عاشقين التقيا تحت ظل شجرة اتخذاها مأوى ومن حولهما كان المساء يشعل قناديل السماء ، فيحسان تحتها بأن العطر بينهما باق ، باق .

١٩٨٠/١/١٨

الحروب الجميلة !

فجأة وجد نفسه جالسًا إلى جانب السائق .

مقعد فارغ جنب السائق .. جلس .. وقبل أن يتكىء مرتاحًا بعد الزحمة والانتظار اللذين عانى منهما ، نهض كمن أصيب بتيار كهربائى .. ولما كان من الصعب عليه الخروج من سيارة « الكوستر » . والخروج بسلام دون سرقة أو تمزق أو سماع كلمة خشنة .. ارتضى البقاء . استسلم فى مقعدة وصرف نظره يمينًا .

كان من الممكن أن يظل هكذا حتى يصل مدينة الشعب . . إلا أن صوت السائق الواضح فى توجهه إليه : الله بالخير ، كان لابد أن يجيب بمثله ، ويلتفت إلى صاحبه . . كما أن دفع الأجرة لابد أن يتم يدًا بيد ، ووجها لوجه ..

كان يجب عليه مغادرة السيارة ، يجب .. حتى ينقذ نفسه من هذا الإحراج الذى وقع فيه ، ولا سبيل للخلاص منه .

قدم له السائق سيكارة .

– شكرًا لا أدخن .

– كنت تدخن . هل تركت التدخين ؟

لاذ بالصمت . اتخذه سبيلاً لقطع تسلسل الحديث . ناوله الورقة النقدية الخضراء . ابتسم السائق وبهدوء دفع اليد التى توجهت إليه بالنقود .

– شكرًا . . نحن لا نأخذ من الأصدقاء .

فكر ألا يجيب .. إلا أن السائق راح يسأله :

– كيف الحال هذه الأيام .. ؟

هنا وجد نفسه يصرخ بوجه السائق :

– هل تعرفنى .. أنا لا أعرفك !

كان يسأل ويجيب معًا ، حتى يقطع كل حديث يمكن أن يتواصل بينهما .

ابتسم السائق مرة أخرى ، ورفض استلام الأجرة ثانية ، وقدم سيكارة إليه .

– أبو حرب .. هل نسيت وجهى . ألم يجعلك هذا الوجه تتذكر شيئًا .. ؟

– لا .. وأنا لست أبا حرب .. من فضلك أريد النزول هنا .

– ولكن بيتك فى مدينة الشعب ، وليس فى الصليخ الجديد .

خاطب نفسه ، يعرفنى ، يعرف اسمى ، ومكان سكنى ، وأولادى . يعرف مهنتى بكل تأكيد . ربما كنت قد اسأت إليه يومًا .. بالتأكيد ، وإلا هل كنت قد أحسنت إلى أحد سواه ، إذن لماذا يكرمنى ويعاملنى بكل هذه الرقة وبكل هذا المعروف .. بالاحترام كله .. وأنا قد أسأت إليه .. هتف بغضب :

- أريد النزول هنا . بيتى هنا . ما شأنك ؟

- فليكن . سأتوقف كما تريد ، لحظة من فضلك ، كل ما فى الأمر .. أننى كنت أريد ايصالك إلى أولادك وزوجتك بأسرع وقت .

لم يجبه .. غادر السيارة مسرعًا ، بين رغبة السائق فى بقائه ، ورغبة الركاب فى نزوله ، حتى ينصرف السائق إلى الانتباه وإيصالهم بسلام .

* * *

عندما وضع أبو حرب قدمه فوق اسفلت الشارع .. ذات ظهيرة تموزية ، أحس بوطأة الحر يحرقه ، ويضغط على أنفاسه .

لم تكن هناك بقعة يستظل بها . أمسك بكيس أسود ، يكشف عن كليوين من الخيار المائى الكبير المصفر .. هذا كل ما استطاع شراءه من السوق الشعبى فى الباب المعظم .

وراح يجر خطواته فى تلك الظهيرة اللاهبة .. ثم يتوقف بانتظار سيارة « كوستر » أخرى تقله إلى مدينة الشعب .

.. فليكن . هذا أفضل من بقائه . حديث سيجر إلى حديث . سيكون هناك عتاب .. وخصومة ، واعادة لذكريات مريرة .. وجراح لم تندمل بعد نزفها فى القلب .. ونزف القلب موجع .. موجع .

اكتوى بمثل هذا الوجع .. بعد أن كان غائبًا عنه ، كأنما الوجع لا يعرف الطريق إليه أبدًا أبدًا .

أبو حرب ، كان فخورا باسمه ، واسم ابنه ، ومعانى الحرب .

لا شيء سوى الحرب . لا حوار مع من لا يطيع الأوامر ، كل شيء لا سبيل إلى حله إلا بالقوة .. بالحرب . القوة سلطان هذا الزمان وكل زمان ..

ولأن إيمانه بالحرب .. إيمان بالمطلق ، فقد تقدم فى مهماته العسكرية سريعًا .. وسواء كان تقدمه السريع هذا .. إكرامًا لشجاعته أو إيمانه أو الثقة به .. فإنه لم يكن بأى حال نتيجة لخبرته فى أساليب الحروب .. الأمر الذى كان يجعل أوامره تلحق بالجنود الكثير من الخسائر .. خسائر بشرية وصلت حد استشهاد حرب .. حرب ابنه الوحيد ..

ومن قبلله سعيد . سعيد الشاب الذى كان يعانى من الصمم . والذى كان القائد قد وضعه فى الخطوط الخلفية .. إذا به يدفعه إلى الخطوط الأمامية .. مشيرًا إلى القائد .. أن سعيد يزعم أنه أصم .. كذبًا ..

ونجى سعيد بأعجوبة فى اكثر من معركة .. مما جعل أمر صممه حالة لا يشك أحد فى كذبها ..

ولم تفلح التقارير الطبية ولم تشفع له توسلات جيرانه ولا السائق أبو سعيد فى رجاء مساعدة سعيد لم يكن سعيد .. سعيدًا فى الحرب أبدًا . هل من أحد يمكن أن يكون سعيدًا فى الحرب سوى أبى حرب ؟ هكذا كان يقول الجميع .

ويقى أبو حرب مثار نقمة الجيران جميعًا .. فقد عرفو أنه كان السبب فى استشهاد سعيد الأصم ، واقترح بعض الأقارب الانتقام منه .. إلا أن أبا سعيد رفض هذا المقترح ، واحتفظ لأبى حرب بالسلام على الرغم من كل ما يجرى .. ومن وطأة هذا السلام على أبى حرب .. وحزن أبى سعيد العميق .. العميق ..

واستشهد حرب ، وانتقل أبو حرب وعائلته إلى مكن آخر من مدينة الشعب لكى لا يكون هناك حزن مشترك يجمع كلا الأبوين .. لكى لا يكون هناك .. هناك وجه للمقارنة ، وجه للتوحد فى الاحزان وحتى لا يكون هناك تشف وارتياح لأبى سعيد نحوه .

كان يعتقد هذا .. ويرى أن استشهاد حرب ربما كان مدبرًا ، لكنه لا يملك دليلاً واحدًا على ذلك .

مضى أبو حرب يسير فى قلب الظهيرة التموزية . توقف عن نقطة انتظار الحافلة . لم تأت الحافلة ، ولم تصل « الكوستر » ، ولم يجد متنفسا للراحة والهدوء . كل شىء حوله يختنق كل شىء فيه يختنق .

* * *

وفى سيارة « الكوستر » .. كان أبو سعيد يستعيد أحزانه ، يحس بوطأتها عليه .. ويتساءل أية مصادفة قادت إليه أبا حرب ، ما حل به .. حتى صار يستحق الشفقة بدلا من التوسل إليه فى زمن مضى لكى يشفق على سعيد الأصم .. !

لم يكن فى خاطره أن يفكر يومًا ما بالانتقام .. كان على العكس من ذلك يفكر بالسبيل التى تجعله يقابل الإساءة بالمعروف .. فتلك مواقف الشجعان .. وتلك سمة الإنسان الفاضل .. إلا أن أباه حرب شأنه شأن سواه ممن عرفو باساءاتهم ، كانوا يرتابون فى احسان أبى سعيد إليهم ، وفى بالهم أن الانتقال قادم لا ريب فيه .

ولأن أبا سعيد لم ينس جراحه الأولى بفقدان سعيد ، فإنه ظل يسعى فى البحث عن سبل لإنقاذ ابنه الآخر أسعد من مخاطر الحرب .. شرط ألا يقع فى خلاف مع تنفيذ القوانين .

ظل يسعى فى أن يواصل أسعد دراسته .. إلا أن أسعد كان يخيب آمال والده دومًا .. الأمر الذى صار فيه قرار قطع الدراسة مسألة محسومة ، ومادام الدرس قد توقف ، فإن الجندية سبيله الوحيد ، وطريقة الذى لا يمكنه الخلاص منه .

وفكر فى وسيلة .. حتى لا يلحق أسعد بسعيد .. ويكون طريق الحرب واحدًا لا وجود لسواه .

اقترح عليه أحد معارفه ، أن يتطوع أسعد فى ميدان مدنى ، تكون الخدمة فيه مجزية للجندية .

سر أبو سعيد بالمقترح .. ووافق أسعد عليه .

والتحق أسعد بمنشأة مدنية ، نهارات وليال كانت تطول ، وثقل العمل ينهك أسعد .. وأسعد ساكت يكظم غيظه .. فتلك نتيجة صنعها بنفسه عندما أهمل ومن ثم ترك دراسته الكسولة التى لم يأخذ منها شيئًا .

طلب إلى أمه أن تعد له طعاما وتغلفه جيدًا حتى لا يؤثر عليه الغبار كما زعم . طلب كمامة يضعها على أنفه وفمه حتى لا يختنق بالتراب الموجود فى المصنع . طلب ملابس خاصة للعمل .

طلبات غريبة كان يحسها هو نفسه ، كما يحسها والداه ..

بدأ هذا الاحساس يكبر ويتسع ويثير الشكوك .. وجاءت الفحوص الطبية التى اجريت على جسد أسعد مؤكدة لهذا الاحاسيس كلها .. أسعد يعمل فى مصنع للسموم ! جسمه امتص قدرًا من هذه السموم . الجو الملوث كان قد ترك آثاره على صحته !

.. وتصبح الأطباء بتغيير طبيعة عمله .. والتغيير يقتضى الاستقالة ، والاستقالة تقود إلى الجندية .. والجندية إلى الحرب .. والحرب موت منجز. كل الطرق تؤدى إلى موت محتم .. وأبو حرب .. صار آباء للحرب ، تلحق بكل شاب .. وليس هناك من منقذ .. أبو حرب مشرّع مخلص للحروب . انتاب سعيد مع أبويه الكثير من الحزن ، وصار الاختيار فى سبل الموت .. قلقًا وثقلاً وطريقًا مسدودًا لا سبيل للإفلات منه . . وتسير سيارة «الكوستر» ، تصل آخر نقطة لمدينة الشعب .. لم يكن هناك إلا عدد من باعة السكاير والعاطلين يبحثون عن ظل وقطرة ماء .. عن نسمة تائهة .

لم يكن هناك ظل ولا قطرة ماء .. كانت هناك شمس تحرق وتحترق .. وكان مذياع المقهى القريب يعلن عن حرب جديدة .. وعلى الوجوه كانت علامات موت تقترب .. وتصبح على تماس .. تماس مباشر . ولا نسمة تائهة .. تائهة على الأقل تلوح فى الأفق ، كانت الظهيرة قاسية .. والحياة .. الحياة معطلة !

الصمت الصائت

يوم خر من السأم ... مرّ .

ومثل كل الأيام ، كانت دورة الساعات تمرّ عابرة (٢٤) دورة خائبة ، مملّه ، سقيمة .

ساعات لم يكن يَحسّ بحضورها ولا فى غِيابها ..

الساعات صارت أيامًا ، ثم شهرًا ، ثم دهرًا ..

وليس هناك من ومضة تعلن عن نفسها .

غير أن كل هذا الوقت الطويل .. الطويل من الخيبة ، ومن الأمل المقتول ، ومن التفاؤل المستحيل ، كان قد مر .. وهو غائب عن نفسه وعن العالم المحيط به .

كانت كل لحظة يعيشها مع ابتسامة منها ، تجعله يعيش أجمل لحظات عمره .. كانت زاده وينبوع أفراحه .

كانت تتحول إلى كتلة من الإصغاء ، تستمع إليه .. وكان يجيب على اسئلة ملحّة من أبويها .. لكن أسئلة ملحة منها كانت تعتمل فى ذاكرتها ، دون أن تجد لها سبيلاً على شفتيها .

ولم تكن تعرف تمامًا إن كانت نظراته إليها ، مجرد نظرات بريئة إلى

طفلة مجردة من العواطف والأفكار .. أم كانت تعنى أمورًا أخرى ؟ ! .. كما لم يكن يعرف إن كانت تنظر إليه ، مجرد كتاب يقرأ بشغف منذ صفحته الأولى إلى ختامه .. أم أن حديثة يلذّ لها سماعه ؟ !

كلاهما .. كان قد اكتشف الآخر ، دون أن يبوحا لأحدهما بشيء . هو .. يخشى أن يفقد رجولة كانت تحترمها وتحسُّ بألفة فى الإصغاء إليها .

وهى .. تخشى أن يتهمها بالمراهقة العجولة المتغيرة العواطف . كان يحدثها عن دراستها ، وأنه يريدها أن تكون صفوة زميلاتها . وكانت تفتعل أسئلة ، تعرف إجاباتها حتى تجعله يخصها بالأجوبة دون أبويها .

كانت تريد أن تشركه بالإنتباه إليها، وأنها لا تقل جدارة عن أبويها فى مناقشة موضوعات حياتية واجتماعية شتى .. ويدرك إلحاحها هذا ، وكان يريده ، حتى إنه يبتكر عدة سبل من أجل أن يتحدث إليها .

وصار بينهما اتفاق غير معلن .. أن تراه ويراها ويتحدثان بحضور أبويها .

مرة قالت إنه يعاملها كطفلة !

ومرة قال إنها تعامله كجد لها !

إلا أن الطفلة كبرت فى عينى جدها ، وصار جدها صديقًا يقاربها فى السن ، يحترم صباها ، مثلما تحترم تجاربه .

وأخذت كلّ لحظة لقاء ، تُحوِّل الزمن إلى أجمل اللحظات ، تحوّل الكون بأجمعه إلى احتفال خاص يملأ الدنيا كلها .

كانا يلحظان بعضهما ، ويمدان جسوراً خفية من النظرات التى يسرقانها من أبويها .

ودام تفكيره بها ، كبر .. وخيَّم كل شيء فى عالمه .. مثلما كانت تدرك أبعاد هذا التفكير ، ويصعب عليها تحديده ، أو الاقتناع الكامل بأن لها حصة كبيرة فيه .

وحين أخبره والدها أن ابنته قد خطبت وأنهم يستعدون لبناء حياة أسرية لها .. أحسَّ بالإختناق ، وأن كل شيء يحيط به قد ضيّق عليه . وأنه لايملك قدرة على قول : لا .. وليس بمقدوره أن يعلل أسباب رفضه .

فقط .. فقط ، سأل : هل رضيت كاميليا بعريسها ؟

قال الأب : سكتت .

وقالت الأم : وللسكوت معنى القبول .. مهندس ناجح وموفق فى عمله لماذا لا ترضى ؟

وقفزت واقفة وعلى لسانها كلمة : لا ، إلا أنها خنقتها فى آخر لحظة ، وانتظرت من حازم أن يقول هو .. أن يقول : لا .

لا .. كانت الأمل الوحيد ، لا .. كانت كتلة من ضوء تنتظر اشتعاله ، إلا أن : لا ، كانت تحتبس فى الحناجر كالسكين الحادة .

* * *

تزوجت كاميليا ، وأنجبت طفلين رائعين .. هما صورة منها . كما تزوج حازم ، وأنجب أطفالاً ، ليس لهم من أبيهم سوى البذرة الأولى التى تنبت فى أى أرض .

* * *

الزواج .. أقام جدرانًا عالية .

ولم يعد لقاء حازم بأبويها يكتسب حرارته الأولى ، ولا تكراره السعيد .. فهى لم تعد تراه ، وهو لم يعد يجد فى الحديث طعم الفرح فى إصغائها إليه .

إلا أن عالمًا من الأسرار كان يشدهما إلى بعضهما ، دون أن يبوح أحدهما للآخر عما يعتمل فى أعماقه .

كان يشاهدان بعضهما فى مصادفات نادرة فى بيت أبويها .

وضاعت المصادفات ، صارت منسية . . ثم صارت الاستحالة ! ومع ذلك كان يراها إلى جانبه .

يشد فراشه ، ويطفىء الضوء .. فتضىء المكان .. كلها كانت بؤرة من ضوء سحرى .. يقتل ظلمة تغمر الغرفة .

كانت زوجته تدرك تمامًا أنه ليس معها ، وأنه ليس إلى جانبها رغم أنه كان يلامسها ويؤدى واجباته الزوجية بشكل طبيعى لا مآخذة فيه .

إلا أن أمرًا غريبًا ، لا تستطيع فهمه ، كان يبعده عنها .. كان دائم التأمل .. ينظر إلى نقطة محددة فى السقف أو الجدار .. كالمسكون فى عاهة الجنون يبحث عن تفسير لها .

يختار العتمة عندما يكون معها ، ويدفن رأسه فى الفراش ، حتى ليكاد يختنق .

كان يرى كاميليا تشع ، وتكون له وحده فى مكان واحد فيحرسها ويغطيها ، ويخشى أى فراغ فى الفراش لئلا تتسلل منه .

وكانت كاميليا مستسلمة لزوجها ، طائعة . لا إرادة لها . تلبى وتستجيب ، كانت مثل وعاء يلقى الزوج فضلاته فيه يم يستدير لينام إلى ساعات متأخرة من الضحى .

وكان حازم يعنى المستحيل بالنسبة إليها ، فى ظروف حسمت ، وبات من الصعب التفكير بومضة أمل .. أن تراه تراه فحسب . وحين كان يغيب زوجها أيامًا فى أعمال هندسية خارج المدينة ، تحيط نفسها بالجدران ويصورة خفية فى أعماقها ، يستيقظ فيها حازم .. يحييها ويبتسم لها ، و .. ويعانقها .. يعانقها .

أى عناق هذا ، أكان عناق طفل ، أم عناق حبيبة .. لا تعلم ، إلا إن ما تعلمه جيدًا أنها تريدهما معًا ، عناق الطفلة وعناق الحبيبة .

وتنسى زوجًا هى فى عهدته ، تبحث عن صورته فى داخلها فلا تجده ، كائن مُضاع .. لا تعرف أين تركته .

يجىء كالغريب ، ويذهب كمن لا تعرفه .. وهو لا يحس بشىء من هذا كله .

همه أن يجدها جاهزة .. مائدة طعام ، وأنثى ليلية .

كانت تحس أن الطعام يتعفن فى يديه وفى فمه ، والأنثى هامدة لاقوة لها على الحركة .. جثة لا علاقة لهابما يفعله فيها .. كانت تريده أن يتتبه إليها .. أن يراها ، وأن تراه .

مرة تمردت .. فى ليلة اشتد عليها صداعها واحتباس فى أنفاسها .

مرة قالت له أنها غير مستعدة له هذه الليلة .

مرة .. مرة .

وتحولت المرة الـوحـيـدة إلى شك .. واسـتـأثـرت الـفـحـولـة فـيـه إلى اغتصابها .. عندئذ أدركت تمامًا أنها تكرهه كراهية لاحدود لها .. وأنها مهما فعلت من احتمال الصبر ، لن تطيقه زوجًا ، ومع أن لطفليها فى نفسها حبا عميقا ، إلا أن البذرة التى زرعها فيها، وأنجبت منه طفليها ، بذرة نتنة .. كان ينبغى عليها ألا تقبل بها .. أن ترفضها رفضًا قاطعًا .

ضاقت بها الجدران ، وجفت حدائق آمالها .. صار وجود الزوج إلى جانبها ، يُشعرها بالإختناق .. وأن الورقة الشرعية التى تربطها به ، لا يمكنَها أن تجعلها تحبه وتتفانى من أجله .

ولم يفاجأ حين طلبت إليه الإنفصال عنها .. لم يسألها عن السبب ، لا لأمر يخبئه عنها ويرفض أن يبوح به ، ذلك أنه كان شديد الإلحاح فى تساؤلاته عن أية مسألة بسيطة ، ومسألة كهذه فيها فراق نهائى بينهما .. لاتشغله كثيراً ، فالنساء كثيرات ، وفرة فى الإنتاج ، وبامكانه أن يختار ما يشاء .

كان يقول : النساء مثل كل الأشياء ، يمكن للرجل أن يختار منها ما يريد .. وما دامت هى .. هى نفسها لا تريده ، فإن الأمور جلية .. كل شيء يعود له ، وكل لا شيء يعود لها .

فليكن .. قالت .

لم تكن نادمة على شيء .. ولم تكن متعجلة فى قرارها .. ذلك أن موقفًا واحدًا يكفيها لكى يجعلها لا تفكر بالندم مطلقًا .

فقد وقف أمام القاضى وطالب بكل صغيرة وكبيرة .. أخذ معه خصوصياتها النسائية .. كما أخذ منها ملابس طفلين بذرتهما منه .. ولم ينس أن يأخذ معه ألعابهما ، وجعل نظراتهم تحقد عليه وتحتقره .

كانت الألعاب ، هى الأشياء الوحيدة التى جعلت الدموع فى عينيها دامية .. غير أنها اطمأنت تمامًا إلى أن الطريق الذى اتخذته بالانفصال عنه كان سليمًا وعاقلاً وخاليًا من الانفعال .

* * *

وعادت إلى أحلام الطفولة والذكرى والأوامر فى بيت أبويها وأخواتها ومع طفلين مشاكسين .. وعمل وظيفى متواضع يخفف من وطأة ثقلها على دارها القديم .

كانت الأيام تجرى بصورة رتيبة ثقيلة .

الزوج القديم اختار شيئًا ، أحسن اختياره .. وتزوجه .

الشيء .. المرأة ، لاتشغلها.

شاغلها أن تتذكر عن غير أمل .. عن شيخ يبحث عن صباها . وعن فتوة يانعة تنشد حلمًا سعيدًا فى شباب رجل لا يشيخ فى ذاكرتها .

كان حازم وشمًا نسج إسمه فى أعماقها ، ويرفض أن يزول . كان هو المستحيل الذى تحبه ولا تراه ولا تعرف عنه إلا المجهول .. لم يذكره أحد من أهلها .

سنوات طويلة مرّت .. والرجل غائب ، وإسمه حاضر فى كل لحظة .. فأى استحالة هذه ، أى جنون هذا .. ؟

سألتهم عنه ، فتجاهلوه .

سألتهم عنه ، فقالوا إنه قد غاب . . وربما إلى الأبد .

جلست وحيدة .. تسائل نفسها .. عن نظراته وابتساماته .. وحمامته التى كان يدللها .. ويدعوها إلى مزيد من الجدية فى دراستها .

تذكرت قصصه وحكمه ومناقشاته .. وصوته الحنون الهادىء .. تذكرت ملامح وجهه ، والشعرات البيض التى كانت دخيلة على شاربه وعلى فودية .

مثله لا يشيخ ، ومثله لا تمر به الأعوام .

مثله يطلع كالنهار ، ويشرق كالبدر ..

مثله .. مساحة شاسعة من الخضرة والمطر والحياة والفرح . ومثله يعافه الزمن لكى يعيش إلى الأبد .. ينبت سعادة ، ويروى ظمأ ويشعل ضوءًا فى عتمة الحياة .

مثلة .. لابد أن يجىء ويسأل .

ومثله .. لا يوزع ابتسامات رخيصة ، وأشواقًا عابرة .

ومثله .. سيسأل عنها.. ألم تكن حمامته .. ومن يسأل عنها سواه .

* * *

دق الباب دقتين ..

الدقتان له .. من خصائصه .. لذلك لم تسأل : من بالباب ؟ سيكون هو حتمًا .

دقتان لا ثالث لهما .. دقتان منه ، تعنى أنه يقف عند الباب يبتسم لحمامته .

وكان هو .. هو ..

ولم تعد هناك أبواب ولا شبابيك ولا جدران ، كل شيء انفتح عن رغبة كاملة له ، له وحده .

واستقبلته غاية من الإبتسامات والأشواق .. وتركت أصابعة بين أصابعها تذوب . . وترك أصابعه فى أصابعها تلغى كل الأعوام .

فرحت به الأشجار والأنسام والصور والوجوه والدفء الشتوى .. فرحت به الكتب والكراسى وأقداح الشاى .. واستقبله الفرح كله فى عينيها ، وفى عيون أبويها وأخواتها ، واحتفل به المكان .. ارتبك المكان .. اغتسل الماضى كله . صار الآن .. الوقت له كله .

ولم تعرف كاميليا ماذا تفعل بنفسها ، ولا كيف تتصرف بوجوده وكيف ترحب به أجمل ترحيب ، هل ترش عليه ماء الورد وتتبارك به .. هل تعزف له الموسيقى التى يحبها ، وتقرأ له الكتاب الأثير إلى عقله وقلبه .

جاء الشاى برائحة الهيل ، والسكر المحلى بالزيادة .

وقت أخذه الشاى منها انشغلت به عن رؤيته .. واستعجلته .

– يا كاميليا الشاى لم ينضج بعد ..

قال والدها .. فعجَّل حازم بالإجابة :

– هذا أفضل .. الماء الحار يجعل لفائف الشاى تتحلل بسرعة ..

– ياكاميليا .. نصف القدح مملوء بالسكر !

قال الأب ثانية ..

وثانية وجد حازم اجابة مناسبة.. قال :

– الشاى المحلى بالسكر الزائد ، يعنى المزيد من الاعتزاز ..

وودت لو قال : « المزيد من المحبة » وسامحته فى دخيلة نفسها ، فهو لا يريد أن يبوح بالأشياء سريعًا .. ولا يترك لعواطفه أن تنطلق هكذا دون أن يفكر بها .

حدَّق فى وجهها .. وقرأ فيه الحزن والفرح معًا .

وحدَّقت فى عمق عينيه .. ووجدت فى عمقها محبة أزلية مكتومة .

وسار الوقت سريعًا .. جرى فيه الحديث عن العمل-والغربة والزمن الجاحد ، وندرة الأصدقاء .. وملامح من حياة مرة .

وحين غادر حازم المكان ، إستأذن ، وأنه سيكون منشغلاً فى الصباح ، ليراجع كتبًا فى مكتبة عامة حددها .

وعرفت أنه يعدها بلقاء .. فتبسمت ابتسامه احتفالية .. وودعته عند الباب .. ولم تغلقه .. تركته مفتوحًا كأنما تريد لأنسامه أن ترجع إليها .. حتى هتفت بها أمها :

– لاتنسىَ أن تغلقى الباب يا كاميليا .

فى الصباح اجتمع كل الأصدقاء :

الكتب ، والدفء وهى .

ألا تكفى هذه الأشياء الثلاثة .. ومعها هو .. الرابع للعيش سعداء ؟

سحبها من يدها .. كان قميصها بلون القرنفل الاصفر .. بلون

النرجس المعطر .. بلون الشمس تطلع .. وتنورتهابلون الليل الذى يراها فيه كل يوم .. عتمته تتيح له فرصة أن يراها ، لأول مرة أحب ليلاً يراها فيه .

لأول مرة أحب لونًا أصفر لا شحوب فيه .. إنما كان يزهر .

لأول مرة يراها فى كل الكتب وفى عيون كل الشعراء الذين قرأ أشعارهم الغزلية .

ولأول مرة يغنى لها ولنفسه .

جلسا معًا .. صمت صاخب فى الرأسين ، وصمت صائت فى القلبين وبوح .. لا يبوح .

ذابت يدها فى يده .

صارت كلماتها لحنًا .

وعند شجرة زيتون حنونة أرخت غصنها ؛ قبلها .. فأحسَّ بأن وجهها كان ينبر نورًا براقًا لم يكتشف مثيلاً له من قبل .

كان الضوء يشع من خديها ، من عينيها ، من وجنتها ، من أنفها ، من شفتيها ، من عنقها من شعرها .

ضوء ساطع ملأ الزمان والمكان .. ضوء له سرعة البرق ، وثورة الفرح ومعجزة هناء العمر كله .. كان أسعد لحظة امتلأت فيها الدنيا كلها.. ضوء أزلى لا يريدان له أن ينطفىء .. ليصبح أزليًا يتوزع العالم .. ويزيل العتمة فى كل مكان .

حـــــرقـــة

كأنه السم القاتل ، تراه وتعرف أسراره وتدرك نتائجه .. ولكنك تقبل عليه على الرغم من ذلك كله .

كأنه النهاية التى لم تعد مؤجلة ولامستحيلة .. بل ممكنة وأكيدة . كأن الليل بكل خفاياه وقسوته وآهاته قد أثقل على قلبه وكتم أنفاسه وحوله إلى كائن مسحوق ، مجهول ، ومعدوم الحركة والوجود .

كأنما مسه الجنون .. فلا يدرك شيئًا مما يقول أو يفعل .. كأنما الزمن قد توقف . كأنما الحياة كلها قد شنقت .

هكذا أحس وهو يستمع إليها ، رافضًا أن يصدق رفضها القبول به زوجًا .

سألها عن الأسباب .. كانت الأسباب قتيلة فوق شفتيها ، لم تجد سببًا تقول به ، تتوكأ عليه ، تضعه شرطًا أو رفضًا .. أبكته اسئلته .. وأحزنها أن تبقى تجرحه بصمتها .. لصمتها فعل السكين . وأبكتها أسئلته .. المنكسرة ، الخجولة ، المحبوسة . كانت تعرف جيدًا المدى العميق الذى يتركه صمتها فى رأسه وقلبه وكان يحس معاناتها وهى تعمد إلى صوت الصمت الذى يصارع كيأنها ووجودها كله .

كانت الكلمات قتيلة فوق شفتيها ..لسانها جف وتخشب ، وملامحها تبوح وتكتم معًا .. كأنما تقول وتوّجل ، وكأنها تذبحه وتداويه . تجعله فى حالة ظمأ إلى صوتها الذى يتقطر آهة .. فآهة ، ورمل صحراوى يملأ فمها .. يجعلها خرساء ويحيلها إلى كتلة صماء لا تعرف حدودًا لهذا الصمت الأبدى .

أكان يمكن أن تصبر عليه لو فعل مثلما تفعل به . أكان يمن له أن يفعل هذا بحضورها أصلاً .. ؟

كان الوضوح شمس حياتهما ، كانت الصراحة أقدس كلمة يعتمدانها فى مسيرة أيامهما الجميلة .

سألها :

– لم أنتظرت .. عشر سنوات من الخدمة العسكرية الإلزامية بكل ما فيها من جراح وترقب وأوجاع .

.. وعشر قبلها فى الدراسة .. !

.. سأنتظر أنا .. أنا سأنتظر هذه المرة ، عشر ، عشرون عامًا وأكثر .. حتى نلتقى . هل توافقين . عدينى .. !

وانتظر أن تبارك صبره ، مثلما بارك صبرها من قبل .

قال :

– نحن شركاء فى الحزن . شركاء فى الفرح .. فلماذا لا نكون شركاء فى الانتظار ؟

ويخاطبه صمتها .. ويقاطع رجاؤه .. همس جريح .

– لن أتزوج أبدًا .

– أبدًا .. أبدًا .

– أبدًا .. أبدًا .. ابدًا .. أبـ .. دًا .

وأدرك أن أبدًا هذه قاسية ، جارحة ، صادمة ، قاطعة ، والأكثر من ذلك كله أنها أزلية .

وبحث عن الأسباب ، كانت الأسباب تستحيل عليه .

.. سكن الصمت ، جالسهما بحزن ، نظر في البعيد . قد تكون هذه آخر جلسة تجمعهما . أحس أن روحه تهيم في فيضان .. أعلى فيضان .. يسمونه (تيهود) . لا حدود لإيقاف فيضانات روحه المندفعة نحو أحزان متراكمة تحاصر أنفاسه .

ثانية سألها .. كان سؤالها يخاطبه . تلتقي الأسئلة على الشفاه الأربع .. وتحولت الأشياء حولهما إلى شفاه تصرخ بصموت مقموع :

– ألا تذكرين تلك الشجرة التي كانت تزهو عندما يتأرجح بين أغصانها الأطفال بوجوههم الرحبة وابتساماتهم المشرقة وملابسهم الملونة .. ؟

اندفعت تجيب ، منصرفة عن صمتها المستحيل :

– ألا تذكر أن هذه الشجرة . الشجرة هذه . هذه الشجرة ، كيف كانت تبكي ، تخرج سائلاً كالدموع .. عندما هجرتها العصافير عندما .. عندما .. عندما تحولت إلى مشنقة يتدلى من أعلاها حبل .. حبل يتأرجح فيه الموت . أليس من حق العصافير أن تهرب ، ألم تبن أعشاشها فوق الأشجار ، ألم تتحول الأشجار إلى أقفاص .. ؟

وكتم ضجة فى أعماقه .

– أنت يائسة تماما .

قال ، كان قوله أقرب فى الرد على يأسه هو .

قالت :

– لماذا تحدثنى عن الأسماك .. والنهر أمامنا قد جف ؟

ومضت تقول بعد لحظة صمت :

– اجتمعت الأشجار فى حديقة واسعة .. وأقرت اختيار النخلة ملكة على كل الأشجار ، رفضت النخلة ، قالت : من يحلى الأفواه التى اعتادت المر ؟

فاختاروا عندئذ شجرة التوت .. فرفضت هى الأخرى ، قالت : من أين يأكل الاطفال . بعد أن يتعبوا من اللعب تحت ظلى ؟

وتوجهوا إلى شجرة الزيتون .. فرفضت قائلة :أنا الشجرة المباركة الشهية فى كل الفصول .. لا أريد أن أتكئ على الكسل . ورفضت شجرة البرتقال وشجرة التين ..

قاطعها قائلاً :

– ألم تقبل كل الأشجار بمهمة القيام بدور الملكة .. ؟

– بل وافقت واحدة .. شجرة العوسج وافقت .. وحال موافقتها طلبت إلى كل الإشجار أن يستظلوا بظلها لأنها الملكة .. هل تريدنى شجرة عوسج ؟

بهت لسؤالها .. جرحه أن ترى نفسها شجرة عوسج .

حاول أن يدارى الحديث على نحو آخر :

- فليكن .. سأستظل بظلالك .. وهذا يكفينى .

أجابته :

- شجرة العوسج بلا فائدة .. وظلها مؤقت .

- أرضى .

- لكن شجرة العوسج لا ترضى .

وصرخ :

- أنت كل الأشجار .

- لم أعد شجرة مزهوة بثمارها ، ولم أعد ارجوحة للأطفال والعشاق .. ولا مأوى للعصافير .

وأحس بدموعها ، حارة منكسرة .. وأنه سيقسو عليها كثيراً لو شاركها البكاء ، لو قال لها إن جراحه عميقة .. عميقة لو تخلى عنها ورحل .

تعرف . بكل تأكيدتعرف ، وهذا هو السبب فى إصرارها على رفض الزواج منه .

وهى .. هى ، بأحساسها المطيعون ، تخشى أن يعرف ..

وظلت الفواصل بينهما تبتعد وتقترب . تقترب وتبتعد .

كان يريد أن يقول كل شىء .

كانت تريد أن تقول كل شىء .

استعصى الكلام ، سقط فى بئر عميقة ، عميقة ، من يجعل الكلام الساكن فى الجذور .. حتى يكون فى موقع الضوء .. من ؟

أراد أن يبوح لها .. وخشى أن يفقدها إلى الأبد .

أرادت أن تبوح له .. وخشيت أن تفقده إلى الابد .

.. وخجل من إصراره وتوسلاته .. أن يفقد الرجل الذى فيه ، والذى تتعرفه عنه الذى تحترمه فيه . الذى تحبه فيه .

وخافت من ضعفها ، من حبها العميق له من هذه الهالة التى يقدسها فى وجودها بأعماقه . خشيت أن تشوه صورة نقية حفرتها عميقًا فى داخله .. لاتريد أن تفقد كل هذا الحب ..

.. قال فى نفسه وهو يتأمل وجهها السمح .

– تعرفين .. ليس الأمر بيدى .. فلنسافر معًا .

– ماذا أعرف . عن أى شىء تتحدث . هل تغفر لى . ليس الأمر بيدى .. وبات المجهول صفحة جديدة فى حديثهما ..

هناك أمور غير سارة بالتأكيد . هناك اسرار لابد من كشفها .

حدّق وجهها أراد أن يكتشف حقيقة ما .

حدقت فى عينيه ، اعتادت أن تقرأ فيهما المجهول .

فى وجهها ارتسم عذاب غريب لم يألفه من قبل حزن بالغ العمق لم يجد مثيلاً له .

وفى عينيه بانت غربة ، وأبعاد .. وأشياء خفية تريد أن تعلن عن وجودها .. غير أن ستارة عميقة أسدلت عن حضورها .

– ما الأمر .. قال !

– ما الأمر .. قولى !

وصرخ الصمت بصوت عال ..

– سأرحل صدرت أوامر برحيلى .

– رحيلك . أمر مِن مَن .. رحيلك إلى أين .. ؟

– إلى المجهول .. قالوا إننى من أصل لا علاقة له بهذا البلد .

– لكنك ولدت هنا . لأبويك جذور هنا . ولدا هنا . لغتهم ولغتك هى لغة هذا البلد ، دينك ، قوميتك ، سكناك .. كلها..

– كل هذا لايفيد .. وأنت أنت الشىء الوحيد الذى لا أريد أن أفقده من هذا البلد أنت البلد الذى أحبه وأريد القلب الذى أحمله معى .

ودهشت للخبر . أحست به سكينًا يجرح كل نبض فيها يوقف هذا النبض ، يوقف فيها الحياة كلها .

واختنقت أنفاسها . العبرات مسحوقة فى عينيها الكامدتين المنطفئتين .

– وأنا قد سبقتك إلى الرحيل .

لم يفهم . سألها . لم تجب خجلت . لم يكن خجلاً من النوع الذى يعرفه عن طباعها . لخديها شحوب الموت .. لا حمرة الخجل ..

ولم تدعه يسألها . أوضحت :

– أنا راحلة عن الحياة كلها .

ابتسم ، ابتسامة حزينة قلقة . شعر أنها معه ، تشاركه الأسى والفجيعة والغربة والعشق . أحس أنه يتعلق بها إلى الأبد .. هى أرضه وقلبه وموطن وجوده ، أفراحه وأحزانه معًا . صبحه ومساؤه عالمه الأثير .

حدقت فى عينيه . كأن الجمر فى عينيها . كأنها تقاتل بهاتين العينين .

عينان لم يألفهما من قبل أبدًا . عينان تتسعان وتضيقان .. تتسعان حد الأنفجار ، تضيقان حد الأنطفاء الأزلى .

– احتمل الخير .. احتمل قطرات دمى ..

– ما الأمر .. ما الأمر ، قولى . أنت نقية .. لا تخبئى عنى شيئًا ..

واندفعت إليه. أمسكت به ، وراحت تهزه بأصابع مرتجفة .

– إفهم جيدًا إفهم ، لم أعد عذراء لم ..

لم .. أعد عذراء ..

حبيبتك التى انتظرتك ، وانتظرتها لم تعد .. لم .. تعد عذراء . سحقوا عذريتى . سحقونى .. لم أعد ..

ضرب على رأسه . أمسكت أصابعه وهى تنكمش على رقبته .

– فعلوها معك ..

– مثلما سيفعلوها معك .

– معنا .. نحن . معنا نحن . أن نختلف معهم . أن يختلفوا معنا .. هل يعنى هذا أن نقتل فيهم العفة . هل نقتل أوطانهم فيهم ؟

– ما كان يلزمنا الخلاف معهم .

– إذن ما كان يلزمنا أن نكون بشرًا .. !

كانت الشمس فى قلب السماء . كانت حرقة الضوء تبدد كل جزيئات الظلمة .

للضوء حرقة ، كما الجمر .. الجمر كاو . والجمر رماد فى النهاية .

أكان عليه أن يأخذ كأس السم .. أن يختلف . أن تختلف .

من يختلف عليه أن يقبل بالموت .. أن يقبل بالصبح خاليًا من البكارة أن ينظر إلى الوطن مجرد وهم .. وكل الأوهام مبددة ، منسية .

– انس أنك عشت فى وطن ويذورك فى أعماقه .

قالت بحزن ودموع وكمد .

– ولكن .. لكن .. لا تنسى أنك نقية النقاء لا يغتسل .. ولا يلوث ولا يقهر . نقية أنت نقية .. ليس هذا أقل ما يفعله الذين نختلف معهم .. إطفئى الشمس . اجرحى ضوءها .

– أنت تطلب المستحيل .

– إذن مستحيل عليهم تشويه نقائك .

– ومستحيل عليهم أن يجردونك من هذا الوطن .

.. أمسك أصابعها بقوة ، أمسكت أصابعه . عشرة أصابع التمت وتماسكت .. عشرة أصابع أنشدت إلى بعضها ، التحمت .

علينا أن نبقى بشرًا .

– .. وإن لا نخشى الاختلاف .

– .. وأن نبحث عن مكان يتسع للاختلاف .

– تعالى نبحث ..

وسارا .. فيما كانت الشمس تتألق .. والأشجار من حولهما تزهو .. وعطر الأزهار يفوح ..

الجثة والصقر

فى الظهيرة كانت الشمس قاسية ، والصحراء تلتهب في جسده وعقله ، ومع ذلك كان يسير .. يسير . كان متعبا ويقاسى مرارة الجوع والعطش أخذ يحفر فى الأرض الرملية .. هو يعلم أنه لن يجد شيئًا خلال بحثه مهما طال ، ولكنه يعيش حالة تناقض وفشل وحلم وتأكيد للخيبة ، ثم يجلس لحظة ، وينهض مسرعا ليواصل الركض ثم المشى ..

كانت الأدغال والحشائش المنكمشة على ذاتها والرمال وسراب سماء بعيدة .. هى كل ما يحيط به وسط هذه الارض . بحث عن مخلوق ما في الأسفل والأعلى ، وحصل على الخيبة مرة أخرى .. كان يحترق ، ويعانى لهفة اللقاء نحو عالم يحتضن عذابه .. ودائمًا يكون تقديره للمسألة التى يمكن أن يقطعها ويصل إلى مبتغاه في مصلحته وهو يكذب ، يكذب على شخص آخر يمثله .. ! بذل مجهودًا كبيرًا حتى وصل إلى هذه البقعة ، من سجن – نقرة السلمان – حتى هنا كانت تعيش معه ألف لهفة زرعها فى الماضى والحاضر ، ونصحه البعض من زملائه أن يكف عن احلامه ويترك ضجيج أفكاره الممزقة ، وتوسل إليهم أن يحفظوا له الود والإخلاص .

هم فعلوا ومنذ خرج من بينهم مجتازًا جدران السجن الأثرى وحتى الآن بعد انتصاف النهار القذر لم يصل .. وعملية الهروب فاشلة مسبقًا .

فى البداية كان يجرى بسرعة هائلة مع الظلام ، ولم يفكر قط بحيوان يفترسه، ولا رصاصة حاقدة تطرحه أرضًا ، أنما كانت سرعته تتخذ معناها فى الوصول والخدمة والانطلاق فهروبه لم يكن يمثله شخصيًا ، أنه يدرك هذا . أمامه مسؤولية جديدة هو أن يعمل ويحقق حلم الآخرين فى طلعة القمر .

الزمن يقترن بالمسافة ، وهو يبذل جهده .. بعد الركض ، كان يحاول أن يسحب رجليه بخفة ، ويشعر بتخاذل وكأنما شدت قدميه إلى الأرض بمغناطيسية عدائية .

وتوقف بعدئذ ، شرب جرعة من الماء ، وأخذ يمشى ببطء ، وكان متعبا .. ومن لحظة تعبه أحس بحرارة الشمس وحرقة الرمال .. ومع ذلك يواصل مسيرته ، حتى انكب على وجهه وراح يزحف .. فى زحفه وتوقفه ، وتناوله جرعة الماء .. كان يفكر بمستقبل الناس ، فهو يرتبط بوثاق مخلص معهم ولا يريد أن يبدد هذه الثقة وهذا الإخلاص .

وعندما شعر بمرارة اللحظة الأخيرة وهو يعانى الجوع والعطش والتعب .. ويحس بأن أوصاله مقطوعة وكل جزء ينفصل عن الآخر .. راح رأسه ينغمر فى المأساة ، وأدرك أن الغد صورة سريالية تحمل التمزق .. وأن الركب الذى التحق به لن يعود ، وقد أصبح مغتربا . أمامه صورة أمه تبكيه بدموع سخية ، – وليلى – التى أحبها ليبدد من خلال حبه صدأ أيامه .. فودعها إلى السجن بعد أسبوع ، ومنديل واحد لم يتسخ بعد !

إيه .. تدب الحسرة فى صدره ، ويتمزق .. يحس بالعالم ينهار فجأة ، والظروف قذرة .. قذرة .. فتاة – الخطوات الشريفة – التى يحمل والدها رتبه عسكرية ، ليست عذراء ، هو الشاهد .. أيكذب نفسه ؟ زميله فى العمل يصبح موظفا هاما فى الدولة ، ولابد أن يلتمسه فى حاجة وهو لن يخيبه .. فى فرصة لن تسنح دائمًا .

الأخلاق والشرف والثقافة وكل المثاليات .. لا تحمل أهمية معينة .

يمكن له بسهولة أن يصبح لا شيء فوضوى ، نذل ، إنتهازى أى شيء من هذه الأنواع .. شيء بالنسبة إليهم تستحق راتبا وتقديرًا والبعض يخادع فيحمل زيف وجهه عندئذ . وعندما يجد نفسه فى هذه الحال سوف ينهار ، انهيار من نوع جديد .. فهو لن يرتاح أمام ضميره ، ولطالما حاول أن يسكب لحظة زيف أمام الأعداء ويخشى أن يعذبه ضميرة .. أنه يخاف من نفسه أكثر من أى سلاح فتاك أو عدو يتربص سقوطه .. موجود ويؤكد وجوده بالعمل مع الآخرين ، يتفاعل معهم ولا يستطيع الانفصام عن أفكارهم .

تذكر ليلى تقول له :

– لمن الأصوات التى تهتف بها .

– لسعادة الشعب ..

– أى شعب هذا ، أنه يطبع ابتسامه فى ثغره ويطعن من الخلف .. يصفق أحيانا ثم يشنق تصفيقه ذاتيا ..

– عواطف امرأة ..

– عدنا ، أيها التقدمي .. أنك لا تفرق بينهما ..

– صحيح ، ولكنك من النوع الذى يحكم بعواطفه لا بعقله .. الشعب أعزل ، والسلاح هو الذى يحتم على البسطاء أن يصفقوا .. القوة هى التى تحكم ..

ويعد لحظة من الإصغاء ، وفشل كلمات تموت فى أعماقها تهتف ..

– رأيك ..

ويدرك هو فى ظرف أسبوع عليه معها أنها امتنعت بسهولة ولكنها ترفض الاستسلام .

رجل ، أو أى شىء يشغل حيزًا فى الفراغ ، لا وسط بينهما .. وكل بادرة للالتحام بينهما تبدو سخافة مفضوحة وتحمل وجها أخر غير عتمة الزيف المنبعثة من وراء كل تغطية .. هذا الهدف لا يحتمل المناقشة أبدًا ، فالقضية عندئذ تكون مساومة ..

أنه ليذكر أحاديث شتى ويعيش تجارب متواضعة فى صباه .

مرة أحب أنثى . رايح يحتضنها بعينيه ، ويلتهم جسدها فى داخله .. وهى لا تمنحه التفاتة .. هو يدرك الفرق الشاسع بينهما ، ولكن ماذا يفعل بلحظات السأم التى يعانيها ..

وأحيانا لا يعرف على وجه التحديد ماذا يريد منها ، مرة أخرى وفى تأمل استغرقه زمنا طويلا شعر بسخف تجربته .. ويومها ترك صورة الأنثى الخشبية .

.. أذنـاه ارتشفتـا فـوضـى ثقـافـة الـبعض ونـظرتـهم للـكون بمفـهوم خاطىء .

– مـا هـذه العـادات الكلاسيكية التى تقيدنـا فى الزواج والسيـاسة .. أى إلزام مشوّوم هذا ؟ ود فى ذلك الوقت أن يتنصل من انسانيته ويبدد شبه الرجل هذا .. ومـع ذلك حـافظ على توازن كلماته وبذل مجهودا كبيراً لصياغتها :

– وأد المثل العليـا والدين والعـادات الفـاضلة .. معنـاه أننـا نزج أنفسنـا فى الوحل ، فى مجتمع حيوانى عفن ، والتخلى عن التزام فكرى هو اغتيـال للعقل ، هـو صدى فـاشل ، وجرس بلا صـوت .

وقـال فى داخله مكملاً :

– يـا أيها القذر ، أنت وأمثـالك .. أنتم جيل الخيـانـة واللعنة .

لم يقلـها ، ولكنها كانت ترتسم بوضوح على صفحة وجهه الأسمر .

نقطة للأهداف الجبانة ، ذلك أنه لا يغـالط ولا يخـادع نفسه، فـأمـامه يتربص الضمير الذى يعمل بـايجابية فى كل خطاه .. ويدرك بـأن الفرصة سـائحة للمثول فى تـاج مرصع زاه لصفقة يتخلى فيهـا عن إنسانيته ويعترف بهويته ويشفعها بـاعتذار ، وعندمـا يفكر بذلك يشعر أنه يصـافح وجه الفسـاد ويكـاد يحجب بشرته عن كل النـاس .. فأى وجه يصـافح وهـو خـائن .. خـائن ؟ ! لا ، سوف لايكون كذلك .. أنه رجل ، يموت وعلى ثغره ابتسـامه ويعـتز بحـاضره .. – أيـا معـالـم الأحـلام فى قلـوب العذارى ، ويـا أغـانى الفرحة صفقى .. أنـا سعيد ، أنـا انتصر ، ظلم بـارد مستور ومأتم

قلبى .. ومع ذلك ابتسم – .. وبإمعان يبصر أنه لا توجد غير قيم شكلية قائمة على عمود يترنح .. ولن تملك هذه الفاجعة الانية والريح المغبرة تغير ذهنه لا بالعنف ، ولابكلمات مرصعة باللذة .

الحقد يتلوث من بدايته ، لكنه لا يكون ناصعا يوما ما .. حتى الطيب يصبح شوكا .. الرجل الذى كان يساعده ويجهد نفسه لإنتاج عمل شخصين ، وكان يجلس مرتاحًا وهو منهك .. يصبح خائنا ، ينكر خبزه وإحسانه ، ويمارس حقده فى الوقت الميت يعذبه ، يمارس العملية تأكيدا ! وآخر يساعده فى العمل فيسرقه !

عالم مادى .. لا تتسع نظراته أكثر من ذلك ...

ومع هذا الفهم تحل إطارات النقاء لتصنع عالما جديدًا ، عالم حروف وثورة نضالية ومستقبلا باهرا للكادحين .. قرأ هذا منذ سنين أمام الناس فى مقهى واسع ، وزعم أن ما قرأه قد وجده صدفة عند قدميه وعلى رصيف تترسب فيه الأوحال .. ورأى الوجوه تحدق إليه ، وتفتح صدرها وتحتضنه ، ومنذ ذلك الوقت ربط مصيرة بالثورة الشعبية رغم عدم استسلامه لجوهر معين وبؤرة محدودة .. بؤرته الفكرية متسعة ، تنفتح على عالم الفكرة الناضجة المخلصة الواعية .. وهو حر .

وعندما يصر قدم فاشل فى رأسه .. يحتم عليه إلا يتنكر وعندئذ يصبح جبانا .. أذن أنا كذا وكذا ..

ولأجل ذلك يحاكم بقسوة وتهبه المحكمة سنين عديدة مع زجه فى سجن يتصف بالوحشة والخوف والعذاب ..

فى سجن – نقرة السلمان – كانت حسرته تستمر أشهرا ريثما تصله من ليلى وأمه رسالة .. واللهفة تقتله ولا يجد خلال السطور سوى القفر :

– كيف صحتك ، نحن بخير نسأل الله أن يجعلكم بسلام – وعندما يتأمل الكلمات يستشف وجه زوجته مشجعًا ويستطيع أن يحلم ويفسر الرسالة هكذا :

– صحتك تقترن بسلام الآخرين – صحيح .. ويشكر زوجته ويحتضنها فى أعماقه .. ويكتب إليها رسالة طويلة تحذف إدارة السجن معظم ما فيها من أمنيات ..

فالأمنية ، والصمت ، والأهة والسؤال .. كلها تحمل مدلولا معينا يجب أن يفسره وإلااعتبرت كلماته ألغازًا وسياسة تهدد الحكم القائم :

كل الصور كانت حاضرة أمامه ، مطبوعة فى بصره وضميره .. وهو يحبها حتى فى هذه اللحظة التى يعانى فيها قسوة الزمن والعذاب الذى يقطع أوصاله .. ولايمكن فصله عن عذابات أخرى مارسها معه رجال أشرار من قبل .. وقد ينسى أحيانا ولكن الذكرى تجتر أزمة يعيشها ..

هو الآن جزء من الآشواك والرمال .. لايفترق عنها . هو جثة حائلة اللون .. تزرق ، تجيف ، تتقيح .. وحنجرته عطشى . ودلو يموت وعلى شفتيه قطرة ماء حلوة ، لا شيء غيرها يمكن أن يطلبه بعد ذلك .. وهو يعلم أنه لا يرتضى بها بعد حصوله عليها .. وإنما يتضاءل وجوده .. كان ينكب على وجهه محتضنا حبات الرمل الساخنة الجافة عندما شعر بدبيب يتسلل إلى وجهه .. ينقره ، ولا يستطيع أن يحرك ذراعه ليضرب به الارض ..

هو جثة ، والصقر جاثم عند رأسه يلتقط حبات العرق على جبينه ويروى ظمأه ، هذا المخلوق يرتوى منه وهو يعانى خيبته .. حاول أن يتحرك ، وجد صعوبة وألما شديدًا يمزقه ..

ومرة ، وأخرى .. وأخيرًا تحرك ، سخر الصقر جناحيه للامتداد والتحليق ..

بعدئذ وجد لسانا خشنا يلمس قدميه ، لم يتبين نوع الحيوان ولاشكله .. وأنما فقد آخر لحظة يمكن وصفها بالحركة عندما ذهب عنه الصقر ..

جثته فى الصحراء .. كانت وحيدة ، والصقر عاد من جديد يغرز منقاره فى عيون الرجل .. وفى الليل كانت الوحوش الهائمة تلتهمه بلذة .

فى اليوم التالى وجدت أثار دماء وبقايا ملابس ممزقة وأوصال لحم بشرية وعظام .. ورائحة كريهة فى المكان .. ولم تكن غير صورة بشعة تلوث الارض الرملية السمراء .. بينما كانت الشمس تتألق فى الأفق .. ساخنة أيضًا ، ساخنة أيضًا .. ربما ستنفجر .. تنفجر ، كذا .

جثث

لاشيء .. لا شيء ابدًا، إنما هي مجرد هواجس تنتاب المرء عندما يكون وحيدًا ، وحوله (٢١) جثة ، مستقرة في مكانها داخل صندوق حديدي كبير ومثلج .

طمأن الحارس نفسه ... وعاد إلى سريره . وضع رأسه فوق الوسادة الوردية ... وما أن استقر حتى سمع صوت رجاء يهتف به ، يتوسل إليه :

– اسقوني ... اسقوني .

تلفت حوله ، لم يكن هناك أحد .. لا يمكن أن يكون هناك أحد ، كل الأبواب مقفلة ... والجو في الخارج بارد ، بارد جدًا ... من يعاني من العطش في الليالي الباردة ؟

– اسقوني ... اسقوني .

تكرر النداء ... وانتاب الحارس الكثير من القلق ... ثم الكثير من الخوف . وضع يده فوق بندقيته .... فربما كان هذا النداء خدعة لاشغاله ... وسرقة بقية قماش الأكفان منه .

كان لا يريد تكرار ما حصل ... حتى لا يدخل في أسئلة وأجوبة وربما

يتهم هو ... هو نفسه بسرقة قماش الأكفان مثلما حصل معه قبل شهر ... ولم ينقذ نفسه إلا بعد تقسيط ثمن الأكفان من راتبه الضئيل ...

لن يدع الأمر يتكرر مرة أخرى ... سيظل ساهرًا هذه الليلة والليالى اللاحقة .. فليس بمقدوره هذه المرة تبرئه نفسه من تهمة السرقة ... ولن يقبلوا منه دفع ثمنه ... كما أن ليس بمقدوره دفع الثمن أصلاً ...

– اسقونى ... اسقونى .

صوت لايمكن لأذنيه إنكاره ... صوت غير مخادع بالتأكيد ... صوت بشرى حقيقى . فتح النافذة وحدق فى كل الاتجاهات ، واجهته موجة برد وهواء استقر فى دواخل جسده .... ارتجف ، أغلق النافذة وتكون كتلة عند المدفأة النفطية .

عاد إلى سريره . لاحقه النداء :

– اسقونى ... اسقونى .

فتح الصندوق الحديدى المثلج ... كانت كل الجثث مستقرة ، مستسلمة للمكان ، قانعة به منذ شهرين ... لايعرفها ، وهى ... هى لم تعد تعرف أحدًا ... لا تريد أن تبحث عن وجودها ... كان ينبغى أن يبحث عنها الاقربون .

الاقربون ... الاقربون ... هل يمكن أن يصدق بأن (٢١) جثة لا جذور لها مع الكائنات الآخرى ... لا يسأل عنها أحد ... لم يتعرف إلى ملامحها أحد .... !

قد يتم الكشف للسائلين نهارًا ... قد يحصل هذا ... إلا أن (٦٠) يومًا مر .. ولم تنقل أية جثة من مكانها ... !

- اسقوني ... اسقوني .

حاول أن يتحرك ، خاف . كان يريد أن يروى ظمأ المنادى ... جمع كل شجاعته ، ونهض ... جاء بقدح من الماء ... غير أنه لم يكن يعرف لمن يقدمه ... كان الصوت يأتيه من كل زوايا الغرفة ... يسمعه ، يسمعه جيدًا :

- اسقوني ... اسقوني .

وفكر الحارس مليا ، هل يمكن لأحد أن يفكر بسرقة . الجثث ... ؟

لماذا يسرقونها ... ؟ !

قد يحتاجها طلبة كلية الطب ... ونفى هذه الفكرة ، فالطلبة يكتفون طوال العام الدراسي بجثة واحدة يقومون بتشريحها أو وضعها في محلول حتى لا تتفسخ ... وفي كثير من الأحيان يتعرفون على تفاصيل لأرنب أو جرذ ...

هكذا يراهم كل يوم ... وكان ينتابه الاشمزاز .. وكان يخاطب نفسه :

- هكذا يدرسون جسد الأرنب والجرذ ... ويتعلمون كيف يعالجوننا !

هكذا نموت .. ألهذه الأسباب وحدها ... ؟

- وهل كنت تريد أن يقوموا باختباراتهم على مزيد من الجثث البشرية ؟

ولايفلح بالإجابة على أسئلته .

– اسقونى ... اسقونى .

مازال الصوت يلح عليه .. والنوم المستحيل ، يشعره بالمحنة . أراد أن يهرب من المكان .

ستسرق الجثث ... الأكفان ... من يسرقها .. ؟

لو تكفل أحد بدفن هذه الجثث ..

لو حصل هناك دفن جماعى ... كما حصل من قبل ، لتمت معاقبة الفاعل ... لو تكرم أولئك الذين يتبرعون بأموالهم بدفن هذه الجثث ... لو حصلت الموافقة على دفنهم وأرض الله واسعة ... اتسعت لكل الأحياء ... أفلا تتسع لـ (٢١) جثة ؟ ... قالوا ... أن الأمر ليس بهذه السهولة التى يتعامل بها مع الأشياء .

هناك أرض لابد من تخصيصها لمجهولى الهوية .. لأولئك الذين وجدوا غرقى أو قتلى أو توفوا فى المستشفى أو دهسوا أو وجدوا عند قارعة الطريق بعد رغبة عارمة .

هذا يحصل ... يحصل فى كل مدن العالم .. فلماذا تكون المسألة غريبة عندما تحصل هنا .. فى هذه المدينة ؟

هى مدينة صغيرة ، والمفروض أن يكون سكانها على معرفة ببعضهم ، وحتى فى حالة الجهل ، أو عدم وجود مايرشد على هذه الجثث ..

ألا يوجد فى هذه المدينة التى عرف عن أهلها طيبة القلب .. والسماحة والمروءة ..... من يولى الأمر أهمية ... حتى يقوم بالمهمة .... أليست مهمة دفن الأموات ... مهمة دينية ودنيوية ؟ !

- اسقونى ... اسقونى .

يقطع النداء سلسلة أفكاره ، وهو يحاول أن يجد حلا لمحنته .. أين أولئك الذين يقومون بشق الأرض .... حفارو القبور .... كل جهد له مقابل .. ليست المسألة إنسانية كما يعتقد ... الناس غير الناس فى هذا الزمن .... !

وراح يتأمل داخل نفسه .... لو أنه مات .... مات فى هذه اللحظة ... من يتكفل إيصاله إلى ذوية ، من يتكفل بدفنه ، من يسأل عنه ويعرف كيف مات .. خوفا ، أو قتله أحد اللصوص ... أو انتابه مرض مفاجىء ... أو تجمد من البرد ... من المسؤول عن موته ... وهنا .. هنا وجد نفسه يختنق ... يصرخ :

- اسقونى ... اسقونى .

لم يصغ لندائه أحد . كانت كل الجثث متصرفة إلى هدوء أبدى ... إلى قوة مجهولة تشدها إلى مكانها .

أحس بالاختناق . إنه ميت لامحالة ...

وإن نداء الموت يقترب منه :

- اسقونى ... اسقونى .

كان الصوت يعلو . كان صوت الآخر .. ثم صوته ... ثم أصوات ... تنادى كلها ... كلها تطلب مجهولا ، تتوسل الارتواء :

– اسقونى ... اسقونى .

صار النداء يحثه على فعل شىء ... لنفسه أو لسواه ... لافرق ... فكل شىء حوله راح ينادى :

– اسقونى ... اسقونى ... اسقونى ... اس...قو....نى ... وأدركه موت بطىء ... بطىء ...

لم يكن هناك أحد ... كانت هناك أصوات تكسر النوافذ والأبواب وتهدم الجدران ... تهتف عاليا :

– اسقونى ... اسقونى .

١٩٩٥/٢/٩

الـــدَورَة

أدور ، أدور ، حولها أدور ، ودورانى لا فائدة منه ،ودورانى لانهاية له ، فلأوقف هذا الدوران .

سأتوقف حالا . هذه الدورة فقط ، وهذه الدورة فقط ، وهذه ، ولا أتوقف ، أظل أدور ، وأعرف أن كل دورة تمر تأخذ شيئًا منى ، وأدور فى فراغ ، هى تبتعد، وأنا أحوم حولها ، كطائر يحوم حول صغاره ، وكل الصغار غابوا عن العين .

سأسقط فى هذه الدورة أو التى تليها ، لأتوقف أذن ، أصبت بالدوار وراح رأسى يثقل على ، وأدور بإصرار مجنون . من قال أنها لاتدور مثلى ، ومن قال أنها كفرت بحبنا . من ؟

هى الأسئلة اليتيمة التى أحمل ، هى الهم الذى ألحقه بإصرار عجيب ، هوالذل الوحيد الذى ارتضيته لنفسى .

وهى كمثل جواد جامح تهرب ، تنفلت منى ، وأنا ألحقها ، أركض . وتضيع ، وأضيع . كل ساعاتى دونها تتحول إلى ضياع كامل .

أراها وترانى ، وبيننا سيوف الصمت ، وبيننا حودود الخجل ، وحدود الكبرياء .

فـى حضـورهـا تـخـرس كـل أحـاسـيسـى ، وفـى حضـورى تضـحك ، وتتحدث إلى الآخرين ، تقاسمهم الشاى والطعام ، و ... والضحك المتواصل .

أن لضحكتها طعمًا خاصًا ، ولصوتها نبرة اعرفها ، ولنظراتها أحلامًا أستطيع وحدى أن أفسرها . الكل يهواها ، الكل يدور معى ، فهى تعرف أى جرح هو دورانى ، وأى الطعنات أقسى إلى عندما أرى هذا الهوى الآخر يلحقها ، كل الأهواء واحدة ، هى حرة ، وأنا لست سجانها .

لابد أن أعرف هذا .

ولكن امرأة مثلها لرجل واحد ، وامرأة مثلها لحلم كبير واحد ، ومثلها واحد لا بديل لها عند رجل تعرفه ، وتعرف أى الآمال يبنى فى حبها ، وأى شموس تشرق فى أعماقها ، وأى إنسان تمر به وتسعده . يدور ، يدور .

وهى تقاتل نظراته ، تتجاهل حبه ، فأى امرأة أحببت ، وأى امرأة ألاحق ؟

هو أنا ، أنا الآخر الذى أقاتله ، وأصر أن أصالحه ، وثانية وثالثة . أكره فيها هذا الاندفاع نحو الآخرين ، أقسو على نفسى فى كتمان مخاطبتها . واصر ، ثم استل سيفى وابتسم ، وتواصل طعنى من جديد .

هى امرأة تهوى عذابك ، وهى امرأة تستجمع إعجاب الرجال كالطوابع البريدية .

وأنا لست الطابع ، ولست الرجل الئ يهوى امرأة سهلة ، وامرأة يسقطها هواها ، ويموت عندها شعور نبيل بالحب ، وأقول ، انتهى حبنا ، وأفلت منا العتاب ، وأقول أن انكسارى مات ، وكل شىء زال وسدل الستار ، وأخرج إلى فضاء متسع .

أقوله ، أقول ، ويظل قولى يحفر فى صميمى ، يمزق وجودى ، يتأكلنى . ويحاورنى الرجل الآخر فى داخلى ، يسكت جفائى ويقاتل مرارة حزنى . أن امرأة تعرفك ، تندفع اليك في لحظات وعى أويدون وعى ، هى امرأة تحب ، وامرأة تأخذك إلى بيتها وتعرفك بأهلها ، وتخرجان إلى الشارع والحديقة والمسرح .

وامرأة ترعى حزنك ، وفرحك ، تقرأ لك قصيدة ، وتغنى لك أجمل الأغانى ،وتشد أصابعك ، وتحتفظ برسئلك وهداياك . وما زالت تحمل لك السلام، هى امرأة تكشف حبها ، امرأة تحبك ، تحبك . هى الصورة السلوى ، هو الماضى السعيد ، هو المرفأ الذى ألحقه ، وانتظر والوصول إليه .

وتفعلها بلا سبب ، تضع حاجزًا ، تقفل دائرة العلاقات الخضراء ، تسكت حبًا يتألق ، وتخرس صوتًا عاليًا لنشيد يملأ الكون ، وترسم غرابًا ، صياحًا ، فى الطريق .

تقول أن النهاية اقتربت ، أن حبًا بدًا ولابد أن يتوقف .

– ولماذا يا ، لماذا ؟

– لأن الناس عرفوا ، ولذلك لا تبحث عن نتيجة .

وتحاصرنى الهموم ، أضرب برأسى فى جدار صلب ، وأدور ، أهتف بها :

– أناس لا يحبون ، ليسوا بشرًا .

حبًا يبحث عن نتيجة سوى الحياة فاقد لطعمه ، فاقد لحقيقته ، الناس حب ، والحب حياة ، أترضين ؟

وتسكت ، واسكت .

أصحيح أن سكوتنا يلتقي ؟

إذن نحن التقينا من جديد ، سكوتنا لقاء وكل الذين تتحدث إليهم تشاركهم الحب ، أنها تمثل الدور ، ولكنها تدور ، وبيننا لقاء وموعد وتفاهم رائع .

ساكتان ، سكوتنا ، الناس والحب .

وندور هذه المرة معًا ، حتى نسقط ضاحكين تحت ظل شجرة ، ثمارها ناضجة ، وعصافيرها كثيرة وظلها وارف ، وعشبها أخضر ناعم .

تعالى ننم أذن .

ونقرأ قصيدة حب كتبتها إليك من قبل .

تعالى ، تعالى ،

بغداد ، ١٩٧٩/٨/١٤

حب أخرس

لم يكن يشغلنى أمر ، أكثر من الوصول إلى مسكنى فى أقرب وقت لا لمسالة عاجلة متعلق حسمها بالوقت ، وإنما لأننى متعب ، متعب تمامًا بعد يوم مرهق من العمل العضلى .

انتظرت وصول الحافلة . وطال انتظارى حتى بات أملى فى وصولها قد أصبح مستحيلا ، إلا أننى بقيت انتظر . لعدم وجود سبيل آخر اتبعه للوصول إلى مسكنى البعيد عن مركز عملى ... سوى الانتظار .

كانت الجموع تزداد عددًا كلما طال أمد وصول الحافلة .. ولم يكن يعنينى سوى الوصول والاستلقاء بعد تناول وجبة طعام فقيرة كما هو الحال كل يوم .

كان الجو حارا ، ولم يكن الهواء الثقيل الجاف يريد أن ينسحب رغم أن الشمس كانت تنسحب بهدوء ، تاركة السماء ضائعة بين ضوء منكسر ، وعتمة مضللة لاتعرف مستقرا لها .. بسبب سحب ترابية كانت تنتشر وتساهم فى ثقل الجو ، ورحت أراقب فى فضول أكرهه .. وطاة الانتظار على الناس المحيطين بى ..

وفجأة تعلق نظرى على وجه فتاة .. كانت تحدق فى ساعتها مرارًا ، وتتلهف إلى حافلة قد تصل ..

كان الكل يعبرون عن الاستياء والضجر ويتوسلون صبرهم فى صبر الآخرين .

وكانت وحدها.. لاعلاقة لها بمن حولها ، وإنما كانت عين على عقارب . وعين على حافلة تجىء .. و .. وربما لاتجىء أبدًا كرهت فىّ فضولى وأنا أترقب قلقها ومرارة انتظارها ..

وشغلت نفسى بها .. وانصرفت أرقبها بدقة غريبة وانتباه لا أعرف سره .

كانت سماتها تعبرعن وقار وسماحة وطيبة .. وقار امرأة أكبر من عمرها .. وسماحة تستقبل المحن بصبر ، وطيبة تعكسه ملامح وجه رحب متفائل .

لم تكن هناك علامة تدل على ماهو خارج المألوف فى مظهرها .. فستان هادىء الألوان يمتد .. ليصل القدمين إلا قليلاً .. ويوضح على نحو غير مقصود على أن تقاطيع جسد الفتاة معافى ، وعلى قدر من التناسق والجمال والبهاء وجه عذب جذاب .. ويمكن أن أقول آخاذ يوحى بألفة سريعة .

ورغبة ملحة فى الانشداد إلى صاحبه .

وقد حاولت بعض الوقت أن أزيل رغبتى الملحة فى إمعان النظر فيها . إلا أننى ألفيت نفسى قد ارتاحت . وأن بعض تعبى قد خف ، وأن ترقبى الملح للحافلة لم تعد له أهمية قصوى ... لكن شيئًا من الحرص على مجىء الحافلة قد تحول أمنية .. وتوسلت الزمن حتى لاتتأخر تلك الفتاة عن وقت يبدو أنه يلح عليها .. وتصل الحافلة . وأهنة كأنما تريد رجاء

الراحة منا .. نحن الذين أمضينا أوقاتا طويلة ونحن نترقب وصولها .. فإذا هي حافلة متعبة تطلق أصواتا .. أعلى من الصراخ .

ولا تترك الفتاة ولاجمهرة المنتظرين فرصة للحافلة ولسائقها لأخذ أنفاسهما .. وإنما يعجلون جميعا لاتخاذ أقرب مقعد يصلون إليه ويظهرون في جلسة سلطانية يحسدهم عليها أولئك الذين يعانون زحمة دخول الحافلة .

تتكيء الفتاة على مقعد .. ولا أخفي رغبتي الملحة في الجلوس إلى جوارها .. لا لامر أخبئه في قرارة نفسي نحوها وإنما هي قوة الجاذبية تشدني إليها .

مرحبا .. قلت كلمتي وجلست .. ولم أتلق جوابًا .. كما لم أكن أظن فيّ الجرأة على البوح بكلمة . مرحبًا . أصلا .. فأنالم أعد لها ولم أقررها . لكنها انطلقت على لساني بطريقة فضولية .

لم يبد على أن الفتاة قد سمعت كلمتي .. لا لأنها لم تجب حسب . وإنما لأنها لم تلتفت إليّ ...

ورضيت بصمتها . وبررت الصمت بالوقار والخجل . وخجلت من نفسي . ورحت أمارس ضغوطي عليها خوفًا من حركة توحي للفتاة أنني أمارسها مثلما يفعل بعض الشباب في مثل هذا الحال .. وارتضيت لشخصي مراقبتها بدقة ، ومتابعة كل حركة أو همسة أو التفاتة قد تبدو منها .. إلا أن شيئًا من كل هذا ظل غائبًا ، كأنما لاتعرفه . وأنه ليس في طبعها واحترمت فيها جلستها الواثقة .

وحين هممت بمغادرة الحافلة ، تلطفت بابتسامة هادئة .. هي أشبه بالأمنية عليّ من الرجاء .

فتركت لها فسحة كبيرة لتمر .. وأحسست وهى تنزل السلم . بأننى أعاقب ذاتى حين لا أتبعها .. وطيبت خاطرى برجولة احترمها فىّ . ولا أريد أن أبددها فى ملاحقة فتاة لا أعرف عنها أكثر من كونها كائنًا جلست إلى جانبه مصادفة . وليس علىّ بناء قصور من الأمنيات على جلسة عابرة فى حافلة .

قلت سأنسى كل شىء .. ذلك أنه لم يكن هناك شىء بينى وبينها أبدًا .

وصلت مسكنى وأنا أحس بالراحة .. راحة بال ، وراحة جسد وتناولت طعامى بشهية .. فرحت لها أمى .

ومرّ الوقت كما لم أعهده .. وقت ظل فيه خيال تلك الفتاة يلاحقنى . وعندما حلّ الليل . كانت نافذة الغرفة تقترن بنافذة الحافلة زجاج الأولى يكشف عن عتمة ليل ثقيل .

وزجاج الثانية يكشف عن طبيعة وإن كانت مصحوبة بسحب ترابية إلا إنها كانت توحى بحركة الناس وتعاقب منظر الاشجار على بعض الارصفة .. وخيل لى أن زجاج الحافلة يأخذ منى المنظر الجانبى لوجه الفتاة ويمتصه ، مرتاحًا إليه ..

خيل إلىّ ، وأنا أعجب لما اتخيله .. إن المسألة فى جملتها عابرة وأننى سأنساها حال الغفوة الأولى ، ومروقت .. لم أكن أحس فيه إن كان نومًا أو يقظة . ساعات عبرت .. كانت فيها صورة الفتاة راسخة فى الذاكرة وفى العينين وفى الإحساس بأن أمرًا مجهولاً قد دخل بلا استئذان فى حياتى الخاصة .

و .. مر يوم وآخر .. ورابع.. كانت فيه صورة الفتاة تغيب ، إلا أن التخطيط الأول لصورتها لم يغادرنى .

قلت إن أيامًا لاحقة ستنسينى وجهًا عابرًا مررت به ، مثل كل الوجوه التى نمر بها جميعًا كل يوم .

وفى صباح بهى .. طالعنى وجهها فجأة .. فوجئت .. المفاجأة أذهلتنى ..

كنت أريد أن تراني .. فقد تعرفنى .. أنا الذى قلت ، مرحبا . وجلست إلى جوارها .. ثم ماذا ؟

سخرت منى .. سخرت من الآخر الذى فى داخلى يضللنى ، ويكذب علىّ .. بل ويهنينى ويحاول النيل منى .. يلهينى عن تعبى .. ويفضح تسترى الذى ألزم شخصى به .

.. وجدت مقعدًا شاغرًا .. جلست .

لم أرها .. الشمس عكست مرآها فى زجاج النافذة . عشقت الصباح والنافذة ..

كان وجهها الرحب .. يجعلنى أتعلق به ذلك الوجه الذى يحمل أسرارا أجهلها ..

وجه فيه عذوبة ولمحة شكوى .

وجه صريح .. لاتشكله الألوان ، وإنما ترسمه الطبيعة رسمًا مليحًا محدد المقاييس .. مزين بشعر كثيف أشبه بتلك الأشجار التى تتدلى أغصانها ..

غادرت الحافلة فغادر فرحى المكان .

هممت بأن أترك المقعد وأتوجه إليها .. لكنني صرفت هذا الأمر عن بالى .. وسافرت مع خيبتى ، حتى وصلت مكان عملى ..

كان النهار طويلاً .. ومسألة أن أصل إلى نهاية لهذا النهار بدت أمامى مستحيلة ..

حتى إذا أقبل المساء ، كنت أقف كما هى عادتى فى المكان المخصص لوقوف الحافلة .. ولم أكن أمنى نفسى برؤيتها . فأنا أعرف أن حظى سيء فى تحقيق الأمانى .

إلا أن الوجه النورانى المبارك .. أقبل ، وصار قبالة وجهى ودون أن أدرى ، انشرح صدرى ، فابتسمت ... وفاجأنى أن تلقى ابتسامتى قبولا عندها .. فإذا هى تبتسم لى بخجل وقفت عند مسافة قريبة منى .. وسرت باتجاهها حتى حاذيتها وتجرأت ... أتوسلها مرحبًا .

وعاتبت نفسى على عجالها ، ذلك أن الفتاة لم تجب .. ولا يبدو عليها أنها قد سمعت صوتى الذى كان أقرب إلى الهمس منه إلى البوح المعلن .

لكن إصرارًا عنيدًا كان يلح علّى ويتحدانى ... ويدفعنى بشكل سحرى نحوها ..

جلست إلى جانبها بصمت تعمدت الظهور بمظهره .

.. وابتسمنا سوية .. تبادلنا مشاعر على صفحة زجاج نافذة الحافلة .. وكلما كنت أحدق فى الزجاج . أراها تبتسم لى .

قلت .. أنها قد أحست بى .

قلت : سأتبعها حين تغادر الحافلة

قلت .. وأنا أشم عطرها يلامسنى ويدخل فى أنفاسى فيبعث النشوة فى كيانى كله .

سأجعلها تفكر بى مثلما أفكر بها واستعجلها الود المتبادل .

فعلت ذلك بجرأة لم أعهدها فىّ ..

تحدثت إليها طويلاً وأنا أسير إلى جانبها لم تجب بشىء ..

كانت تبتسم حسب .

ورثيت حالى حين قلت أنها ربما لم تكن تصغى إلىّ .. وأنها تلعب بمشاعرى ، وأنها تسىء الظن بى .

انتابنى هاجس ثقيل من الحزن ..

وحين وصلنا منعطف الشارع استدارت إلى، ثم مدت يدًا ملساء طرية تصافحنى .

- هل سأراكِ غدًا صباحًا ؟

أومأت برأسها ولم تجب ..

راقبتها وهى تغيب فى زقاق فرعى .. التفتت . وكانت الابتسامة جسرًا بيننا .

وطاب المساء فى مسكنى .

لذا الطعام ولذت أنفاس الليل وتجملت السماء بالنجوم فيما كانت هناك أغنية يجىء لحنها عذبًا والصوت فيها شجى . والكلمات تقرّب إلىّ أفراحى .

كان الصباح متألقًا من خلال تألق وجهها .

جلسنا معًا على واحد من المقاعد الذى كسر أحدى أرجله .. فكانت تميل بجسدها كلما تعرضت الحافلة لوقفة ..

وسكنت عند تلك اللمسات الملحة .. ورحت أبادلها .. فتستجيب . وانشغلنا عن العمل ذلك الصباح ..

غادرت الحافلة عند فسحة من الأشجار العطش .. و .. لحقت بها .

إتكأت على جذع إحدى الأشجار الشائِخة .

سألتها :

– لماذا اخترتِ هذا المكان ... ؟

ولم انتظر جوابها .. قلت :

– أريد أن استمع إليك ..

وعجبت حين كانت الدموع تحتبس في مقلتيها .. وبذلتُ جهدًا لئلا أراها فى هذا الموقف الحزين .

قلت : ألا أستحق جوابًا منك ؟

لامست يدى ، وأومأت مشيرة إلى لسانها .

صعقت .. حال أن عرفت أنها خرساء .. وتكفلت باعادة وجودى إلى سابق عهدها بى .

فتحت حقيبتها .. وتناولت قلمًا وراحت تكتب بخط أنيق :

– بعد أن عرفت .. هل ستظل علَى صلة بى ؟

أحسست بتساؤلها .. ورجاء ..

وعَفتْ ما يدور في بالي .. فخاطبتني على صفحة من دفترها :

– أرجوك .. قل كل ما تريد قوله .

وأردت أن أبوح بأسرارى دفعة واحدة ، غير أننى اخترت ألا أعجل ، وألا أستبق وعود قلبى ومشاغل فكرى وهم حياتي . لكننى كنت أعرف جيدًا ، أننى لن أبقى على شيء يحدثنى به قلبى .. ويصر عليه ذهنى ..

قلت : سأقول لك كل شيء فى حينه

ابتسمت . كانت لاتعرف غير الابتسامة جوابًا معلنًا .. يتحدث إلىّ ، فاستقبلت ابتسامتها استقبالاً حسنًا طابت لها مشاعرى كلها .

.. ورحنا نلتقى كل يوم ..

نعجل اللقاء بلقاء لاحق .

وكنا نعرف أننا نحب بعضنا لكننا لم نقل الكلمة .. حتى نبقى على قدسيتها .. أو هكذا كنت أفكر أنا على حين لم أقل لها كلمة « أحبك » لأمد طويل ..

إلى أن جاءت لحظة غائرة فى العمق .. ونحن نجلس فى ذلك المكان الموحش الملىء بالاشجار العطشى ... عندئذ قلت لها الكلمة بخشوع تام .. وأنا أمسك بأصابعها لئلا تهرب منى خجلاً وأنا أقول لها « أحبك » .

فرحت .. رقص الفرح فوق وجنتيها. وبرقت عيناها بريقًا خاصًا .. وأمسكت بالشجرة العطشى تسقيها دموع فرح كانت تنتظره حتى جاء يدق أبواب قلبها ..

كنت صادقًا وأنا أعلن عن حبى لها ..

صدق كنت أعهده فى نفسى ، مثلما اعتدت أن أعهده فى تلك الفتاة الخجلى ..

و .. مضى الحب يتجول فى أيام مزهرة ..

وفجأة .. جاء موعد ولم تأت . وآذن اليوم الثانى على نهايته .. دون أن أرها ذاهبة أو آيبة من عملها .

كانت الحافلة تسير كمن يسير فى جنازة .

سألت عنها الأشجار العطشى أولاً . والحافلة والشارع الذى كنا نفارق بعضنا فى منعطفه .

سألت قلبى وعقلى .. فلم يسعفانى بغير الأسى .

سألت عنها الزمان والمكان .. المسكن والدائرة ونسائم الصباح والمساء ، غير أننى لم أهتد إلى نتيجة تزيل عنى قلقى ، وتوقف هذا النزف الذى يواجه قلبًا جريحًا .

وبدأت أنطفىء شيئًا فشيئًا .. كمصباح

نفد وقوده .

بدأت اشيخ .

وبدأت أفتش فى عتمة النهار عن فتاة أحبها .. تضيع ، تضيع فى دائرة هذا العالم الذى راح يضيق .. يضيق .. وأنا أحس بالاختناق يلتم ويندفع ويضغط بشدة فوق أنفاس حبى الأخرس ..

١٩٩١/٦/٧

السيد فى يومه الأخير

* **الإفطار.**

وضعت مائدة الإفطار أمام السيد .

السيد مد يده إلى كوب الحليب ، حتى إذا اقترب من فمه .. اقترب من فراغ .. دفع الفراغ إلى فمه .. لم ينسكب شىء بقى فم السيد مفتوحًا شرهًا ..

سمع همسًا فى أذنيه .. تلمس الهمس ، تلمس خيال أنثى .. ونهد الحليب المصفى ، أدرك أنه يمسك بالهواء وأن الهواء يختنق فى رئتيه ، فأفلت أصابعه . مد اليد الأخرى إلى رغيف الخبز .. حتى إذا لامسه ، حلق الرغيف فى سقف الغرفة وصار شمسًا فانفتحت أبواب الصباح .. وعم الضوء .

عجب السيد من الأمر .. وحدق فى بيضة .. فإذا عيناه تخترقان غلاف البيضة .. ويخرج كائن يصوء .. جفل السيد ، بينما كبر المخلوق الذى كان يصوء .

جرب أصابعه ثانية ، أصابعه امتدت إلى قدح الشاى .. بخار الشاى راح يتصاعد .. ورأى السيد أن شجرة خضراء تنبت من قلب البخار فدهش .

تساءل السيد .. ماذا يعنى كل هذا .. ؟

نادى بأعلى صوته .. سمع أصداء صوته .

نادى ثانية .. وفى النداء الثالث ، سمع نهد الحليب يتنهد .. قال : تلك هى أنثى الصباح ..

تلك هى وجبة الفطور الأولى ... وحين سمع النهد كلام السيد ورغبته الملحة ..

جف .. التصق بجلد لم يره أحد .. ونادى من جديد ....

موجات صوت السيد وصلت إلى خيوط الشمس المعلقة فى سقف الغرفة .

تثاءبت الشمس ... وتكاسلت .. وتساءلت :

– من أيقظنى ، من فتح أبواب هذا الصباح ؟

– أنا .. أنا / قال السيد .

– أنت .. أنت / قالت الشمس .. وأضافت .. آه ، تعال أمسك بخيوطى الضوئية .. تعال ..

وحين أراد السيد أن يمسك بالخيط الاول ، انقطع ، فتأوهت الشمس .. قالت :

– آه .. كم أنت ثقيل .. كم أنت محشو ..

– إننى معافى .. وآكل بشهية .. عندئذ أدركت الشمس مهمتها .. قالت .. أرجوك .. لا تمسك بخيوط ضوئى ..

– ولماذا .. ؟

– أننى أضىء لفقراء الناس .

– ولماذا لا تضيئين لاغنيائهم ..

– الفقراء فى العتمة .. أنا خلقت لأضىء العتمة .

غضب السيد .. امسك بخيط آخر فانقطع .. بآخر .. فانقطع

– أيها السيد .. ستتعب / خاطبته الشمس .

– بل سأقطع كل خيوطك .. / قال السيد .

– تستطيع .. ولكن حين تقطع خيطًا أنبت عشرة .

– سأجىء بالسيف وأقطع به العشرة ..

– عندئذ سينبت مائة ..

– سأقطعها جميعًا..

– ستصبح ألفًا .. أحس السيد بالفجيعة .

صرخ .. كما لم يصرخ من قبل .. ولأن صراخه كان حادًا ، فقد اصفرت . أوراق شجرة الشاى وسقطت ميتة .

تنبه السيد إلى تساقط أوراق الشجرة ... قال السيد :

– أيتها الشجرة .. هل يؤذيك صراخى ؟

– ويجرحنى أيضًا .. يطرد عصافيرى ..

– ومتى كانت العصافير تبنى أعشاشها فوق شجرة الشاى ؟

– عندما صارت المخلوقات الصغيرة التى تضىء .. تملك أجنحة تحلق بها عاليًا ..

التفت السيد إلى قشر البيضة .. فوجد شيئًا لم يره من قبل .. كأن جمع من كائنات .. تنمو وتطير ..

عجب للأمر ..

تساءل : ماذا يعنى فطور هذا الصباح ..

ماذا يعنى كل هذا .. ؟

ومرّ النهار ..

*** الغداء :**

امتدت مائدة الغداء أمامه .

فخذ شهى . صحن من الرز ، وآخر من مرق البطاطا . تشهى الفخذ .. خاطبت الشهية غرائزة .. اللحوم شهية دائمًا..

وطعم الفخذ لذيذ .. معطر بالعنبر والرغبة . بكلتا يديه تقدم إلى الفخذ .. يلتقطه ..

قفز الفخذ فى زاوية الغرفة بعرائه الكامل .. صار امرأة حسناء ، تفتن نظرات السيد .

– تعالى .. تعالى نأكل سوية .. لا أحد هنا .

– لكننى أحد .. !

– هل تخشين من نفسك ؟

– بالتأكيد .. أخشاها ، أخاف ضعفها ، أخاف عليها من الانهيار ..

– كيف .. ؟

– النار قاسية .. لقد أمرت بوقود محرقة ..

– حتى يكون الطهى جيدًا ..

– وحتى يسهل عليك الطعام ..

تسهل عليك الأنثى .. تسدل على نفسك الستائر .. وتأكل الأنثى ، ثم ترمى ما تبقى منها إلى من يخلصون لك .. لمن يمتلكون نار شهوتك .

– هذا طقس كل يوم ..

– ولكننى سأكون شجاعة وأتمرد عليك .

– لماذا ؟

– لأن أصابعك من نار .

عجب السيد من نيران أصابعه .. والتفت إلى صحن الرز ..

حتى إذا أراد أن يتلمسه .. رجع إلى أصله ، إلى حقل مغمور بالماء ..

– ما هذا .. ؟

– حقل من الرز ..

– لكن صحن الرز .. كان جاهزًا ..!

– الرز أعد للفقراء .

– .. الفقراء يمكنهم سلق الحنطة .. الرز طعام السادة .

– الغذاء لكل فم .. وأنت لا فم لك .

تلمس السيد فمه .. فأذا بشفتيه غليظتان ، ملتصقتان عجب السيد لما حدث له فى فترة الغذاء .

ورغم يأسه وقلقه وحزنه .. امتدت يده إلى صحن البطاطا .. وحال لمسها .. تجمعت ، وغلفت نفسها .. وحفرت لنفسها قبرًا .. غطت ترابه وسكنت هناك ..

– ما هذا .. ؟ / هتف السيد .

وسمع همس البطاطا : لابد أن أخجل من شمس الصباح .. فقد بكرت .. وعليّ أن أستنهض قلب الأرض .. أيقظ سكونها .. أجعلها تفيق من نومها .. أجعلها ترى الشمس .. وتشاركها فاعلية الضوء .

أدرك السيد الآن .. أن الشمس والأرض فى حلف واتفاق ضده . استدعى حراس قصره .. فازداد تورم الشفتين .. غلظتا .. وثقلا عليه ..

.. ومرّت الظهيرة ..

*** العشاء :**

قدح من الماء .. يكفى .

قدح من الماء .. لسيد عافه الإفطار ، وزهد به الغداء . وبات من الصعب عليه تناول عشائه .. عبر شفتين غليظتين ، متورمتين .. يكفى .. قدح الماء يكفى .. هذا المساء يكفيه قدح من الماء .. أحس أن حرقة فى داخله تريد ان ترتوى .

وتناول قدح الماء ..

عندئذ فاض المكان .. اتسع الماء .. صار نهرًا ، صار بحرًا ، صار محيطًا ..

أحس السيد هذه المرة بالاختناق .

لم يقل الاختناق أنه يفعل فعلته .

لم يقل السيد أن الماء بدأ يحيط به ، يغرقه .. يغرقه .. يغرقه .. يغرقه تمامًا ، تمامًا يغرقه .

وبينما كان السيد يغرق.. كان صباح اليوم التالى مضيئًا ، عذريًا .. له عيون خضراء بلون الزيتون .. وسماء .. لعمق زرقتها تتوحد بالماء .. والماء يشق دروبه فى أرض بدأت تتنفس .

١٩٩٢/٨/١٤

ما لا يعرفه السلطان

بكل تأكيد .. هذه دقات سلطان على الباب .. وإلا من يكون سواه ، لا حدود للوقت عنده ، ولامسافة بينه وبين الآخرين ؟

كان سلطان .. مملكة خاصة ، يضحك منها الجميع ، وينفذ طلباتها الكل عن غبطة لا يجدها عند الآخرين سواه .

سواه يُطرد ويُهان .. ويتوب .

وسواه تُقفل بوجوههم الأبواب .. فيذهبون ولا يعردون أبدًا .

وسواه قد يثير الخجل بسبب شيخوخة قريبة الرحيل إلى مثواها ، أو طفولة تمتلك البراءة ، أو شباب منطفىء .. إلا أن سلطان لا يخجل أحدًا ، وهو نفسه لا يعرف موقعًا للخجل ..

بطوله الفارع وابتسامته المفرغة من المعنى ، وجبهته المسطحة ، وثوبه الوحيد الذى عافته كل الألوان ، ويشماغه الذى اجتمعت دوائرة السوداء والبيضاء حتى صارت بلون الرماد الملوث ، وبمشيته التائهة البطيئة ، يتقدم سلطان نحو هذا الباب أو ذاك حسب مشيئته .. وحين يشاء ، ليس من أحد بقادر على اقناعه بالعدول عن هدفه . وحين يصر البعض عن جهل أو عناد بارد ، يتحول سلطان إلى متمرد .. مستخدمًا كل صلاحياته باعتباره السلطان .. الذى لا يرد له طلب ، ولايحول شىء دون

تحقيق إرادته ..

وقَبلَهُ أبناء الحى على أنه سلطانهم ، إرضاءً للوهم الذى يتمتع به سلطان ، واتقاء أنفسهم من شره .. وإن كانوا يعرفون جيدًا أنه لا يعرف سبيلا إلى فعل الخير أو الشر .. كونه لا يميز أصلا بينهما .. !

فُتح الباب فى تلك الظهيرة الحمقاء الجافة .

ابتسم السلطان ، ابتسامته التقليدية البلهاء .. وسأل :

– هل لديكم خبز يابس ؟

أجاب الرجل الخمسينى المتعب ، والذى لم ينم ليلة أمس بسبب الأخبار التى سمعها من مذياع مستهلك ، والتى تؤكد على تجديد الحصار على بلاده :

– سلطان .. هل هذا وقت للسؤال عن الخبز اليابس

سلطان .. أنت تعرف بأننا لا نبقى على خبز طرى ولا خبز يابس .

سلطان .. كم مرة قلت لك هذا ؟

تجاوز سلطان كل غضب الرجل الخمسينى المتعب ، وأشار بأصبعه إلى العائلة التى تسكن الشقة العليا :

– .... وهؤلاء ؟

– لا يوجد عندهم أيضًا ..

ويذهب السلطان .. ساحبًا بحذاء النايلون كل تراب الشارع .. فيما يعود الرجل الخمسينى المتعب إلى قيلولته .. فيجدها قد ولت منصرفه عنه إلى حيث لا عودة .. ولا إغفاءة .

ويفكر .. ويمنى نفسه بأن يكون السطان ليوم واحد .. ساعة واحد .. ثانية من زمن منسى ..

لايهم أن يضحك منه الأطفال .. أما يكفيه ضحكه على العالم كله .. على الحياة برمتها ، على هذه الشكوى والغلاء وفقدان الأمن والجرائم التى تزداد أرقامها.. على الغش والرشوة والكذب والاستغلال وفقدان كل القيم .. ألا يكفيه أنه لا يعرف شيئًا عن كل ما يدور حوله .. والأشياء نفسها ليست على تماس معه .. فلقمته آمنة محفوظة .. مهما كانت وكيف كان طعمها ونوعها المهم أنه لا يعرف مفردة باسم : الجوع ..

وحين يحس بالحاجة إلى طعام ، يلتفت إلى الخبز اليابس الذى جمعه فى كيس من البيوت أو من تجمع النفايات – لا فرق عنده – ويأخذ بقرض الخبز بأسنان حادة سليمة يحسد عليها .

منَّى الرجل الخمسينى المتعب نفسه بأن يكون السلطان .. وقرر أن يفعل مثله سرًا .. فليس لمثله أن يعلن عن مهنته مثل السلطان .. ذلك أنه لا يليق بموظف محترم أمضى أكثر من ربع قرن يعمل أمينًا للصندوق .. ويصرف الأموال لمن يستحقها أو لا يستحقها – المهم عنده الصرف لمن يحمل أمرًا بالصرف – أن يعلن عن نفسه سلطانًا ، ليكون بديلا عن السلطان الحقيقى ، أو منافسًا له فى مهنته .. مع أن روح المنافسة بكل وجوهها صارت مسألة عادية وطبيعية جدًا .. ولا يناقش أحد بشأنها .. كما كان العهد من قبل حين يستأذن من يفتح محلا ممن يماثله وعلى قرب منه .. فلا يجد فى العادة إلا جملة واحدة :

– الأرزاق بيد الله .

وأقنع الرجل الخمسينى المتعب نفسه : الأرزاق بيد اللّه يا سلطان ..

وتأمل الرجل .. مهمة البدء فى العمل .

وراح يرقب سلم الشقة ليتبين موقع الخبز اليابس ..

كان الوقت المفضل لعمله .. الظهيرة ، قلب الظهيرة أو الليل .. ففى هذا الوقت يصبح كل شىء فى حالة سكون .. وليس هناك من يدخل أو يخرج .. كما أنه لا يثير الشك .. فهو صاحب المنزل والشقة معًا ، وقد قام ببناء الشقة ليعين مورد إيجارها فى تحسين وضعه المعاشى .. بعد أن باع الكثير من حاجيات مسكنه .. راسما المستقبل الزاهى لأبنائه ..

غير أن كل شىء خطط له ورسم أبعاده .. تجاوزه الزمن ، وبات متخلفًا فى اللحاق بزمن قاس ..

وبات يقبل بالمائة دينار كل شهر ، بدل إيجار الشقة مرغمًا .. فيما ينظر إلى ما لذ وطاب ، وما دخل وما خرج ، وما حمل وما جاء به المستأجر كل يوم من طيبات لأبنائه . ما يتلذذ به كل واحد منهم ، وما هو موضوع فى كف كل طفل من نقود .. يمكن أن يقابل إيجار عام كامل أو أكثر .. فيما يرى أبناءه هو .. هو مالك الشقة .. صفر اليدين !

راح الرجل الخمسينى المتعب ، يرقب السلم .. حتى لايسبقه السلطان إليه ، ويفلح فى الحصول على الخبز اليابس المهمل فى كيس النايلون ..

واستبشر فرحًا ، عندما غنم بالكيس فى تلك الظهيرة .

أسرع بوضع الخبز فى إناء مغدقًا عليه الماء .. وادعى أن أسنانه لاتساعد على مضغ الخبز اليابس .

كانت زوجته .. تعرف خبزها جيداً .. كما تعرف خبز سكان الشقة .. خبز أبيض ، أو صمون ناصع يلهث كالفضة ، كقرص الشمس .. غير أنها عمدت ألا تخجل الزوج المنكسر .. فيما راح الأبناء يزاحمون أباهم فى تناول ذلك الكيس ويترقبونه .. وهم فى اعتقاد أن أباهم بدأ يؤثر نفسه عليهم .. وهى ظاهرة جديدة لم يألفها أى واحد منهم من قبل .. فما الذى طرأ على أبيهم .. لكى يتناول الخبز والصمون الأبيض دونهم .. ؟

بدأ همسهم وترقبهم .. ثم حديثهم العلنى .. يزداد والأم تخفف عنهم هذه الأثرة التى ظهرت فجأة على أبيهم .

وعندما يغيب هذا الخبز السعيد عن مائدة الطعام الفقيرة .. يصبح الفقر فى أقصى مدياته .. الأمر الذى يجعل الشكوى قاسية على الأب .. وسلطان .. السلطان يدق الباب بين حين وآخر فى الوقت الذى يشاء سائلا عن الخبز اليابس .. مستمعاً إلى جواب واحد لا يتغير :

– سلطان .. ليس لدينا خبز يابس .

فيشير السلطان إلى الشقة :

– هؤلاء .. أليس لديهم خبز يابس ؟

– نعم ..

يجيب الرجل الخمسينى المتعب .. قافلا الباب ، منشرح الصدر ، فقد صرف عنه منافسه .. وبات حراً مع خبزه اليابس..

.. ومرة سأل السلطان ساكن الشقة عن الخبز الذى كان يضعه على السلم باستمرار .. عندما رآه متوجهاً إلى الشقة قال :

– نحن نرميه على السلم .. ألا تأخذه كل يوم ؟

– نعم ..

– من يأخذه إذن .. ؟

وسمع الرجل الخمسينى المتعب الحوار .. وزعم أنه يأخذ الخبز اليابس أحيانًا لدجاجتيه ..

وقبل السلطان وساكن الشقة بهذا الادعاء . عن قناعة أو دونها .. المهم أن الجميع سكتوا عن الأمر .. حتى صار بمقدور الرجل .. أن يأخذ كيس الخبز اليابس متى رآه .. فكأنما الدجاج يستحق هذا الاستجداء وهذا الذل فى قبول الفضلات .. فهى كائنات لا تحس بالكرامة التى يحسها أمين صندوق محترم مثلا .

.. وبات الخبز اليابس المرطب بالماء .. يشغل موقعًا مهمًا على سفرة الطعام .. بات سيد المكان دون منازع .. وموضع انتباه الجميع .. فيما بقى الخبز الأسمر منزويا منكسرًا .. احتياطا لمعدة تريد المزيد ..

والرجل الخمسينى المتعب .. يقبل بهذا وذاك .. بالأسمر والأبيض والأسود .. المهم عنده أن يسد جوعه .. والجوع لا يعرف التأنى ولا التأمل ولا بهجة الطعام كما فى الماضى الذى رحل بعيدًا ..

تناول خبزًا قدم له فى عشائه ..

لم يحدق وإلى لونه ولم يتوقف عند طعمه ..

كان يبعث الشهية .. وخيل إليه أنه مطلى بالقشدة .. فتناوله على عجل .. وأحس بقدر من الحموضة ، حتى إذا ازداد فعلها فى معدته .. استرخى ، ثم راح يتألم .. ازداد ألمه ..

وفى المستشفى قال الطبيب :

– لقد تعرض المريض إلى حالة تسمم .. ممن اشترى خبزه وطعامه ؟

لابد من إجراء تحقيق حتى لا يتعرض بقية الناس إلى تسمم مماثل .. سكتت الزوجة .. سكت الابن الأكبر الذى كان يرافقها .. والطبيب يلح فى سؤاله :

– من أين جئتم بالخبز .. من أى فرن .. ؟

وفيما كان الطبيب يسأل ، باحثًا عن إجابة .. كان الرجل الخمسينى المتعب .. قد تخلى عن أعوامه وعن تعبه واستسلم لراحة أبدية .. لا ينافسه فيها أحد ..

أمـــراض

فـى الساعـات الأولى من النـهار ، أو فى الساعات المتأخرة من عمق الليل .. كنت أرقب كل شىء .

فـأول النـهار أو عمق الليل .. يعنى الحاجة الملحة .. والرغبة التى تتحول إلى أمنية للحصول على علاج .. إلا أن هذه الأمنية تظل عصية على التحقيق ، فليس هنـاك طبيب متخصص لتشخيص الأمراض ، وليست هنـاك وصفات طبية قابلة للصرف .. كما أنه ليست هنـاك مختبرات وأشعة وعمليات مستعجلة .. كل الأمراض ، كل الوصفـات ، كل سبل العلاج .. قـابلة للتأجيـل .. تـأجيل إلى وقت معلوم شفاهـًا ومجهـول الإنجـاز إلـى ميعادات لا يعلمـها حتى الراسخون فى تفاصيل هذا المستشفى الملىء بـالمعدات الطبية الحديثة والمعطلة عن العمل لأسبـاب كثيرة .. شأنها شأن الأمراض الكثيرة التى تملأ كل ردهـات وممرات وغرف هذا المستشفى .

بت أعرف كل مرضى المستشفى على كثرتهم ، مثلما أعرف كل مراجعيها المزمنين .. وهـم كثرة أيضًا .. إلا أن تكرار الوجوه يوميًا أمامى وأنا الطبيب المقيم .. جعلنى أعرفهم .. أعرفهم واحدًا .. واحدًا .. طبيعة أمراضـهم ، وطريقة تعبيرهـم عن أزماتهم ومشكلاتـهم المرضية .. ولأننى لم أكن أفلـح فى فعل شىء لإنقاذهـم من أوجاعهم .. كنت أحاول التخفيف

عنهم بكلمات رقيقة ، وبذلك كنت أجد القبول والارتياح من قبلهم ، مثلما أجد نفسي في حالة طيبة من هذا الإجراء .. وإن كان إجراء مفرغًا من العلاج .. ذلك أنه ليس بمقدورى فعل شيء .. ولم أفعله .

أنا لا أستطيع أن أعطى علاجًا غير موجود داخل المستشفى ولا فى خارجها ... وقد أصف العلاج المتوفر فى الصيدليات عندما أكون على معرفة بوجوده بأثمان مرتفعة .. وأن مريضى له قدرة على شرائه ، حتى لا أوقعه فى محنة جديدة حين لا يكون فى مقدوره اقتناء علاجه ، الأمر الذى يسبب له مرضًا نفسيًا قد يضاعف من مرضه الأسبق ..

كما أننى لم أكن أفضل اللجوء إلى إيهام المريض بحقنة الماء المقطر ، أو الفاليوم .. حتى أجعله يأخذ عنى نظرة إيجابية هى بالأساس نتيجة لتضليل ما رسته !

أنا لا أتفق مع زملائى الأطباء فى أمور كثيرة .. فلقد جئت إلى هذه المهنة وبى رغبة شديدة فى البحث عن السبل التى تكفل للإنسان الراحة ، وعدم المعاناة من آلام الأمراض ، ومد الإنسان للتمتع بالحياة إلى مديات عمرية أطول .. وإلى شيخوخة هادئة لا تصاحبها الأمراض والصيدليات الجوالة التى يملأ الجيوب والمناضد القريبة بالأسرة الكسولة .

.. ومع أننى كنت أحب زميلة لى ، إلا أننى كنت بقدر حبى لها ، كنت أخشى عليها من الزواج ، من الأمومة وأوجاعها هى أولاً ، ومن ثم الطفل الذى ستنجبه ثانيًا ، لم تكن تصدقنى .. وتركتنى أعانى من لهفتى إليها ، من لهفتى إلى خلودها ، إلى خلود طفل يأتى من لذة النطفة .. فإذا به يعانى من تلك اللحظة السحرية .. باحثًا عن لقاحات يحتاجها ، وحليب يحفظ له براءة نموه ، وفاكهة وأغذية تعزز عافيته .

لم أكن أريد أن أضيف إلى معاناة هذه الكثرة من البشر الذين يراجعون المستشفى كل يوم .. معاناة زوجة وطفل ، أكون أنا المسؤول الأول والأخير عن إيجاد حلول لأمراض ستلحق بهم وليس بمقدوري فعل شيء .. أي شيء .

كنت أقول لنفسي .. إنني أحس بقطرات المطر قبل سقوطها .

أقول هذا حسن . هذا إحساس بوطأة الأشياء ، والتحسب لها قبل أن تصبح حقيقة وعصية على الحل .

نعم .. فإذا لم أحس بالظرف المناسب .. عليّ ألا أتحول إلى إنسان مغامر ، لا يدركه الندم إلا بعد فوات الأوان .. بعد أن يكون قد غرق .. ولا سبيل لنجاته من الاختناق .

.. كنت أخشى من أولئك الذين يزعمون بأنهم يتبرعون بالدم .. لوجه الخير .. كنت أعرفهم . كنت أعرف أن بعضهم قد أصيب بالتسمم نتيجة للتلوث .. فأبدأ بمعالجتهم دون جدوى .

وأعرف .. أعرف جيدًا بأن كثرة منهم يبيعون دمهم ، يرخصون البيع .. بحثًا عن قوت لهم ولاولادهم .. حتى لأرى أن (التبرع) بالدم قد تحول إلى مهنة .. عندما باتت كل المهن معطلة إلا قلة نادرة تتبرع لإنسان ترتبط معه بعلاقة حميمة ، أو .. أو .. كسبًا .. لموقع لدى مسؤول أو شخصية لها تأثيرها على مستقبلة .

المتبرعون بالدم .. زاد عددهم .. فالمرضى الذين هم بحاجة إلى الدم .. زاد عددهم .. وثمن قنينة الدم ، إرتفع ثمنها .. ولم لا وكل الأشياء في تصاعد دائم .. وبخاصة حين تظهر (تسعيرة) جديدة على شاشة

التلفزيون أو تنشر فى الصحف .. فإذا سعير الأسعار يتحول إلى نيران يصعب إطفاؤها .. وليس على من يحتاج لابنه أو قريبه ... قنينة دم إلا أن يعد نفسه لمهمة تجارية تحتاج إلى مساومة طويلة .. يكون فيها المريض قد أسلم الروح .. وأطفأ جذوة الحياة . وتكون قنينة الدم .. بانتظار مريض محظوظ ، أو مودعة فى مصرف دم .. لا يصرف لأحد !

ولأننى شغوف بمعرفة التفاصيل .. تفاصيل كل ما يجرى حولى من آلام عصية على العلاج .. فى ظروف صار فيها رغيف الخبز .. لا يسهل الحصول عليه بسهولة .. صار أمرى .. هو المرض الذى لا شفاء منه . ذلك أننى اكتشفت مهنة جديدة فى هذه المستشفى .. مهنة رابحة ، إنجازها ليس على درجة كبيرة من الصعوبة .. أمرها يحتاج إلى قدر من خفة اليد ، قدر من النباهة .. والمساومة المسبقة ، والمعرفة بدوافع الحاجة ، حجمها ، ومدى قدرة صاحب الحاجة على الدفع .. فهناك من يبذل العطاء لقاء تحقيق أمنية طال أمد انتظاره لجعلها موضع الإنجاز ..

— كل شيء قابل للتنفيذ ، مادمت تحمل النقود .

تقول الممرضة لمن يمنى نفسه بمولود ذكر فى قسم الولادة .

ومن كان قد جمع فى منزله دزينة من الإناث ، أو دزينة من الذكور .. أو العجز ، أو الإسقاط ، أو التشويه ، أو العقم .. كل هذه المحن .. قابلة لئن تقلب على نحو آخر ..

الدخول إلى صالة العمليات ممنوع .. وفى الممنوع يحدث .. ما لم يكن يحدث من قبل أبدًا ... والأمر لا يحتاج إلا إلى حمل المولود ونقله من موقع إلى آخر .. ليصبح الإشكال محلولاً ..

.. هذه المرة صار لك مولود ذكر .. يا سعادتك .. ادفع ..

.. أنت امرأة تمنى نفسها بطفل أو طفلة .. لمرة واحدة ، حتى لا يفكر زوجها .. بامـرأة أخـرى .. إدفعى بما تجود به أصابعك .. أنت . أو أنت .. لا معنى للانتظار .. هناك من يريد معرفة الأمنيات التى تحملونها فى صدوركم لأعوام طويلة .. حتى يعدوا أنفسهم لخدمتكم وتحقيق أفراحكم .. المهم أن تكون لديكم قدرةعلى السخاء .. قدرة على تحويل أحلام العمر كله .. إلى حقيقة ، بواسطة واحدة .. واحدة حسب ، هى النقود .. وأمرها سهل .. مصدرها سهل أيضًا .. ومصدر صرفها كذلك ..

وأنا أسمع ، كأنّ أذنى قد قبلا الجريمة .. لذلك أنحاز إلى الصمت .

.. صمت .. صمت .

صار الصمت يدوى فى أذنى .. وأضيق بروحى . أختنق .

تذكرت كيف كان أخى .. شديد التعلق بالطيور ، وكيف كان يقوم باستبدال البيض والفراخ بعد التفقيس .. وهى لا تحس .. وبدافع لا أعرف مصدره ، كنت أعيد البيض لاصحابه ، والفراخ لأبويها الحقيقيين.. ويعجب أخى للأمر .. يسأل من فعل هذا ؟

وكنت أنكر .. وكنت أفلح فى بقاء البيض أحيانًا .. لكن أخى اكتشف أمرى ذات مرة .. وراح يضربنى بقوة ، كأنما ينتقم لكل ما مضى ولكل ما كان .. حتى لايكون ما كان .. ثانية .

أما المجىء بأطفال الآخرين أو استبدالهم .. فمن يتجرأعلى كشف حقيقته ما دامت هناك اتفاقات مادية سخية ؟

كنت أصرف عنى سماع مثل هذا . أقول إنها الحاجة تغتال كل القيم .. كل شىء يتحول إلى هشيم .. فمن أكون حتى أوقف هذا الفيضان الجارف ..

كل السدود تساقطت .. والموج يدفع بى.. وأنا أسمع وأرى وأحس وأتنبه وبت أدرى بكل ما يجرى ..

أدرى أن الوجبات الغذائية المخصصة لذوى الأمراض المعدية ، باتت تنقص شيئًا فشيئًا .. ثم تسرق بالكامل .. أدرى أن صرف الأدوية لهم نادرة .. والندرة تجىء بأثمان باهظة عندما تباع .. ولم لاتباع ، وهناك من يدفع وهناك من يأخذ حق المرضى بدافع الحاجة .. ؟

كيف يمكن لى إيقاف هذا الحد من الأمراض .. ؟

لم أعد أفلح فى شىء . صارت نصائحى وتوجيهاتى مضحكة .. صرت أنا .. أنا نفسى أضحك منها.. حتى صار أمر هروب المرضى من المستشفى مسألة مألوفة .. لا تعترض عليها أحد ولايتحدث بشأنها أحد ..

أما أن يغادر المستشفى أصحاب الأمراض المعدية والخطيرة والتى من شأنها أن تسببب كارثة عظمى فى البلد .. فإن ذاك حال من الخطورة يصعب تجاهله .. أوالسكوت عنه . غير أننى كنت أسمع صدى صوتى .. وصوتى لا يتجاوز حدود غرفتى وغرفتى ضيقة . جدرانها مطلية بصفرة المرض .. والمرض يأكل فى جسدى .. وجسدى يستنشق هواء المرض .. وهواء المرض تتسع له كل الأجواء .. وكل الأجواء صارت تعانى من الأمراض .. والموت يدق الأبواب .. والأبواب صدئة .. والصدأ ينخر .. ينخر إلى ما لا نهاية ..

– اعتمد القاص فى معلوماته الواردة فى هذه القصة على ما تنشره الصحف المحلية من تحقيقات ومشكلات وتقارير تتعلق بالوضع الصحى الراهن فى ظل الحصار الجائر على قطرنا .

رغبـــة ..

لم تشغله هذه المسألة أبدًا . . كأنما قطعت عواطفه ، وبات الاحساس بهامعدومًا ..

كان جسده قطعة من جليد ، تنطفىء فيها الحرارة ، ويذوب فيها دفق الحياة .

كان يستمع إلى عدد من أصدقائه وهم يتحدثون عن أرق الليل وأوجاع القلب ، ولهفة الانتظار .. فلا يستجيب وجدانه ، ولا يثار شبابه ..

ولم تكن كلمات مثل « الحرام » و « الحلال » و « العيب » و « العشق » .. مثار انتباه أو حوار فى ذاكرته .

كل ما فى الأمر ، هو انشغاله فى دراسته وعمله والبحث عن قوت يومه ..

الدراسة مطلوبة ، كونها ستكون نقلة طيبة فى شقاء عمله.. وعمله لم يكن سوى تواصله وأسرته فى العيش .

.. وغاب تطلعه إلى الخارج هذه الدائرة ، حتى أصبح هذا الغياب يشكل تندرًا من الأصدقاء فى نظرتهم إليه ..

ولأنه كائن ، محور حياته يدور فى العمل والبيت والكتاب الدراسى ولأن وطاة الوحدة فى كثير من الاوقات ثقيلة ومرة .. توجّه إلى الكتاب ،

متوسلاً إليه ، متفاعلا معه ، مستجيبًا له . وأرشده الكتاب .. إلى الكتاب فاتسعت مداركه ، وإذا الكتاب نفسه يخاطب عقله ووجدانه ..

– أتكون الحياة بهذا المعنى .. وأنا غافل عنها ؟

خاطب نفسه ، وبحث عن إجابة فى ليال طالت ساعات أرقه فيها .. وظل السؤال يلح عليه إلحاحًا مريبًا وتآمريًا .. إكتشف ذلك وهو يحدق بعيون الصبايا ، ونهودهن ، وسيقانهن الصقيلة ..

وحدته كانت تلح عليه ..

وحدة ، لم يفلح حنان الأبـوة والأخوة والأخوات الصغار فى إلغاء أو تخفيف ثقلها .. بالعكس ، كانت وحدته قد ألفت فيه صمته وغليان الأسرار فى نفسه وكيانه .

جلس عند نافذة الغرفة الضيقية .. محدقًا فى الأفق ويراقب الشمس وهى تطلع رويدًا رويدًا .

وكان شباط فيه قدر من البرد الذى يخجل أمام طلعة الشمس .. وينسحب خجلاً .. وعندئذ تجد القطط سبيلها إلى اتخاذ سبل التعبير عن عشقها ..

هاهو يرى زوجًا عاشقًا من القطط يتحسس الأنوثة .. يشم ، يلامس .. وأحيانًا يخدش بلطف .. ثم يتوحد العاشقان فى لحظة أنس باذخة .

ظل يراقب المنظر .

أحس بأن النظر ذاك ، يخاطب فيه رجولته ..

أحس بالقلق وبالخجل وبالتستر ..

وعبر النافذة .. كانت هناك امرأة ترى .

كانت ترتدى السواد .. وتحدق إلى العاشقين بنظرة فيها لهفة وحسرة وتمنى ورجاء .

كانت المرأة قد نسيت العالم المحيط بها ، وتفردت بنفسها وبالعاشقين .. تتوسل فيهما شبابها وأنوثتها الطاغية وتمنى على نفسه أن يظل ساكنًا ، منزويًا فى زاوية من إطار النافذة .. وأن يجعل متعة المرأة تصل أقصى مداها ..

حتى تكون هناك متعة مشتركة ، وغير مسبوقة ، وغير منجزة بينهما .. إلا أن هناك أحساسًا باللذة والرغبة المكتومة .. هى أشبه بحبل سرى يربط بينهما ..

رغبة لايعرف دافعها ، وكيف تكونت ، وتصاعدت حرارتها .. القطة تلهث .. والمرأة فى الجانب الآخر للنافذة تلمس مفاتنها .

القط مملوء بالحماس والحركة .. وهو يحس بأن أعصابه تتوتر وضربات قلبه تزداد .

امرأة تبوح نظراتها بتوق غريب إلى المجهول ..

وهو يجد فى تلك النظرات رغبة ملحة ، تريد أن تخترق حواجز النافذة .. حتى تصل إلى هناك .

هذا المجهول الذى هناك .. رائع ..

وهذا الذى هناك .. مثل طعم الخبز الحار فى أوقات الجوع.

وهذا الذى هناك .. يترقب مثله، ويأسرهما مشهد واحد . مشهد .. هو أشبه بالحلم الجميل .. أشبه بالضحكة التى يترقبها القلب طويلاً .. حتى إذا جاءت .. كان الفرح قد تحول إلى غابة من الضحك ..

سأل نفسه : المرأة التى هناك ، هل تنشغل مثله بسعادة القطط وأفراحها المستجابة .

ودَّ ملء قلبه أن يعرف ..

ودَّ أن يُظهر لها حضوره .. وأن يقول لها .. لقد شاهدنا المشهد سوية ..

– وماذا يعنى ذلك بالنسبة إليك ؟

– وماذا يعنى ذلك بالنسبة إليها ؟

« إليكما » وحّد كلمة النداء بينهما ، وحدها فى خياله ..

قال : خيال .. مجرد خيال .

.. وانصرفت المرأة عن مدار رؤيته ، عندما انصرف العاشقان وهما يسيران بهدوء ، كمن يتأمل ذكرى جميلة ، أو منظر لا يريد أن يبارح نظراته ..

وفيما كانت المرأة آسية وحزينة .. وهى تسحب خطواتها .. كان هو الآخر يدرك تمامًا ، أنه قد ودع مشهدًا متألقًا قد لا يراه فى حياته مرة أخرى .

فى عتمة تلك الليلة ، والليالى التى اعقبتها .. كان يتسلل نحو النافذة يتوسل إليها .. يلمس زجاجها .. فيحس بالنعومة والشفافية .

سأل نفسه : شفاقية ثوب المرأة ، هى .. تلك المرأة .. هى .. ناعم بالتأكيد ..

ناعم وشفاف .. وملون ومضيء .. ومعطر وساحر .. ذاك جسد امرأة يراها ولاتراه ..

جسد يحتمي بثوب طويل وأكمام مغلقة ، جسد يراه .. يرى عريه التام وصاحبته تتحدث إلى امه ..

والمجهول الساكن في زاوية النافذة يعريه ، ويكشف اسراره .. ارتفاع هناك ، انخفاض هنا ، وادٍ هناك .. غابة هنا .

كانت جغرافية الجسد ، تأخذ منه يقظته ، فيظل مؤرقًا .

ويراها .. يتسلل إلى فراشها.. يتنسم عطر جسدها .. يحس أن المسافة بين اسلاك النافذة وقضبانها وزجاجها .. لا يقفون.. وليس بإمكان أحد أن يحول دون تسلله .. النسائم تعبر إلى هناك ..

القمر والنجوم .. تعبر إلى هناك أيضًا ..

.. والأحلام ، أحلامه المسكونة بهاجس التخفي .. لابد أن تجد سبيلها إلى هناك ..

هناك .. هناك .. هـ .. نـ .. ـا .. ك .

يستيقظ شبابه .. ويتحول الـ .. هنـ .. ـا .. ك .. إلى فردوس .

.. في الليل ، لم يعد وحيدًا .

.. في الليل .. يلتقي امرأة بدأ يعشقها ويغار عليها.

.. وفي الليل يحرسها .. ويضيء غرفتها بحدقتين ساهرتين .

وعندما يتحرر القمر من خجله في بعض الليالي ، لايجد له مستقرًا إلا جسد تلك المرأة ..

يضيء .. لأنه يضيء .. صار بمقدوره أن يغنى للمرأة ويتعطر بشذى الجسد .

يضيء .. أيتها المرأة .. قمرك ، عاشقك يضيء ..

لكنه يخدعك .. يكذب عليك .. صدقينى .. قمرك جسد معتم .. لاتصدقين قولى ..

اسألى شمس الصباح ..

ناد القمر أن يأتيك نهارًا .

أيتها المرأة .. قمرك معتم القلب .. كائن مملوء بالظلمة ..

وأنا كائن مضيء ..

لى عيون تراك أشبه بالفراشة الملونة والغابة السحرية والبحر المتسع والأفق الفسيح الأرجاء .

لى قلب يتحسس فيك اللهفة والرغبة والدعوة الملحة فى الانصهار ..

ولى عقل .. يدرك إرادتك .. ويعلم أن المرأة التى فيك تنادى وتتمنى .. وتعقل تمامًا أنها تريد .

عقل وقلب وعيون .. تترقب وتحنو كلها.. شموس من صحوة الذاكرة ، ومن قوة العاطفة ، وجاذبية النظر ... كان الكائن الذى فيه يكبر .

المرأة التى فيه .. صارت كلاً فيه .

والذى فيه من المرأة ، بات راسخًا ، وبات من الصعب الغاؤه . امرأة فى عمق رجل ..

رجل تتجذر فيه امرأة .

امرأة ورجل .. عاشقان ، تحسد عشقهما .. الغابات والنسائم وقطط شباط ..

الرحل الذى كبر فيه صار يخاطبه ويلح عليه ..

العمل والبيت والدراسة ، جميعها لم تعد بالنسبة إليه سوى حاجات يؤديها بآلية ..

أما هذا الشيء الذى فيه .. هذا الشيء الذى لم يعرف سره ولا مداه ، ولا ضغوطه .. فقد أخذ منه حصة كبيرة من التفكير ، وقسطًا وافرًا من وهج الرغبة ..

* * *

لا أجمل من حلم يراها فيه ..

ولا أعذب من لحظة يمنى نفسه فيها ..

ذاك الحلم الجميل واللحظة العذبة .. توقفا فجأة ، كأنما تجمد العالم ، وكف عن الحركة نهائيًا ... حين سمع هلاهل هى أشبه بالنحيب الذى يدب ثقيلا إلى أعماقه .. تدخل أسماعه حادة وشامتة فيه .. وساخرة منه .. تنبعث من نافذة المرأة ..

امرأة اصطفاها بكل جوانحه .. وجعل منها فضاءً متسعًا من حدائق مزهرة ..

انتابه حزن غريب لم يألفه من قبل .. هو أشبه بذاك الفرح الغريب الذى لم يألفه من قبل كذلك ..

– أيكون الحزن قد بادل الفرح الزمان والمكان ؟

خاطب نفسه ... ودون أن يحتكم إلى أوجاع قلبه وصحوة عقلة رآها .. رأى كفها تستسلم مثل حمامة جريحة إلى كف يتقدم بها خطوة وئيدة ..

وفيما كانت الأصوات تتعالى مستجيبة إلى فرح معلن ..

تقتل فيه رغبته بنشوة باتت تتلاشى ووجود راح ينطفيء ..

١٩٩١/٨/١٦

نبات متسلق

أنا وزوجتي على خلاف دائم .

هي تدعي أنه خلاف بسيط ، لايزيد عن تنفيذ طلبها بزرع نبات متسلق في حديقتنا وانا اضطر للدفاع عن حقي في عدم زرع نبات متسلق في حديقة المنزل .

ودام عدم الوفاق بيننا زمنًا .. وقررنا معًا أن نعقد جلسة مناقشة ودية أعلن فيها عن اسباب رفضي .. زرع نبات متسلق ، وتعلن هي عن أسباب تعلقها بزراعة هذا النبات المتسلق الذى صار مشكلة عائلية قامت بيننا . تركت لها الحديث ، تأكيدًا للاحترام ومعرفة أولى للأسباب .

رفضت زوجتي . قالت إنت سيد هذا المنزل فمن حقك أن نبدأ الحديث .. واعتذرت ريثما تنهي حديثها هي .. وأمام إلحاحي قالت :

هناك أنواع من النبات والاشجار المتسلقة تعطي رونقًا وبهاء ، على الجدران .. هناك ورد الروز المتسلق ، ونبات مخالب القط ، وهناك الليف .

قلت : وأزيد إلى معلوماتك ، فإن هناك أشجار العنب المتسلقة ، وورد الساعة ، والورد الجهنمي كلها أشجار ونبات متسلقة .

– ألا تراها جميلة ؟

– بالتأكيد .. هي جميلة جدًا ..

– اللّه .. وما الذى يجعلك ترفض زراعتها فى منزلنا .

ابتسمت وقلت :

أننى أفضل زراعة أشجار النخيل والبرتقال والزيتون والتوت ومختلف الورود الموسمية .

– إذن أنت تريد أن تجني ثمارها بدلاً من شرائه من السوق .

– كلا ..

– إذن ما السبب ؟

– إنني أكره النباتات المتسلقة وأخافها .

– تخافها .. وهل هناك نباتات تخيف ؟

– نعم .. مثلها مثل الآخرين .

– من .. من هم الآخرون :

– أولئك الذين يتسلقون المناصب .

ابتسمت زوجتى :

– حضرتك تربط تسلق نبات بتسلق مناصب ..

وتضحك ، مضيفة ..

– فكر أن تتسلق مثلهم .

ابتسمت حزينًا .. وأضافت :

– هاهى نباتات صغيرة تشمخ عاليا تتجاوز فى طولها وعلو مرتبتها النخيل والتوت وكل الأشجار..

– وهذا ما يجعلنى أكرهها .

– لماذا ؟

– لأنها تتكىء على غيرها .. تتكىء على الجدران ، وعلى جذوع الأشجار وتتصاعد سريعًا .

– هذه طبيعتها.

– وأنا لا أحب هذه الطبيعة سواء كانت نباتية أو بشرية .. الأمر سواء .

– لكن شجرة العنب مثلاً تتسلق ، لكنها تعطى ثمارًا حلوة .

– هذا صحيح .. ولكن لاتنسى بأن فى قدرة هذه الشجرة المتسلقة أن تحول ثمارها إلى كحول ضار بالناس . تأملتنى زوجتى مليًا وقالت :

– والورد الجهنمى ؟

– ألا ترين كيف يتنكر لخضرة اوراقه ويحولها إلى لون أحمر ثم يسقطها . . . ثم أتجدين فى حياته كلها قطرة عطر ؟

– تلك مهمة الأزهار الأخرى ..

وأكمل جوابها ..

– الأزهار العطرية غير متسلقة لأنها تصنع رحيقها بالاعتماد على نفسها .. تسكت زوجتى قليلاً :

– ولكن ما شأننا بسلوك الناس وطبيعته .

– هذا السلوك وهذه الطبيعة لاتختلف كثيرًا عن طبائع بعض البشر الذين يتسلقون المناصب وهم بلا معرفة ، وبلا مؤهلات .. وبالتالى تكون نتاجات عملهم خاطئة وهجينة وبعيدة عن التأثير فى الناس .

قالت ضجرة :

- أرأيت كيف جعلت الأمور تنحرف .

- كلا.. هي ، هي بالذات منحرفة .. وحبذا لو كان بإمكاني ابعادها عن هذا الانحراف .

- أنت فرد والنباتات والأشجار المتسلقة غابات .. ما العمل !

- إذا لم أعمل شيئًا ، فإن مهمتي ألا أكون في داخل هذه الغابة ؟

- لكنها غابة الشموخ والمجد ... !

- شموخ على من هو أكفأ مني ، ومجد على من هو أقدر وأعرف مني .. ؟

- هكذا خلق الله الناس ... ، مراتب ، مراتب .. ولو شاء ساواهم جميعًا .

- اللّه ساواهم في العيش .. لكن أولي الأمر لم يساووهم في حق الحياة .

- وأين قرأت هذا الكلام ؟

- لم اقرأه ، استنتجته .

- وماذا كانت النتيجة ؟

- أن أفكر بموقعي ، وأن أحاول بناءه لخدمة الناس .

ودارالصمت بيننا .. كانت عينا زوجتي منصرفتان نحو النبات المتسلق على جدران منزل جارنا .. وأنا أفكر بطريقة أصلح فيها جوانب الخلاف بيني وبين زوجتي .

قالت زوجتي :

- انظر... جدار الدار قديم والنبات المتسلق يمسكه .

- أنت مخطئة .. النبات ضعيف دون الجدار .. الجدار قديم ولن يقوى لفترة زمنية طويلة على إبقاء النبات المتسلق متكئًا عليه.

في الصباح وجدنا منزل الجيران منهارًا ، والنبات المتسلق ذابل الاوراق .

- قالت زوجتي ..افعل شيئًا من أجل انقاذ النبات.

- ليدافع النبات المتسلق عن نفسه .

- أنت فرح.

- وهل أنت حزينة .. !

- نعم .

- هل أنت حزينة على نبات يستطيل بالاتكاء على غيره ؟

- وهل أنت فرح لأن هذا الغير من تخلى عن مهمته ؟

- هذا الغير ينبغي أن يهدم .. وهذا المتعلق به لابد أن ينهار ..

- هذا طبعك .

- هذا طبع الحق ..

وابتسمنا معًا .

بيـــوت

أمام بيتنا ، بيت ، وخلف بيتنا يقوم بيت آخر ..

أما البيوت التى على جانبى بيتنا ، فلا شأن لنا بها ، ولا شأن لأصحابها بنا .. البيتان حسب ، كانا موضع شك .

الشك كبر واتسع ، وصار سؤالا ملحا يبحث عن إجابة فضولية . البيت الذى يواجهنا يسكنه فالح مع زوجته وابنته وابنه .. وجميعهم يمارسون شتى المهن بحثا عن طعامهم .. وما من شىء كنا نحتاجه – نحن سكنة الحى – إلا ونقصد بيت فالح لإنجازه ..

كانت لهم خبرة فى كل شىء .. من استبدال قنانى الغاز الفارغة بأخرى مملوءة ، إلى صناعة الخمر .. ومن سرقة الدجاج ، إلى بيع أدوية للجروح ..

كان بيت فالح مهما ، ومما زاد أهميته أن فالح – الأب كان مقعدا ، فيما كانت زوجته وابنته الجميلتان موضع ابناه كل أبناء الحى ، إضافة إلى الإحاطة التى يوليها بعض الرجال للصبى الوسيم .

وقد انتبه فالح إلى النظرات الملحة الموجهة إلى زوجته وابنته وابنه ، مما جعله يرتاب فى كل الناس ، ويخلق خصومة معهم ، تكون فحواها المعلنة ، غير فجواها الدفينة . المعلن والدفين معروفان للجميع ، لذلك كان أبناء الحى يتحاشون بيت فالح وأهله ، فمن الجيران أنفسهم .

وقد وجدت من يحذرني من بيت فالح .. الذى كان يقابل بيتنا .. مما زاد فضولى لاكتشاف سر هذا التحذير.

وعلى نحو آخر من هذا التحذير، نصحنى أبى بالاقتراب من سياج سطح بيتنا ، كى لا أنظر إلى تحت ، حيث يسكن جار يدعى هاشم ، لم أشاهده مرة ، رغم إلحاحى على رؤيته ، ورؤية سكنة البيت .. لكننى لم أجد سوى قطيع من الأغنام .. فعجبت . كان بيتنا ، بيتا قميئا ، مظلما ، لذلك كنت أبحث عن النور والهواء على السطح ، وهناك أركن فى زاوية ، أطالع دروسى .. ولا أنسى أن ألقى نظرة إلى بيت فالح ، فاضطرب لمرأى زوجة فالح أو ابنته بملابس رثة وجمال أخاذ .. ولم أكن أعرف سر هذا الاضطراب ، ولاتفسيرا لدهشتى وأنا أعبر بنظراتى سياج سطحنا باحثا عن تفسير لتحذير أبى من النظر إلى الأمام أو إلى الخلف .

وخلق تحذير أبى هذا رد فعل سلبى فى حياتى ، فيه شىء من التمرد والبحث عن الاكتشاف ، لذلك صار من عادتى أن أعرف كل شىء عن كل ما يحيط بى . أبى حاول أن يغمض عينى .. وحاولت أن أفتحهما على اتساعهما .

وأبى وأساتذتى قيدونى بالدراسة ، وأنا انفلت منها لا إلى اللعب وإنما لمعرفة أبعاد كل مادة دراسية .. لذلك كنت امتحن أبى وأساتذتى ، وأحس بنشوة الانتصار عليهم حين لا يعرفون الإجابة على أسئلتى ..

كذلك فشل أبى والجيران فى تحذيرى من البيت الذى أمامنا ، ومن البيت الذى خلفنا .. وبات همى أن أعرف الكثير عن فالح وهاشم .. وكبر فضولى معى ، ومع أننى كنت أكره هذه الصفة ، إلا أن حاجتى إلى اكتشاف

ما يحيط بى جعلنى شديد الانتباه ، حريص على أن أقول ما أعرف دون خشية أو تردد ..

ويدأت أكتشف سر البيوت .. بيتا .. بيتا ..

فالبيوت التى على جانبى بيتنا ، كانت بيوتا مسكونة بالصمت والكسل ، ولاشأن لها بما يجرى فى الحى .. وعلى بعد عشرة أمتار من بيتنا كان هناك مرقد له باب أخضر قيل لى بأنه قريب الصلة بجارنا هاشم ، وعلى بعد عشرين مترًا هناك مرقد آخر أكثر مهابة له باب أخضر كذلك ، يمت بقربى لهاشم .

هاشم له صلة حميمة بالمرقد ..

فأين هو هاشم هذا ؟

سألت أبى .. فحدق فى وجهى مليا .. قال : – هو شيخ وقور .. لكننى لا احسبه كذلك .

وأجبت أبى .. ذلك أنه يكشف لى ولأول مرة عن دخيلة نفسه بصدق وصراحة .

– وفالج ؟

– ليس مقعدا .. كما يتظاهر أمام الناس .

قبلت أبى .. فدهش . سألنى : – ما بك ؟ قلت : لا شىء ،ومضيت أبحث عن بقية الأسرار .

خلف الأبواب الخضر ، كان هناك سر ، مثلما تحت العشب الأخضر جذور .. الجذور تنبت وردا وأشواكا ، فلماذا لايكون خلف هذه الخضرة على

الأبواب .. لون آخر ؟

ولماذا لاتكون مهن فالح تغطية لمهن أخرى .. وسكون بيت هاشم ، صخب آخر ؟ للناس طقوس خاصة بهم ، وللبيوت أنفاس .

أنفاس بيت هاشم فيها بخور ، وروث اغنام .. فما الذى يجمع بين البخور والروث ؟ وأنفاس بيت فالح . فيَها كل شىء .. مثل دكان يبيع مختلف التوابل .

وأنفاس بيتنا تخبىء عطرًا ، مثلما تخبأ الفاكهة فى صندوق حتى تتلف .. ذلك أن أبى يعرف كل شىء ، ويخفى كل شىء .

عرفت هذا عندما حذرنى أبى من إلقاء نظرة على بيت هاشم .

سألته : لماذا ..

– لئلا يسود ، بك الأمر إلى الطمع واستغفال الناس .

ولم أفهم ما قصد إليه أبى ، لكننى تظاهرت بالفهم .

– ولماذا لا أنظر إلى بيت فالح ؟

– لئلا يسحرك الجمال .. فتبتذل نفسك من أجله .

حالتان .. هناك .. طمع وجمال .. وعلىّ أن أعثر على سرهما فى كلا البيتين . كان الطمع فى بيت هاشم يرتبط بالأغنام وعلاقتها بالمرقدين .

وعرفت ما لم أعرفه من قبل .. فقد سألنى سائل عن المرقد الذى يبعد عن بيتنا عشرين مترًا وله باب آخر .. وكان السائل يقود خروفا وامرأة . أرشدته إلى الطريق ، سرت معه .. كأننى أحاول الدخول فى جلده .. وحين وصلنا التقانا رجل له هيبة رجل وقور وخبث رجل غامض .. قبّل الرجل

يده ، وسلمه مقود الخروف ، ودخل آمنا إلى مكان مظلم .. وحاولت الدخول معه ، فمنعنى الرجل .

قال : ما شأنك .. اذهب من هنا .

وفى تلك الليلة كنت احوم حول المرقد ، أطوف حول أسواره ..

حدثت نفسى ، قلت :

ذاك هو هاشم .. الذى حذرنى أبى من وقاره .. فكل وقار مبالغ فيه وراءه شر وفتنة . شران تأخذ دون أن تعطى ، وشران تفتن كذبا .. حقيقة وصلتنى وأنا أجد الخروف يقاد إلى بيت هاشم مقابل بركة تأتى من مرقد جده .. ومن ثم مرقد جدته .. وكرهت خضرة زائفة على المراقد والبيوت والبنايات .. لذلك لم أنقل غابة الخضرة إلى سنادين بيتنا وأزيف الطبيعة التى لا تنمو معافاة إلا وهى محاطة بالشمس والهواء الطلق .

أبى على حق إذن ..

وقار الرجل ؛ سلوكه ، وسلوك هاشم لايعجب أبى .. مثلما لا يعجبنى .. وضحكت من نفسى ، ذلك أن الامر لا يتعلق بالإعجاب وإنما بهذا الجهل الذى يلعب بالجهل ، بهذا الحذق من الجهل الذى يستغل الجهل ، بهذا النفوذ المسحور بالمكرمات والنقاء والزيف مختلطا ..

وعرفت أن قبلة على يد هاشم بركة .. وأن خروفا يذبح لفقراء الناس ، يقرب الإنسان إلى الجنة .. وأن الجنة قريبة من مراقد الصالحين .

القبلة والخروف والجنة وهاشم .. كلها مجتمعة صارت مثار سؤال ملح فى داخلى .. وزرع شكلاً أصيلا داخل عقلى يقول بأن هاشم .. يعمل فى تجارة رابحة اسمها الجهل !

وإن بضاعة الجهل لا تخفى ولا تختلف ولا تتناقض مع بيت فالح .. فالرجل يتعامل بالفقر علنا ، ويستثمر الجمال فى آخر الليل هنا أو هناك .. ويتظاهر بأنه مقعد ومريض ومأخوذ بنوم ثقيل ..

المراقد تستثمر ، والجمال يستثمر ، والفقر يستثمر .. وأنا لست الشاهد الوحيد على أنفاس البيوت .. التى تثرى سريعًا ، وأبى لا يمارس معى سوى دعوته إلى أن أكون حذرًا ..

حذر ، حذر ، لا أمد بصرى إلى أمام وإلى الخلف .. أمشى باستقامة ، وأمامى وخلفى أشياء لا استقامة لها .. فكيف أنفذ حذره واستجيب لندائه ؟

فى الأيام التالية .. لم أكن حذرًا .. كنت نابها الانتباه ضرورة ..

فأنا إنسان لايريد أن يرقد مسكونا بالحذر .. وأبى الحذر .. نابه إلى أقصى حد لكنه يسكت عن عفن فى بيت فالح ، ولعنة فى بيت هاشم .. وكسل ميت فى البيوت الأخرى .

بيت أمامنا تفوح منه النتانة .. فهل أسكت ؟

بيت خلفنا يضج بالسرقة والرهبة الكاذبة .. فهل أسكت ؟

بيوت خاملة .. ألا أيقظها .. ؟

أبى .. إذا كنت كسولاً إلى هذا الحد .. فدعنى فى يقظتى .. دعنى أرى وأمسك بيدى جدار بيت نظيف ، قمىء ، معتم .. ودعنى أضئ مساحاته بالشمس .

دمـــاء الحمـــامة

فى كل مرة كان يدق فيها جرس الهاتف تحس بالضجر ، وترى أن الذين يتحدثون هاتفيا . لهم وقت فائض . يضيعونه أحاديث طويلة مملة لذلك كانت ترفض رفع سماعةالهاتف وتتركه يدق حين تكون وحيدة وترتاح حين تجد إخوتها الصغار يجيبون على النداءات ، وحين يطلبها أحد - وتلك حالات نادرة - يعرف الاخوة جوابها مقدمًا لذلك يعتذرون عن عدم وجودها دون أن يسألوا عن اسم طالبيها .

لم يكن الهاتف وحده مصدر إزعاجها ، بل أن نداء باب الدار . يشكل مصدر ضجر آخر نحوها .

وصارت تكره والدها ، حين ينادى شقيقها فجرًا لكى يبلغه بموعد صلاة الفجر فتستيقظ ويستيقظ على صياحه الجيران .

وتمثلت نفسها .. مشروعا ، استطاع والدها أن يخضعه لحساباته . وصولا إلى نتائج مريحة . وكان له ما أراد .

بادل إنسانيتها ، بشهادة مهندس تحول إلى مقاول من الدرجة الأولى .. وحين اكتنزت دفاتر المهندس بالأرقام المالية حولها إلى رقم هامشى ، وفى حين كانت كل الأرقام فى حياته تنمو وتكبر وتتضاعف كان رقمها ممحوا من ذاكرته .

كانت مهملة ، مثل قشة ، مثل سلعة مهملة فى زاوية الغرفة .. مثل حاملة ملابس تركت .. فتراكم الغبار فوقها .

لاشيء يشغله بها ، ذلك أن مشاغله مع أرقامه . ونجاحاته المتكررة وسهراته وعلاقاته وهواتفه التى كانت تتوزع كل غرف الدار .. تجعل منها كائنا لا وجود له فى حياة الرجل .

كانت منسية ، وكان همها يتعفن .. وكانت روحها تختنق ..

كانت تجف ، كشجرة ظمأى إلى الحياة .. محاصرة بالعطش والعتمة .

حدثت والدها بأمر زوجها .. قال :

– الرجل يبنى مستقبله ومستقبل أولادكما .

– لكننى لم أعد أعرفه ، صار زائرا ، ضيفا فى بيته ، لم أعد أراه ..

– تلك مشاغل العمل .

– وهل ينسى العمل .. صاحبه ، الزوجة والأبناء ؟

– ينسيه نفسه كذلك .

كانت تحس أن الحديث مع أبيها ، لا يضيف إليها سوى قتامة الزمن .

وظلت تشد نفسها إلى تذكر وجه زوجها ، إلا أنها كانت تحس بالعجز ، ذلك أن شكله بات غريبا ، صورته منسية .. وفى كل مرة كانت تسعى فيها لاستعادة ملامحه .. كانت تفشل .

صار الوجه ضبابيا ، ثم أزيل عن عينيها وذاكرتها .

.. لأبيها تحدثت بشأنه – وكعادته – كانت المعادلة الرابعة هى الحل بالنسبة إليه .. قال :

– حاولى أن تجعليه هو صاحب القرار فى انفصالكما . لضمان حقوقك .

كانت الحقوق بالنسبة إليها كلها ، تختلف تمامًا عما هى عند الرجلين .. فمادامت قد افتقدت انسانية زوجها . فليس هناك من بديل .

. ومادامت قد أضاعت طفولتها وشبابها عند أب هرم يجمع المال .. فليس لها إلا أن تتخذ القرار بنفسها .

صارحته ، صارحت زوجها فى وقت قلق .. ظهر فى نظراته المتكررة إلى ساعته الذهبية ...

أجابها بإيجاز :

– قررى ماشئت .. وسأنفذ طلبك فورًا .

وانفصلا .. قام جدار مرتفع وسميك بينهما ..

وفى مسكن والدها . كانت هناك آلة تعمل بصمت أطلق عليها اسم الوالدة ، ورب عمل صارم أطلق عليه والدها ..

وبين الأم والأب ، كان الأبناء ينشأون فى بطر وعوز ، فى فشل دراسى وتفجر شبابى .. فى المنة والصرامة ، فى الجشع والبخل .

وكانت هى الآلة الاحتياط ، تعمل بصمت وتدارى حزنها بالكتمان .

لم يكن يشغلها شىء .. سوى حمامة ، حمامة بيضاء وحيدة كانت تغادر قفصها بعد أن يطلق سراحها ابن الجيران ، فتحوم حول الدار عدة دورات . ثم تعود إلى قفصها ، راغبة فيه . مقبلة عليه بارتياح .

ظلت تراقب تلك الحمامة كل صباح .. وتمنى نفسها .. بأن تكون حمامة في يوم ما .. تتحول إلى مثل هذا الكائن الأبيض كما فى الحكايات التى سمعت بها وقرأت بعضها .

إلا أن أياما وشهورا مرت لم تتحول إلى الحمامة .. كما أن الحمامة البيضاء نفسها كانت قد اختفت ذات صباح والصباحات اللاحقة .

وحين سألت عن تلك الحمامة النادرة . قيل لها أن قطة ، استطاعت أن تتسلل إلى القفص وتترك فى المكان آثار ريش الحمامة ، ويضع قطرات من الدم .

.. وتجمع حزنها ، فى أب منشغل عنها بجمع المال ، وأم آلية ، وأخوة كسالى لا يعرف أحدهم ماذا يريد ولاتعرف هى نفسهاماذا تريد ، ولا .. ماذا يريدون ؟

كل شيء غاب عن ذاكرتها .. إلا بياض تلك الحمامة .

حمامة . حمامة . حمامة بيضاء ، مثل نزيف الشجرة حين يقطع غصنها ، حمامة أنت ، وبيضاء أنت ، حمامة بيضاء .

تذكرت كلماته ، حرفا ، حرفا، جزئى الحرف والنقطة والفارزة . تذكرت وجهه .. فاشتعل فيها فرح غريب .. فرح لم تعهده منذ سنوات طويلة ، فإذا به ينبت فى حمامة محلقة فى سماء رحبة . وفى حمامة قتيلة . بقاياها قطرات دم وريش مبعثر .

حضر وجه ذلك البعيد الذى كانت تعرف دقات أصابعه على الباب . تعرف وقع خطواته . وتتفقد صوته من بين كل الأصوات .

حضر فى صورة حمام أبيض ، يحوم حول حمامة بيضاء قتيلة محاصرة بالجدران والرماد .. وجمع من قطط وحشية تنشب مخالبها فى قطرات دم .. وريش أبيض راحت تبدده الريح .

- الوجه البعيد .. اقترب من وجهها .. طبع قبلة على عينيها ، ولامس شعرها وضغط على أصابع يديها ، ثم رحل .

كانت نظراته أجمل وأعمق وأنبل وأسمى وأعذب . ما فيه .

وكانت كلماته بيدر حنطة . ومواسم مهرجانات . ومجمع حكمة .

فيه شيء غريب أكبر من عمره . وفى عينيه بئر محبة مختفية ترفض أن تبوح . فيه شيء من حكمة الشيخوخة وتجاربها . مثلما فيه شيء من يقظة الشباب وحماسه وحدته وثقته برأيه .

.. وظلت تنتظر عودته .

وعودته لم تعد .. فارتحلت بحياة زوجية قاتمة ، وعجلت إلى مكانها تنتظر عودة غائب لم يترك لها سوى نظراته وقبلاته البعيدة .. القريبة فى عمق عينيها .

لم يعدها بشيء .. قال لها ..

حمامة أنت وبيضاء أنت .. حمامة بيضاء .

حاولت أن تترجم كلماته .. ووصلت إلى قناعة أكيدة . كونه كان يناشد نقاءها ..

وأحست أنه حاضر الآن مثلما كان فى طفولتها . يتحدث إلى أبيها وأمها .

ويعمق رسالته إليها بصمت وكان يفضح حبه إليها .. صوته ونظرته .. ونداءات الهاتفية التى راحت تتباعد ثم اختفت .. وصار مجهولا إلا من هاتف داخلى كان يناديها ويتوسل إليها فرحه بها . وانتظارها له وحين انطفا بياض الحمامة . وجف دمها ، وعبثت الريح بريشها .

قتلت انتظارها، وأسدلت ستارة وعد لن يجيء وابتسامة شاحبة ستطل بعيدة عن منى قلبها .

رن جرس الهاتف ..

– آلو ..

– مرة أخرى .. لا جواب . قال الأخ .

رن جرس الهاتف .. خامسة ...

– آلو .. آلو ..

– لا أحد يجيب .. قالت الأم .

– اتركوه يرن . أو ارفعوا السماعة ، خطوط الهاتف فى الأيام الممطرة تتشابك .

قال الأب .

وتنبهت لأول مرة إلى هاجس داخلى يشدها إلى الهاتف فأعادت سماعه الهاتف إلى مكانها .

دق جرس الهاتف رفع الوالد السماعة .

آلو .. من .. حازم .. حازم .. من أين تتحدث إلينا . من بغداد .. نحن بخير ، كلنا بخير ، كاميليا .. حمامتك البيضاء بخير هي وأمها والأولاد ويسلمون عليك الجو جميل في الموصل .. الغابات . تعال نريد أن نراك .. وضعي الصحي لايبشر بخير . سازورك عندما تجيء إلى بغداد . عنوانك . م .. مع السلامة .

ونادى الأب على كاميليا . وحين التفت وجدها إلى جانبه تسجل عنوان حازم ورقم هاتفه بأصابع دامية .

– أصابعك تقطر دما يا كاميليا . ما هذا . كيف تكتبين . بماذا جرحت .

فتحت يدها اليسرى . كان أحد أصابعها ينزف بغزارة . ولم تكن لتحس إلاحين تنبه إليها والدها .

– لا شيء . لاشيء يا أبي . كنت أقطع اللحم . فقطعت أصبعي وأسرع الأب بحنان لم تألفه يعتني بجرحها ويتألم له .

سألها . أتعلمين من كان يطلبنا ؟

– صديقك حازم .

وأرادت أن تقول له : لماذا لم يطلبني لأتحدث معه ؟ غير أنها فضلت أن تظل صامتة .

وعادت تسأل والدها :

– هل سيأتي إلى الموصل .

– عجيب أمر حازم هذا . يسألني عن غابات الموصل وما درى أنها ظمأى . وسألني عنك وكعادته ناداك باسم الحمامة .

– وهل قلت له أن الحمامة قد كبرت . وانفصلت عن زوجها. وأنها الآن حمامة ينزف دمها .

– لم أقل كل هذا .. هل يعنيك أن يعرف كل شيء .

– لا .. وأنما .. متى سيجيء ؟

– لا أعرف .

ودخلت غرفتها . كانت مثل ليمونة خضراء .. خضراء قطعت قبل أن تنضج .. فجفت .. وكانت مثل حمامة بيضاء قطعت أوصالها وتناثر ريشها وقطرات دمها .. تجف .

كانت تمتلىء باسمه . بصوته . بحركته . بأنفاسه .

كان هواء الغرفة منتشيا . مزهوا به .

كانت الحمامة تجمع ريشها . وقطرات دمها وعظامها تستعيد الطيران وتحلق في سماء زرقاء رحبة ..

كل الأشياء تتحرك

– ١ –

قالت أمى : لاتخرج هذا الصباح .

قال أبى : المدرسة مقفلة أبوابها .

قلت : وأنت ؟

قال : ليس هناك عمل .

قلت : من أين نأكل رغيفنا؟

ظل أبى صامتا ، تحسرت أمى .. وجرحنى سكوتى .

كانت صورة لشمس وشجرة وسماء .. معلقة فى الغرفة ، حدقت فى الصورة ، اختلست نظرة سريعة ، فوجدت أبى وأمى يحدقان معا فى تلك الصورة ..

حينئذ ابتسمت .. قلت فى أعماقى : لقد صرنا ثلاثة ..

– ٢ –

الليلة هادئة ، ليس فيها ما يثير القلق ، لكن الرجل المعطر لم ينم تلك الليلة ، وبالرغم من انسحاب الساعات الأولى من الليلة الهادئة فى ضحكات عالية .. كان حزينا وكان الأرق يلاحقه .

وضجر من عطره . أحس بأنه لا حاجة له بالعطر . حاجته الآن ماسة إلى النوم ، النوم بهدوء ..

تناول قرصا من الفاليوم، وأعقبه بآخر .. والليلة هادئة .. لكن الهدوء كان يخيفه .. كل شيء آمن .. ومع ذلك ابتعد الهدوء الجميل عن عينيه ورأسه وأحاسيسه .. وانتابه الغضب فجأة .. فقد كانت زهرة عباد الشمس تنام بسلام فى تلك الساعات من الليل .. ضغط على الجرس .. وأمر بذبح الزهرة .

ذهب الحارس وعجل بقطع عنق الزهرة ..

وأطل الرجل المعطر من النافذة الواسعة .. وشاهد غابة من أزهار عباد الشمس تنام .

وفكر .. أزهار عباد الشمس تنام وتستيقظ فى الصباح .. لن أجعلها تستيقظ بعد الآن ..

اصطف الحراس وجعلوا مهمتهم ذبح الأزهار ..

وبينما كانت العملية تجرى بخشونة وقسوة ، انتاب الرجل المعطر نوع من عدم الارتياح واكتسب رائحة كريهة .. واحتار الجميع .. ما الذى يفعلونه من أجل إشاعة العطر فى جسد الرجل .. ؟

حينئذ .. استقيظت الأزهار ، وطلعت الشمس .. وتفجرت فى الأشجار براعم أزهار جديدة وراحت تلتفت باتجاه الشمس .

– ٣ –

تلك الدمية وحيدة ، لا صاحب لها .

ركض إليها طفل فى السادسة من عمره .. كان يحلم بالحصول على دمية ، وها هو قد وجدها أمامه ، أسرع إليها ..

– لا ، لا تركض يانزار .. قالت أمه .

– ليست لأحد .. لقد تركوها .. قال الطفل .

– ولكن كل شيء له صاحب .. أجابت الأم .

– إذن لماذا لم يأخذوها معهم .. ؟ أجاب الطفل متسائلا دمعة مرة كانت طعمها في فم الأم .. وكانت الدمية تلوح مدماة .. والطفل يريد أن يلعب بها ، أن يحدث رفاقه عنها ، أن يشاركهم فى اللعب بها ..

واقترب منها .. صار جزءا منها .. صار مجبولا بدمها .. كان نزف الرصاصة التى انطلقت تشيع مأتما وتترك للبراءة حلما لأم حامل تجيء بالرجال ..

– ٤ –

فى ذلك الصباح لم يغن البلبل .

وفى الأيام التالية سكتت العصافير جميعا .

وعجب البستانى لذلك ، وتساءل :

– ماذا جرى ؟

قالت الحمامة : أجنحتى ملوثة بالدم .

وقال العصفور : ومنقارى مكسور .

وقال البلبل : وحنجرتى مقطوعة الأوتار .

قال البستانى : إذن من سيغنى لأنسام الصباح ؟

هتفوا جميعا : لن نغنى بعد الآن .. إلا أغنية الحرب .

قال البستانى : أغنية الحرب ؟

– نعم .

– أنتم صغار !

– سنكبر .

– وبعضكم لا يعرف أغانى الحرب !

– سنتعلمها جميعا .

– من يعلمكم .. ؟

– تجاربنا .

سكت البستانى وفى صميمه قال : لقد عرفت الطيور المهاجرة طريقها إلى الوطن ..

وارتفع صوته : سأكون معكم ..

– ٥ –

كانت الرياح قوية .. حملت معها الغبار والاوراق .

وفى الخفاء كانت الكلمات تتسلل فى الفتحات الصغيرة للأبواب .. وسريعا تلصق على الجدران ، كانت الكلمات تقول .. تقول .. تقول .

لكن الرياح القوية كانت تطوف بها ، وتدخل بلا استئذان إلى كل مكان .. وكان كل مكان يشتعل بالحركة وينفذ القول .. ويخطو . .

الغرفــة

للغرفة بـاب واحد وشباك واحد .

للغرفة لون وردى وسجادة متواضعة ومدفأة نفطية ومذياع وجهاز تسجيل ومكتبة تضم عددا من الكتب التى تعتز بها .. كتب قرات بعضها ، وتنتظر فرصة لقراءة البعض الاخر .

للغرفة سرير أبيض يوحى بالنقاء . وشرشف مطرز . ومصباح قريب إلى الوسادة .. ودولاب وحقيبة لاحتواء الملابس .

للغرفة كرسى ومنضدة تستخدمها للكتابة وللطعام كذلك وللغرفة قبل ذلك أنفاس خاصة تملأ بها المساحة المربعة .. الغرفة الوردية المربعة .. كانت بالنسبة إليها عالمها الخاص .. تستطيع أن تفعل فيها ماتشاء . أن تقرأ أو تكتب أو تتأمل أو تصغى ، أو أن تلقى بملابسها بعيدا لتبقى صريحة أمام جسدها . الغرفة مكان خاص للحرية . وقد حققت استقلالها الحر فى هذه الغرفة بجهود كبيرة والحاح ومتابعة وحرص ..

فى الغرفة هى الآن حرة .. تستطيع أن تضحك وأن تبكى .. أن تسهر وتفكر ، أن تختار الضوء أو الظلمة .. أن تنام وأن تحلم ..

غير أنها ولأول مرة تكتشف بأنها.. حياة قاسية مرة .. حياة تثقل عليها تلك الوحدة والعزلة التى اختارتها بنفسها .

حياة آنسة شقيت طويلا حتى تحصل على شهادة جامعية ، وتأخذ استقلالها الاقتصادى بل أن تمن على أسرتها بقسط من راتبها الشهرى .

ولأول مرة نبهها ذلك الرجل الذى عرفته قبل أسابيع ، بالموقف الحائر الذى يعيشه الإنسان وهو فى حالة انفراد .

الرجل .. جعلها تحدق فى باب الغرفة . الباب لايتسع إلا لدخول إنسان واحد . الشباك محاط بالقضبان ، وخارج القضبان تتسع الرؤية للسماء والشمس والأشجار والأطفال . اللون الوردى .. بدا مملاً . بياض السرير بدأ يذكرها بأسرة المرضى فى المشافى ، والمصباح يبعث ضوءًا حزينًا مصفرًا .

الباب والشباك واللون الوردى والسرير الأبيض والمصباح و .. كلها تأخذ قسطا من حرية أنفاسها .. تذيب تلك الأنفاس .

ما الذى فعله هذا الغريب فى حريتها ، فى عالم السعادة التى كانت تحرص عليه فى غرفتها .. ولماذا حدثته بخصوصيتها .. ؟

الرجل . الذى جعلها تنتبه إلى نفسها .. لم يعد غريبا بالنسبة إليها .

الرجل الغريب سكن قلبها فى أول لقاء بينهما .. أفكارها شغلت به .. وصارت أنفاسه تملأ الغرفة .. صار يضىء الغرفة ، ويطفىء المصباح وينام فى سريرها . ويتنفس معها رائحة المطر فى الخارج . ويلمس الدفء من خلالها .. يقرأ معها الكتاب .. ويكون بينها وبين الحروف .. يكون فى فنجان القهوة ، ويلمس شعرها ويدخل ثيابها وينام فى عينيها ..

يبدأ المساء معه .. يبدأ الصباح معه .. يبدأ كل شىء حين يكون ودائما يكون منذ عرفته لأول مرة .. حتى صار وشما، ولم يعد يغيب عن عالمها .

الرجل الغريب .. فتح ذاكرتها .. حيّاها ، استأذنها ودخل حين استقبل بابتسامة . وصار معلوما وبات يعرف دقائق حياتها كما تعرف هذا الرجل المعلوم .. حدثها بالأمس .. بما شاهد وما أحست .. فشاهدت معه وأحست بما كان يحسه .

قال : يوم الجمعة ثقيل بالنسبة إلىّ ..

وقاطعته :

– وبالنسبة لى كذلك ..

كانت تريد أن يسألها لماذا ؟ وكانت مستعدة للإجابة الصريحة والجريئة .

– لأننى لاأراك فيه ..

– إلا أنه أبعد عنها خجل الإجابة وابتسم لها .. وأضاف يقول :

– كنت حائرا يوم أمس .. لم أجد فيلما جيدا لأشاهده ، ولم أكن راغبا فى المطالعة .. قلت .. لأتسلى بالمشى .. وقادتنى قدماى إلى حديقة الحيوانات اقتطعت بطاقة ودخلت .

تأملت الأسد الذى كان منظره فحسب يرعبنا .. فإذا به يجلس ذليلا ، يحدق فى الوجوه معاتبا ، ولايبالى للصبية الذين يرمون إليه بقايا طعام .. كان يعاف فضلاتهم ، يمقتهم .. يحتقر وجوها تسخر منه ومن أمجاده .. بالبطاقة ، صار لها الحق أن تحول وجوده إلى مجرد تسلية ، إلى منظر مهمل فى غرفة لها باب واحد وشباك واحد ..

الأسد محاصر بالوحدة .. ومملكته التى كان سيد النفوذ فيها قد تحولت إلى وهم ، بات يراها عبر النافذة .. يرى الأشجار والسماء

والشمس .. دون أن يحس بها .. فقد كانت خارج دائرته .. خارج المربع الذى يشغله فى تلك الغرفة .

الأسد حزين .. حزين .. فى غرفة لا أهمية لطلائها .. لا أهمية للأمان المسكون فيها.. الأسد سخر من قوته ، ومن جمال الطبيعة التى يراها عبر النافذة .

سألته : وهل تعتقد بأننى أعيش الحزن فى غرفتى كالأسد ؟

لم يجب . لم يكن يريد لها أن تحزن .. وحين لا يجيب .. كانت تعرف جيدًا بأن دمعة حائرة تتعلق فى أهدابه ..

وعادت تسأله : لماذا تتحدث عن الأسد .. لماذا لم تشاهد سواه ؟

– بل شاهدت وهم القردة التى تنتقل من سلسلة إلى أخرى .. موحية لنفسها بأنها تنتقل من شجرة موز إلى شجرة جوز الهند .. واستسلمت للصفة التى أطلقها عليها الإنسان وقال أنها مخلوقات ذكية .

– هل تشك فى ذكائها ؟

– كل الشك .. فلو كانت ذكية لما استسلمت للوهم .. للسجن الذى وضعت فيه لانفلتت من الأسر .. لأضربت عن الطعام وماتت .

– وكيف تفضل الموت على الحياة .. أنها تأكل وتشرب وتنام فى أمان !

– هذا لا يكفى .. الفئران ، البغال ، الخراف .. كلها تأكل وتشرب وتنام فى أمان لكنها قردة ويقال إن الإنسان تسلل ليطورها.. دارون أكد أنها أصلنا .. ومادام أصلنا قد اختار حياة الفئران والبغال والخراف فالموت أفضل . لاشىء أفضل من الموت حين لاتكون الحياة مقترنة إلا بالعبودية والذل . ابتسمت وكانت تدارى حيرتها قالت :

– هل شاهدت النمر ؟

– شاهدته .. كان يتباهى بجلده ونشاطه .. يسير في امتداد الغرفة .. ولا يمل الذهاب والإياب .. كان يمتحن شجاعته .. إلا أنها كانت شجاعة استعراضية .. يسخر منها الأطفال الذين كانوا يرمونه بالكرزات .

– والطاووس ؟

– شاهدته كذلك .. لم يكن هناك طائر أو حيوان في الحديقة لم اشاهده .. واحدد معالم بؤسه .. وبالنسبة للطاووس .. كانت ألوان ريشه ، وبهاء منظره لا تعطى دليلا على أن حياته من الداخل ملونة .. لذلك أحسست بأنه قد يئس من شكله ، والتم على نفسه .. واستسلم للسكون أو لحركة بطيئة ..

ومضى الرجل المعلوم يقول :

– أنت في غرفتك الوردية وحيدة .

– وأنت في غرفة لم تصفها لي وحيداً .

قال غرفنا لا تفرق كثيراً عن الغرف التي يعيش في داخلها : الأسد والنمر والقرد والطاووس .. الكل فقد خصائصه الفردية .. وبتنا أنا وأنت ننقل مناظر الطبيعة وتعلقها في غرفنا .. ونزرع نباتات الظل حتى نتواصل مع الحياة .

– وماذا نفعل بغرفنا .. ؟

ابتسم ..

– لا شيء .. لاشيء .. سوى أن نعرف أن غرفنا لم تعد تتسع لنا .. وهذا ما يفرقنا عن تلك المخلوقات التي تسكن في غرفها بحديقة الحيوان .

– وما دمنا قد عرفنا .. وأدركنا أن الغرف لم تعد تتسع لوجودنا .. فماذا تكون النتيجة ؟

– أن نفكر خارج جدران الغرف .. وأن نفكر معا .

وسار فى مساء جميل .. كان القمر منيرًا .. ولطلعته بهاء ونقاء .. امسك بيدها .. يدها صغيرة تنام فى كفه .. وحين توقفا عند شجرة سنديان كبيرة .. حدق فى وجهيهما وجه ارتسمت عليه معالم الغضب .. وسألهما عن هوية كل منهما .

– لماذا .. ؟

– لا تناقش .

– ما علاقتك بها .. ؟

– أ .. أختى .

– الأخ لايمشى مع أخته ليلا .

– ولكنه أخى .. قالت الآنسة .

– أنتما كاذبان .. نحن فى مدينة الصدق ولانحب أن يكذب أحد فى بلادنا العزيزة ..

وقادهما إلى السجن . الآنسة فى غرفة خاصة بها .. والسيد فى غرفة خاصة به .. من غرف السجن أطلقت نشيدا .. قالت :

« حينما اخترت الغابة لأتعلم كيف تتكون ورقة بعد ورقة مضيت بدروسى ، وتعلمت أن أكون جذرا ، طينا عميقا .. تربة صامتة ، ليلا مرتحلا

وبعد ذلك .. وشيئا فشيئا .. صرت الغابة كلها.. تذكرت نشيد نيرودا هذا ، وظلت ترردده .. وكتبته سرًا وأرسلت به إلى غرفة الرجل المعلوم .. بعد أن دست ورقة نقدية في يد رجل معين .. تسلم الرجل المعلوم كلمات نيرودا .. وأسعدته .. أحس بأن جدران الغرفة تبتعد .. وبأن الآنسة التى أحبها وأحبته ، لاتحب جدران غرفتها .. كما لا يحب جدران غرفته .

وأدرك جيدًا .. بأنهما يفكران معا .. يفكران خارج الغرف .. وغنى لها قصيدة لمحمود درويش .. تقول كلماتها :

« لنسمى كل عصفور بلد

ونسمى كل أرض خارج الجرح زبد » .

قرأت كلمات الأغنية – القصيدة .

قالت : لنفكر معا .. لنفكر خارج الغرف ..

يعرفـــون

سواء فتح البـاب أو بقى مغلقـا .. لا شيء يهم . فهى غـائبة .. وسيطول بحثه عنها . فى ذاكرته بقيت صورتها . أراد أن يحتفظ بذاكرة الصور . فالصور التى لا ذاكرة لها تموت مثل قشة فى مهب الريح .

جلس فوق كرسى حديدى ، الطاولة التى أمامه واسعة . لكنه أحس بها تضيق عليه . وتحبس أقدامه ..

النافذة الجانبية . تطل من خلال زجاجها نخلة عالية .

نهض وحدق فى الشجرة .. كانت عناقيد من الرطب قد جفت .

وأحس بأنه جاف تمامًا . حياته مثل ثمار النخلة .

ولمرات حاول أن يفتش عن ملامحها فى رأسه ، لكنها كانت تنفلت سريعـا .. تمر كومضة وتنطفىء .. ويسكنه ظلام هواجسه .

طوال ذلك النهار بقى شارد الفكر . يشكو ضيق أنفاسه وقلقه وضجره من عالم ضاقت كل الأرجاء فيه .

وتساءل لماذا فعلت ذلك ؟

نقلت إلى دائرة أخرى . إلى أين ؟ لا يعرف ولا يستطيع أن يسأل .

وخاف أن يتذكر ابتسامتهما وثوبها وأصابعها .. سيقولون يعرفها . ستقول أنه أذاع سر حبهما .. والقول سيمتد ، والحزن . حزنها مع حزنه .. أن يقول الناس .. يحبها وتحبه . وحبهما مثل أشجار الزينة تتطاول فى الافق . وتغوص فى التربة ، وتظلل لطريق .. لكنها لا تثمر .

– هل يجب أن تثمر كل الاشجار ؟ أشجار السرو جميلة . وهى جميلة .

طائر الحجل تراه فى صورة ملونة ويطير عاليا عندما تمر سيارة عابرة .. وهو رائع فى عينيها دون قفص .

وتذكر أعجابها بالحجل . قالت له مرة :

– أنت مثل طائر الحجل . تسكت حين ترتبط ، ، حين يكون حبنا موثقا . غائبة هى الآن .. وسواء فتح الباب أو بقى مغلقا . فهى ليست هناك . فليبق أنين الباب بعض بقايا لهفته إليها .. ففى صوت فتحه ؟ أو غلقه حسرة . وتوجع وانتظار .

ويدور النهار ، وكل زمانه يباب . وقبض ريح .

دق جرس الهاتف ، رفع السماعة .

– نعم ..

صوت ناعم . مثل أناملها .. كل الحناجر تغنى الآن ، وتفتح النهار مورقا .

– نعم .. لست أنت .. من تطلبين ؟

– أطلب ..

– لكننى لست من تطلبين . ولست من أطلب .

- وتمادى الصوت الناعم . كان يموء كالقطط النظيفة والأليفة .

- هل أنت فارغ ومستعد للحوار ؟

- من تطلبين ؟

- أطلبك . أنت .

- هل تعرفينني ؟

- يخيل إليّ أنني أعرفك .

ووجد في نعومة صوتها بعض السلوى وعرف أنها جامعية . وجميلة ويلذ لها أن تداري فراغها بحوار مع رجال لا تعرفهم .

وتركته بسلام .. فعلت ذلك في اليوم الثاني والثالث ..

وسأل نفسه : هل هي البديل ؟ القميص والحذاء وربطة العنق .. قابلة للتبديل .. الفيلم والصحيفة والشارع يمكن أن نجد لها جميعا .. أكثر من عوض .

هي .. الوحيدة دون سائر الأشياء غير قابلة للتعويض ..

فهل هي الصدفة ، أن تكلمه جامعية وتبدي إعجابها بحديثه وتعرض عليه جمالها .. عندما تكون هي غائبة ، هل يخون غيابها .. ويلغيها من ذاكرته .. لكأنه ارتكب فعلاً أثمًا ، لكأنه اغتال كل عصافير الدنيا التي غنت في قلبه وحصدها جميعا ، وصار العالم ينتحب . لكأنه أقام جدارا أمام الشمس لكنه أوقف مجرى دجلة عن انسياب العالم .

وأقفل سماعة الهاتف في المرة الرابعة وأسكن صوت الفضول والفراغ ، وقال للأشياء امتدي .. وليكن حزن أكبر .. أكبر .

اليوم الخامس مر .. السادس . السابع .

مرة هى حياة الانتظار فى صدرها كان الانتظار مرًا .. وتعرف أنه سيعانى . سيفجع بغيابها . سيكون جلفا فى حديثه مع الآخرين . ستكون سحنته قاسية . وعيونه ذابلة والظلام حوله دائرة واسعة . تساءلت . هل سأل عنها . وعرف مكانها وسكت ؟

لو سأل .. لعرفوا أذن .

أو سكت .. لقاتله الحزن وصدأت ابتسامته .

وتذكرت آخر صباح .. كان صباحا أحرقت فيه الشمس بعد صباحات تكاثفت غيومها وأمطارها .

كان يحب المطر . كانت هى أمطاره تسقيه ضحكة وأغنية .. فيشرق وجهه ويحلق فى أعال ويتنفس هواء الدنيا منتشيا .

حدقت فى الهاتف أمامها ، كان وجهه فوق الهاتف يلهث بها أن تستجيب له .

واتسعت صورته الأخيرة ..

كانت تجلس خلفه فى الحافلة . يراها وتراه .. مرآة السائق تجمع ابتسامتهما وكل الركاب يحدقون فى هذا اللقاء على سطح المرآة .. المرآة صارت حديقة ومقعدا لونه الصفار بالطين ، المرآة صارت ضوءًا خافتا وحديثا ناعما وهمسا وحوارا لا ينقطع .

تنظر أصابعها بدلا عنه ، تعجب بأناقة أصابعها .. لأصابعها طعم الحلوى الشهية . ولصباغ أظافرها شعاع خاص .. يقول لها .

وتتنفس وراءه ، أنفاسها خلفه قادمة من مكان بعيد تحمل إليه دفء ومسرة . ونشوة لا يعرف مداها .. يقول أيضًا . ويحزنها تذكرها .. تقول :

– لمن ألبس الثوب الأسود وأقطف وردة حمراء أطرزه بها .. لمن ؟

لأيام أبعدت الثوب عن أنظارها – ولأيام أخرى راحت ترقبه وتعتز به .

وأحزنها أن تحب ثوبا بلون أسود .

وخافت حزنها . ربما .. ربما سيعم حزن وتبقى بثوب أسود دون وردة حمراء .. أحلامها فى الليلة الداكنة كانت ثقيلة تنوء بحملها.

وقررت صباحا أن تسكت إلحاحها فى الاتصال به ومخاطبته .

لن تغفل . فقد انتقلت إلى دائرة أخرى فجأة .. دون أن تقول له شيئا من قبل .. ولا من بعد .

لكنها .. عندما غسلت وجهها ، وانتقلت إلى أثوابها .. كان ثوبه المفضل يلاحقها .. وحاولت أن تبعده ، لكنه كان يلح عليها .. كأنما تراه هو لا الثوب ، كأنما عيونهما تلتقيان عند لقاء غير منتظر وكان بينهما موعد ، موعد حفل سعيد وموسيقى لاتهدأ .. كأنما يحدثها دون كل أثوابها الخرساء .

خرساء كل فساتينها وكل ألوانها .. ثوبها الأسود وردتها الحمراء كانا يحاورانها .

وارتدته ، استجابت له ، أحست بنفسها قريبة منه ، هو ذاته إلى جانبها .

وابتسمت ، تحبه ، تحبه فعلا ، أذن لماذا ابتعدت وأقفلت أبواب قلبها دونه وقالت للرياح اعصفى ؟

وظل الهاتف أمامها فى الدائرة ، شاحب وحزين ، أدارت القرص ، ثم القت السماعة ، عادت فأدارت القرص ، وأصغت إلى صوته :

– نعم .. أنت !

وتلهف إليها . كانت الدنيا تستقبله بعطف ، وكان بحاجة إليها وإلى كل كلماتها وضحكاتها الناعمة . ولمسات أصابعها .

وأصغى إليها . صار كله آذان يستقبل نداءها .. وتفتحت من بين أصابعه حدائق . وطارت فراشات فرح .

واتفقا على موعد . كل المواعيد قائمة ، وكل الأوقات ستبدأ بأجراس اللقاء .

– سيعرفون .

– يعرفون . يعرفون . يعرفون .. فليعرفوا .. السماء واحدة . وأنت واحدة .

– وأنت .. وأنت .

وتخجل أن تضيف . ما الذى يمكنها قوله . تريد أن تواصل حديثها معه . فقد طالت المسافة بينهما . أضاعته ، وحاولت أن تنفى عن نفسها هذا الضياع ، ولكنَ قلقا غريبا صار ينتابها .. يلاحقها . يدمر عليها لحظات حياتها .. وأخذ يشاركها وقائع العمل والنوم ودراستها المسائية ..

وهى .. هى اختارت أن تضيعه وتجعله مجهولا فى صحيفة حياتها . أرادت أن تبقيها مقفلة ..

فلكأنها لم تعرفه من قبل . ولم تكتشف حبه لها وحبها له .

وتذكره .. كمن تراه وتحدثه ، وتسأل نفسها .. هل تريد أن تقول له كفى . ابتعد .. ليس بيننا ما بدأ حتى ينتهى .. وأنت لست إلا زميلا ، وفشلت أن تصده بقسوة .. وابتعدت .

أقدامها باتجاه اللقاء معه . وفى رأسها تدور ذكريات جميلة عنه .. جلوسهما معا تحت ضوء خافت وفوق حشائش .. كانت تخاف حركة الحشائش .. وكانت تعده بحب . وكان حبهما أخضر أخضر .

إذن ستلقاه .. وسيقولون .. فليقولوا . فبينهما موعد أخضر وموسيقى احتفالية .. ومهرجانات فرح .

المزامــير

المزامير فى كل مكان ..

أصدر أوامر مشددة بتكسيركل المزامير .

منع كل الأطفال من اللعب والنفخ بالمزامير .

أحرق كل بذور تنبت القصب .

اقتلع نباتات القصب التى تنتشر قرب الأنهار . وأصدر قوانين بمنع زراعة القصب .

فالقصب تصنع منه المزامير .

ويستخدمه الأطفال فى صنع طائرات ورقية سرعان ماتهتف فى الفضاء وتزمر ويرتفع صوتها .

لكن المزامير كانت منتشرة ، وموزعة فى كل مكان .

أمر بقتل كل من يحمل مزمارا ، أو يسمع صوته ولا يبلغ عن مصدره ، وكل من يطرب لنداء المزمار .

أو يحمل صورته ، وإتلاف كل مزمار يحمله أحد وهو يدخل حدود البلاد .

لكن المزامير كانت واسعة الانتشار أصواتها تصل آذانه ، فتمزق أعماقه .

فيصرخ : اسكتوها ، اسكتوا المزامير.

يركض جند السلطان هنا وهناك بحثا عن رجل يحمل مزمارا، عن طفل يحمل قصبة ، يسألون كل من يرونه مارا أمامهم :

– ألا تحلم بصوت مزمار ؟

وعندما يلفظ السائر فى طريقة كلمة «مزمار» يقتل فى الحال .

فالكلمة حرام .. والحرام جزاؤه القتل .

السلطان لاينام .. صوت المزامير تلاحقه ..

ما العمل ؟

لم يجبه أحد .. سكتوا جميعا

غضب السلطان .. قتلهم واحدا واحدا .. وألقى بالجثث فى بئر عميقة ..

وثقل عليه رأسه .. جاء بجنود آخرين ، وجعلوا من أنفسهم أفضل من الذين سبقوهم .

سألهم :

– من أين تأتى أصوات المزامير ؟

أجاب أحدهم :

– لا توجد مزامير فى كل البلاد .

قبض السلطان على جندى ، وشد خناقه ، هتف به .

– ولكننى أسمع صوت مزامير تدق فى رأسى .

بادر جندى آخر فقال :

- الهواء ، الهواء يا سيدى ، ربما يحمل إلينا أصوات مزامير قادمة من بلاد آخرى .

- من بلاد أخرى .. !

فكر السلطان ثم قال :

- سنفاوض كل البلاد الآخرى حتى تمنع أصوات المزامير ..

سأل جندي ثالث :

- وإذا امتنعت هذه البلاد عن الاستجابة ، ما العمل يا سيدى ؟

صرخ السلطان :

- نحاربها جميعا ، فأصوات المزامير عدوان على بلادنا .

صاح الجنود بصوت واحد :

- نحارب ، نحارب ، نحارب .

* *

وأرسل السلطان رسائل ودية إلى البلدان المجاورة يستأذنها ويطلب إليها أحراق القصبب ، وإتلاف كل المزامير ، وأنه سوف يعوض عليها بما ترغبه تلك البلدان .

وتسلم السلطان إجابات غريبة ، بعضها يقول بأن بلاده لاتنتج القصب ، وقال زعيم البلد الآخر ، بأنه حر التصرف فى بلاده ، وأعلن بلد ثالث بأنه يرفض أن يمنع الأطفال من التسلية بأصوات المزامير ، ومنع الرعاة من الغناء بمصاحبة صوت المزمار .

واستجاب آخر ، واشترط دفع تعويضات مادية ضخمة مقابل عدم استيراد المزامير ومنع دخولها إلى بلاده مستقبلا .

حزن السلطان كثيرا ، وبكى . وفوجىء به الجنود باكيا ..

سألوه عن المزامير ..

حدق فى وجوههم .. كانت نظراته حادة ، حاقدة ..

سألوه ثانية .. لم يبال أحد بنظراته .

حاول أن ينهض ، رفع يديه نحوهم ، ليقتل أسئلتهم .. كان يعرف بأنهم يعرفون جميعا معنى أصوات المزامير ، وكانوا يعرفون جيدًا بأنهم يسألون عن كل ما يعرفونه .. فقد كانت المزامير قد حدثتهم واحدا واحدا .

ولم يكن فى البلاد ولا فى خارجها أحد يعرف معنى أصوات المزامير .

وبقى السلطان مفتوح العينين ، تصرخ نظراته فيهم .. حتى آخر لحظاته .

عندئذ نمت بذور القصب ، وراحت تقص على الناس قصة السلطان .

أصغى الناس إلى أحاديث المزامير علنا ، بعد أن كانوا قد سمعوها تدخل إلى قلوبهم وأفكارهم سرًا ، ويتظاهرون بأنهم صم .

كل الناس تفتحت آذانهم .. صاروا يتحدثون بالقصة بمسرة غريبة لم يعرفون من قبل ..

قال أحدهم :

- كانت المسألة هكذا إذن ، المزامير أعلنت كل شيء .. السلطان له قرون وكل حلاق يزيل الشعر عن رأس السلطان عرف بالأمر ..

فقتل وألقى فى البئر ..

أكمل الآخر الحديث :

- حلاق واحد نجا .. بقيت روحه ، ولم تنطفيء فى الحال ، ظل يئن فى البئر معلنا سر السلطان ، سمعته الأعشاب المحيطة بالبئر ، فأنبتت قصبا .

وتابع القصة .. ثالث :

- راع مر بفوهة البئر . استقى ماء ، ارتوى هو وأغنامه وغسل وجهه ..

واستلقى فوق الأعشاب ، وبهدوء أخذ قصبة وصنع مزمارا . فأنشد له المزمار مأساة الحلاق الساكن فى البئر . رجل رابع رغب أن يسهم فى الحديث . فأصغى الجميع إليه ، فتابع قائلا :

- نهض الراعى ، أخذ حبلا كان فى عنق أحد الخراف ، ربطة بآخر .. صار الحبل طويلا ، ألقاه فى البئر .. وراح يسحب ، ويسحب .. لم يقبض على شيء . كاد أن يذهب حين فشل ثانية وثالثة .. لكن المزمار راح يعيد سرد القصة على أسماعه .. والقى الراعى بالحبل وراح ينتظر .. ثم سحب ، قليلا ، قليلا .. أحسن بثقل .. وجاءته أنفاس متعبة .. اشتدت رغبته بالاكتشاف .. وفوجيء برجل يئن ، ألقاه فوق العشب ، التم العشب فوقه ، أحاطته خضرة القصب ..

ونام الرجل فى دفء الخضرة طويلا .. أيقظه الراعى .. لكن الرجل كان قد اختار الخضرة .

* *

الرجال الأربعة ، قصوا القصة ..

سمعهم الجنود واحدا واحدا .. خاف الرجال الأربعة ، قالوا بأن هذا ما تقوله المزامير ولسنا نحن ..

قال الجنود : لا بأس ، نحن نعرف أيضًا بأن المزامير تقول أشياء كثيرة ، وهى أكثر شجاعة منا نحن جنود السلطان ، ومنكم أنتم رعية السلطان ..

وطأطأ الرجال الأربعة رؤوسهم .

وسار الجنود ورؤوسهم إلى الأسفل .. بينهما كانت المزامير تعلن أصواتها ، وتتوزع فى هواء طلق .

ابتسامة

هى . هى وحدها التى أعرفها .. وهى . وهى وحدها التى لا تعرفونها .

والتى اعرفها لن أبوح باسمها .. ولأنها تعرف أننى الوحيد الذى لن أتخلى عنها .. أجدنى فرحا بها ، سعيد بلقياها ، مطمئن إلى حبها .

ولأننى رجل كتوم .. خصوصياتى تعنينى أولا وتعنى من وثق بى ثانيا .. لذلك سأحتفظ بأسرارى ما دمت أتنفس الحياة .

ولأننى – كذلك – لا أرتضى أن أتسول حبا ، لا يطيقنى .. اختيار امرأة تبادلنى حبا بحب ، وابتسامة بوعد .

اخترتها .. ولم يكن ذلك سهلا .

واختارتنى .. ولم يكن ذلك سهلا .

الاختيار عملية صعبة .. فإذا كان اختيار متبادلا فأن الامر يزدادا صعوبة ، كنت قد جربت حياة زوجية ، وأنجبت من الأطفال ما لا طاقة لى به ..

غير أننى وجدت نفسى أضيق بتلك الحياة .. ووجدت مشقة فى مد الجسور بينى وبين زوجتى .. لسنوات عديدة ، وكان الأطفال فى الذاكرة دائما .

وكانت تلك المرأة التى أحبها ضحية الإشكال نفسه .

فقد تزوجت . وكانت تحسب أن الحياة الزوجية أول وآخر المرافىء السعيدة ، وأنجبت من الأطفال مايثقل عليها .

تلك كانت محنة مشتركة أولى .. ولم أكن لأفكر يوما أن نكون معًا فى محنة واحدة . كنت أبحث عن فرحة مشتركة ، عن قراءة مشتركة للحياة .

لم تكن تعرفنى ، ولم أكن أعرفها .. غير أننى أدركت الآن بأن زمنى كان يبحث عنها حتى وجدها .. وأجزم واثقا بأننى كنت غائبا عن ذاكرتها .. لكنها بالتأكيد كانت تبحث عن رجل تحبه ويحبها . لا لأنها أنثى جميلة ورقيقة وشفافة ، بل لأنها إنسانه تدرك قيمة العلاقات الإنسانية ، وتعرف قطافها السعيد . ولم أكن أنا من اختارنا .

كما لم تكن هى من اخترت .

غير أن ابتسامة سعيدة ارتسمت على شفتيها ذات صباح .. فإذا الصباح ينبت زهرا ، وإذا الصباح يشرق بهاء ، وإذا الصباح يكتسب حياة جديدة وإذا الصباح يورق حبا .. وإذا الصباح .. الصباح .. وراح الإنسان الذى فى صدرى يرى : لقد أحب الصباح .. ولم يكن يشاركه هذا الحب سوى قراءاته .. فإذا القراءة تكتسى بيفاعة الشباب ، وتصبح عافية وهناء وفرحة .

وإذا هو يترقبها فى كل صباح ، وكل نهار .. ثم كل الزمن .

ويوم عرفها ، عرف معها التفاؤل ، كما عرف معها : كيف ينبغى أن تكسر الحواجز وتبدأ العمل وتشق وعورة الدرب .. بالنبل والجهد .

كانت المحن أمامها كثيرة .. عقبة أثر عقبة .. وتتخطاها .

انتقلت من عمل إلى آخر ، ومن مشاق إلى مشاق آخرى .. وكانت تمتحن فى نفسها اليقظة والجسارة والإقدام .

لكن مسألة أهم كانت تشغلها .. تحلم بها ، وتلتف حولها ..

كانت تدرك أنها قادرة ، قادرة على فعل شىء يتميز عن الآخريات .. ولم تعرف هذا الفعل .. وإلى أين يؤدى .

شاغلت نفسها بالتطريز وتفوقت .. غير أن هذا لا يكفى .

وكانت جسورة فى اتخاذ الموقف الذى ترى صحته فى دائرتها .. وهذا لا يكفى تمردت على طقوس الزوجية .. حين كان الزوج ينظر إليها أدنى منه ، وينظر إليها كحاجة من حاجاته .. واختارت القطيعة حين فشل التواصل .. وهذا لا يكفى . وحين اكتشفت موهبتها الفنية .. اختارت أن تتفوق وتتميز .. لكن الجدران كانت تحول دون تحقيق هذا الاكتشاف ..

كانت أمامها مهمة مواجهة الحواجز ..

الحاجز الأول .. استطاعت أن تتجاوزه .. وأن تقول لأبويها ولأخوتها ، إنها لن تحيد عن طريق الفن .. وأفلحت .

الحاجز الثانى .. تقدمت إليه مملوءة بالثقة .. وفتحت أمامها كوة صغيرة .. ثم صارت شباكا .. فإذا هى الآن تريد أن تفتح الأبواب – أمامها .

لم يكن ذلك سهلا .. تعلم هذا جيدا .. فهى امرأة ، وما يدفعه الرجال لتحقيق إرادتهم يحتاج إلى جهد أقل بكثير مما تحتاجه المرأة .. والمرأة الجميلة أمرها أصعب .. والمرأة الجميلة والمطلقة .. أمرها أكثر مشقة .. أمر يشبه المستحيل .

موهبتها فى التمثيل كانت واضحة .. والجمهور مرتاح لاستقبال أدائها .. لكنها لم تكن مرتاحة تماما .. فقد كانت تبحث عن مسرحية توقظ إحساس الناس ، تنتشلهم من حالة الكسل والضحك المجرد ..

ولم يكن هدفها أن تكون نجمة متألقة ، بل امرأة تحسن مخاطبة الجمهور والتأثير فيه .. فالمسرح جزء من استعدادها الواعى لتجاوز المحن ..

ولم تفلح فى هذا العمل ولا الذى تلاه .. ولا الذى سيليه ...

هى إذن عزلاء .. كل ما تعلمته من الحياة ، وكل ما قرأته .. يبدو .. ويتسرب رويدا رويدا .

من يختارها لدور مسرحى تهواه .. يختار مع الدور أنوثتها ... وترفض .

عقبة إثر أخرى .. والأنثى فيها شديدة التأثير على الآخرين .. ولم تكن تريد هذا كانت الإنسانة والفنانة فيها تكبر وتتعزز وتبنى ... تصبح قوة وامتحانا . واتجهت صوب الدراسة ، واختارت أصعبها .. حتى لا تتراجع .. وأن تكون خطواتها واثقة ..

دخلت الجامعة .. وتفوقت فى اللغات الأجنبية ، تفوقا فاق الجميع . ووحدها كانت تبنى وجودها وأحلامها .. وتمنى نفسها بحياة سعيدة .. ابنة وحيدة من كل أبنائها الأربعة .. اختارت أمومتها .. وأشرق زمانها محبة . ووحدها عادت تسعى لإنجاز وعيها الفنى بعد أن اكتسبت خبرات نظرية وتزودت بمعلومات فاتت عن الآخرين .

هى الآن .. تستطيع أن تبوح بمعرفتها .. وأن تناقش لا بأنوثتها .. بل بعقلها الذى كبر معها وصار جزءا من ملامح شخصيتها .

هى الآن .. تريد أن تستقل باقتصادها وحريتها ..

وهى الآن .. بعد كل هذا العناء .. ترى مسرحا ، وخشبة متحركة وشخوصا واضواء .. لكنها تحس بأن المسافة بين ما تهواه ، وبين ما تريد

إنجازه .. مسافة طويلة .. طويلة .. وعليها أن تواصل ، وأن تكون الابتسامة على ثغرها .

وعرفته .. عرفته فى تلك المحنة ، وأمام ذلك المجهول من الحياة .

* *

كان يبوح لها .. كانت تراه يتكلم ..

– هى أنت .. أنت وحدك التى أخاطب .

– هو أنت .. أنت وحدك الذى اخاطب .

وظل حلم الأيام مملوءا بالمشقة .. كنت أراها ، أحدثها . أمتحن خوفها ، ومعها أمتحن خوفى وأحزانى وقلقى ..

لم اكن جسورًا ألا فيما أكتبه فى الصحف والمجلات .. كنت خجولا ، ومعها أحس بمزيد من الخجل ... واخاف عليها من نفسى ، من أن أكون كالآخرين ، من حسبانها أننى كالآخرين ..

لم أطلب إليها شيئًا .. لا أريد سوى صمتها وابتسامتها .

ولم تتقدم إلىّ بطلب .. وهذا يعزز فرحتى بها .

اخترنا علاقة حميمة بلا مطالب .. هذا حسن ..

تسألنى :

– ماذا قرأت .

– قرأت الكثير .

– والأجمل .

– قصيدة لفكتور هيجو تقول :

كن مثل الطائر

المتردد فى طيرانه

وهو على غصن واهٍ مهتز

يعرف أن الغصن سيخذله

ولكنه يظل يغنى

كأنه يعرف

أن لديه جناحين .

قالت :

– تعالى نحفظ هذه القصيدة .

– تعالى ..

كانت يدى تمسك بيدها .. بألفة عميقة .. عميقة .. وكنت أزهو بها .. ومعها ابنتها تبتسم وإلينا تنشد وتتعلق بفرحتنا .

– هل ستقرأ لى كثيرا .

– سأقرأ .

– وهل ستفكرين بعمل مسرحى جديد ؟

– دائمًا .

– تعالى .. تعالى ، نفكر معا بكتابة وثانية صادقة .

– تعال .. تعالَ ، نفكر معا بمسرح مسؤول .

ابتسمنا نحن الثلاثة .. وكانت الحياة فى عيوننا ذاهبة .

محطات الصبر

دائمًا ..

دائمًا كنت أراه ، مثلما أرى الشمس والقمر . مثلما أرى النار والنور .. السماء والأرض والماء والأشجار .. مثلما أرى الله .

صورته تملأ فؤادى وذاكرتى وحواسى كلها .

صوته فى أعماقى ، وعطره فى أنفاسى .. وملامحه منقوشة فى عينى .

دائمًا .. كان ، ودائمًا .. يكون ، ودائمًا .. سيكون .. كأنما الكون قد اصطفاه لى قبل أن أولد .. قبل أن يولد .. قبل أن نولد معًا .

ولدت .. وكان معى .

ولد .. وكنت معه .

عرفنا بعضنا ، قبل أن يرى أحدنا الآخر .

كل منا رسم صورة الآخر .. وانتظرنا أن نلتقى .. فى يوم ما .

فى زمان ما .

منحنا لأنفسنا فرصًا عديدة .. إلى أن يعثر أحدنا عن الثانى .

بحثنا عن المصادفة ، وكانت تهرب منا ، تنفلت من أصابعنا ، وذاكرتنا وبصرنا .

بحثنا عن الموده فى الحدائق والشوارع والأحياء المنكسرة ، والأحياء البهية . بحثنا عن المجهول حتى نعرفه ، وعن المعرفة حتى نكون على تماس بها ، وبحثنا عن نقطة التماس حتى نحس بها .. فإذا الإحساس بالأشياء يغيب ، أو يتوقف عن العمل مثل آلة .. أو يتجمد .. أو يموت .

كنت أعجب لهذا الفيض من المشاعر التى تلّح علىّ ، دون أن تجد أصداءها فى الآخرين .

الآخرون .. كانوا نباتًا صحراويًا .. لم أختر إنباته فى سماء حياتى .

الآخرون .. كانوا غرقى فى بحار أجهلها .

والآخرون .. كانوا زخة مطر فى صيف لاهب .. لا أعرف درجة حرارته ، ولا تأثير لزخة المطر عليه .

كانوا .. مثل كل الأشياء التى أراها .. أعمدة الرخام فى الشوارع العتيقة ، أو الأزياء الحديثة الصارخة الألوان فى الشوارع المضيئة .

.. الآخرون .. واحد .

الواحد يعنى الآخرين جميعًا .

وكنت أبحث عن هذا الواحد فى الكل .. والكل فى الواحد .

كنت واثقة .. وعلى دراية بأننى لا أعرف مصدر هذه الثقة .. كونه يبحث عنى ، مثلما أبحث عنه .

لكنه بكل تأكيد .. إنسان ، نادرة لحظة اللقاء به .. مثلما أنا نادرة لحظة اللقاء به .. مثلما أنا نادرة لحظة اللقاء بى .. لكن كلانا كان يبحث عن خلٍه .

هذا الإحساس بمديات اللقاء ، كان يتسع ، مثلما تتسع السماء لملايين العصافير .. مثلما تتسع الأرض لملايين الأزهار ... و .. مثلما تبكى السماء أحيانًا ، ومثلما تحتضن الأرض أحزان الموت أحيانًا .. كانت الأحيان .. تمتد بى ، تشدنى إلى فرح غامر ، أو حزن قاتل .. ولا وجود لمسافة تجمع ما بين أفراحى وأحزانى .. ذلك أننى لا أقف على الحياد من الأشياء ومن الآخرين .

قلت .. أطمئن مشاعرى كلها .. طبعًا سأراه . وطبعًا سأقبّله .. سأقبلّ جبينه أولاً .. وطبعًا سيقبلنى فى جبينى .

الجبين موقع عزتنا ، عزتى وعزته .. ولا شىء أعز من العزة نفسها ولا شىء أنقى من نقاء الجبين .

وما بين عزة نفسه وعزة نفسى . وما بين نقاء روحه ونقاء روحى .. هناك عرى ومواثيق لاتنفصم ولا تذوب ولا تفنى .. كأنما هى الأزل .. كأنما الأزل حقيقتها ، كأنما حقيقتها تكمن فى هذا الأزل .

طبعًا .. سأراه .

طبعًا .. سيرانى .

طبعًا .. سنرى بعضنا ..

بعضنا سيرى البعض الآخر .. لا أول ولا آخر .. الآخر هو الأول .. فلا أول لنا ولا آخر .. نحن اللانهاية ، نحن اللامنتهى .. بنا تبدأ الأشياء .. وبنا تتماسك ، بنا تبقى .. بنا تتجدد .. وتبعث .

ورسمت ملامحه هكذا :

وجهه من نور . عيناه من زرقة البحر . جبينه من سمرة الأرض ، أسنانه من ثلج ، عطره من الحناء . أصابعه أغصان .. يتكىء على شجرة توت . شجرة التوت تظلل كتابة . لكتابه حروف من روح متحركة .. لهذه الروح أزهار وأغان وأنسام .

ورسمنى كما كنت أريد أن يرسمنى :

امرأة من حرير .. جمع من مفاتن كل الجميلات . شعرها شلال .. الشلال يروى الأراضى البور .. الأرض البور تنبت الياسمين .. الياسمين يشعل الروح فتنة وبهاءً وفرحة .. أصابعها مغزل .. المغزل يعمل فى جمرات الشتاء .. وشتاء المرأة الحرير .. دافىء ، منير .

ورأيته فى زهرة تتفتح فى آذار ، غير منتظرة حلول نيسان .

رأيته قنديلاً فى براءة كف ، لطفل لم يترك بياض الحليب بعد .

ورأيته فى نسيم لطيف مر على الحقول .. ثم تسلل إلى شغاف القلب .

رأيته فى صفحة من كتابى الأثير .. وأحلامى الغائبة والحاضرة المنتظرة .. مثلما رأيته فى طلعة النهار ، وطلعة البدر .. فى قلب الأشياء كلها .

ينتظر .. فى المحطة ينتظر .. لماذا وجدت المحطات للانتظار ، إلى لهفة الانتظار .. ألم يتعب الانتظار نفسه من هذه المهمة الشاقة ؟ ألم يحن الوقت لكى يتمرد الانتظار ، ويبحث عن وظيفة أخرى تكفل له الراحة والرخاء ؟

لكن الراحة والرخاء ، لا يصل إليهما أحد ما لم يمر بمحطات طويلة من الانتظار.

لينتظر إذن ، ولأنتظر أنا أيضًا .. وأيضًا تجمع بين انتظارينا .

كم الساعة ؟

ساعة المحطة معطلة .. كأنما الزمن معطل ، والوقت لا يغادر المكان .. والمكان باقٍ .. جبل من البقاء والثقل .

كما الساعة ؟

الساعة لا تجيب ، والوقت قريب منه .. والقرب منه صعب ، والصعب لهفة ، واللهفة مستحيلة ، والاستحالة .. ساعة ، الساعة لا تجيب ، واللا جواب ، جواب .. والجواب عنده ، عنده لا أعرف ، ولا أعرف عنده .. معرفة ، والمعرفة أن أسأله .. وحين أسأله أذوب ، وحين أذوب أنتهى .. وأنا أريد أن أبدأ .. كيف ؟ !

- هل سيتأخر القطار ؟

لمن السؤال .. لمن أجيب . لمن الجواب ، لمن السؤال .. ؟ اختلطت علىّ الأسئلة والأجوبة .. لكأن السؤال تعارف ، لكأن الجواب توافق .. لكأن السؤال والجواب .. موعد حب .. هكذا بدأت الأشياء .. وهكذا أيضًا وجد فى السؤال .. غزلاً ، وفى الإجابة ارتياحًا لهذا الغزل .

.. ليتأخر القطار .. ولتنتظر المحطة نفسها ، بدلاً من الانتظار فى المحطة ..

قد يأتى أخى الأسير .. وقد لا يأتى .. سأنتظر .

قال :

قد يأتى ولدى الأسير .. وقد لا يأتى .. سأنتظر.

وما بين أخى وابن الرجل الغريب ، قربى ..

ربما كانا فى مخيم واحد للأسر .. ربما كان يجلسان فى القطار على مقعد واحد .. ربما يعرف أحدهما أخبار الآخر .. ربما يدلهما الحاضر عن الغائب .. عن المصير الذى آل إليه أحدهما.

التحم السؤال بالجواب .. صار الجواب يشتاق إلى السؤال ، صار السؤال أكثر حميمية وهو يلتقى الجواب .. كأنما يلتقى فجر الحياة ، لكأنما يشتاقها ، يتفاءل بها .

لأخى وشم فى صدرى ، وأصداء فى القلب والذاكرة .. لأخى وحدته عداى .. أنا المخلوق الأول والأخير فى حياته .

وحدثنى الرجل الصابر فى المحطة التى تصطبر على الانتظار .. قال :

– ولدى الوحيد ، فلذة الكَبد .. ربما يأتى .. أريد أن أراه فقط ولأمُت بعدئذ قرير العين .

قرة العيَن تجمعنا.. همّ الانتظار ، ووحشة الانتظار ، ولهفة الانتظار ، وقسوة الإنتظار ..

الانتظار ذاته صار الجسر الذى يجمع بين ضفتينا .

أخ أسير ، وابن أسير .

أخ وابن .. للأول أخت ، وللثانى أب .. وما بين الأخت والأب وشائج .. بدأت بترقب عقارب الساعة ، واتسعت إلى همّ مشترك ، وحديث ينشّد إلى حديث .

كنت أحس بأننى أعرف هذا الرجل ، بأننى أعرف ولده ، بأنه يعرف أخى .. بأننى كنت أبحث عنه ، وأحلم به ، وقد التقيت به فى موعد عند محطة الصبر .. فهل يتكفل القطار بالعبور إلى الحياة .. وبالحياة وهى تعمر أو تختزن الحزن والصبر والفرح والضحك والأسى والجرح والمتعة إلى عمر يأخذ كل الأعوام ؟

.. توقف القطار . نزل منه : المعلوم والمجهول ..الغريب والقريب .. دون أن يكون هناك ابن أو أخ .. ودون أن يكون هناك حمام الزاجل .. يحمل البريد أو يقين الخبر ، أو حقيقة الأمر .. أو لمحة من طيف ، أو لحظة من حلم شاسع لاحدود لامتداده .

وصل القطار .. كأنما وضع حدًا لصبر الانتظار .

وجاء القطار .. كأنما جاء بحياة ، كانت ميتة ، ثم بعثت حيةً .

وصفّر القطار .. كأنما الصغير ينبه جمعًا من الغافلين عنه .. ينبئهم بالحضور ، يعْلمهم بالمجهول ، يبلغهم بالنبأ .

وكنت أحدق فى عينى الرجل .. فأحس بالأمان ..

وكنت أحدق بلهفة فى الوجوه التى غادرت عربات القطار .. فأحس بالخيبة .

وكنت أحدق فى أعماقى ، فأجدها .. قريبة ، بعيدة عن حدود الأمان .

وقريبة احتمى بالرجل الغريب .

وبعيدة احتمى بالسراب !

كان آخر راكب قد غادر المحطة ، حين غادرناها معًا .. كأنما نغادر من أفئدتنا ، من دفئها وحنانها ، كأنما نترك إحساسنا ليكون عرضة لنسائم باردة ، وأحيانًا حادة وقاسية ..

إلى أين تذهبين ؟

إلى أين تذهبين ؟

تعالى نجلس هناك .. على ذلك المقعد .. قد يأتى قطار آخر .

تعال ..

جلسنا ..

بان الصبح ينشر ضوءه . كان آذار يعلن بهجته . كان عطر حديقة قريبة يتسلل إلى أنفاسنا . كانت الحياة تتحرك من حولنا .. الناس ، السيارات ، الباعة .. صحف الصباح ، أغانى فيروز..

هل تعجبك أغانى فيروز .. ؟

.. هل تعجبك كلمات إحدى أغانيها التى تقول :

« لما سكرت الباب .. لقيتك بينى وبين حالى » ؟

سحت ملء القلب .. أحسست بأن الصبر قد رحل وأنا غير آسفة على رحيله .. أحسست بأن الرجل ينشّد إلىّ ، أنشَدُّ إليه .. أحسست بأن فى أعماقنا أشياء كثيرة تريد أن تبوح بشىء .. بأشياء ..

كنت أراه يقترب .. يقترب ، بملامحه ، بهواجسه ، بصوته ، بهمسه وأحلامه منى ..

كان يقودنى إلى شىء خارج دائرة الحزن والانتظار .. خارج العمر .

رحت أسأله عن قطوره وأحلامه وأمنياته .

رحت أبحث عن قراءاته المفضلة وأوقاته السعيدة والألوان التى يألفها .

أخذت أستعين به على التماسك فى ظل غياب أخى .

أخذ يستعين بى على التماسك في ظل غياب ابنه .

أخى وابنه ، صارا يفكران كصديقين ، يضحكان معًا .. ويسهران الليالى ، يستذكران الحكايات والتجارب ومحنة الأسر .

وما بينى وبين الرجل ، كانت الغربة تتبدد والأحزان تبتعد ، مثل غيوم ترحل ..

كنت أراه . دائمًا أراه . ودائمًا – ربما – كان يرانى ولا أعرف .. ولا يعرف .. لكننا بدأنا نعرف .. أن كلانا كان يفتح الأفق مع الآخر ، يتجاوز محنة الحزن والانتظار والقهر .. ويجعل من الصبر .. سبيلاً إلى الحياة .

رأيته ، رأيت الأمل فى عينيه .

رآنى .. ورأى فىّ ليل الأشياء .. ضياء .. ضياء نجم بعيد ، يقترب .. يقترب ، يلامس الوجوه .. فتشرق بالعافية .. تبتسم للحياة .

الحيــاة الممنوعــة

ليال طويلة وديللر يفكر .. إلا أنه لم يهتد إلى نتيجة .. غير أن ليالى ديللر ، لم تكن تمر عليه عبثًا ، ذلك أنه ظل يبحث ويجرب ويتأنى فى الأسباب والنتائج التى يريد الوصول إليها .. ذلك الوصول الذى تحول إلى أمنية من أمانيه الكثيرة ، والتى لن يهدأ أو يستقر إلا بأن يجد لها حلا .

عبثًا حاولت زوجته أن تخرجه من هذا التفكير الذى يرهق عليه أيامه .. ولم تفلح أبدًا فى إشغال انتباهه إلى أولاده . ذلك أن أبدأ فى اشغال انتباهه إلى أولاده . ذلك أن ديللر صار ينشغل بأشياء تجهلها ، وفى كل مرة تسأله عن هذا الشاغل الذى كدر صفو حياته .. لم تلق إجابة واضحة .. ولا حتى انتباها لتساؤلاتها .

كان ديللر يعشق وحدته عشقًا لاحد له .. حتى أن كل طلبات زوجته وأبنائه يمكن أن ينفذها فى التو واللحظة إذا ما عرف أنه سيأخذ مقابل استجابته ، فرصة جديدة للانشغال بوحدته .. بين كتبه وتجاربه العلمية ، وفى أحيان كثيرة فى تأمله الطويل الذى كان جميع أفراد الأسرة لايعرفون سره .

لم يكن الرجل العجوز ، إلا رجلاً يألف وحدته على نحو غريب ، كانت زوجته تعلم جيدًا ، أن فى حياته امرأة أخرى سواها ، لكنها اتخذت سبيل

الحكمة والتروى ، حتى تتيح له فرصة العودة عن حبه ذاك .. دون أن تلزمه بالتراجع ، ذلك أنها تدرك تمامًا كم هو معتد برأيه ، وكم هو مصر حتى على كل خطأ يرتكبه .

لكن أية علامة من علامات الحب الفادح ، لم تكن قادرة على أن تصرفه عن هذا الإصرار العجيب الذى بدأ يراوده ويزيد منه ويقلق راحته .

فليكن الحب .. ولكن أن تحب معناه أن ترى .. ومن يحب ويرى يدرك معان جديدة للحياة ، لم يكتشفها من قبل .. هكذا كانت الزوجة تخاطب نفسها ، دون أن تصل إلى نتيجة تخفف عنها وطاة حياة باتت ثقيلة وموجعة .

لم يكن ديللر يحدثها فى شىء .. ولم يكلفها بشىء .. كان همه أن يتأمل ويتعامل مع أجهزة علمية دقيقة لا تعرف من أين يجىء بها ، ولا لأى شىء يستخدمها ، وإلى ماذا يريد أن يصل بها .

كانت تتسلل عبر ثقب الباب ، أو من زاوية النافذة ... تنظر ، وترى عجبًا ..

فئران حية يجىء بها داخل أقفاص .. حتى إذا ألقى عليها بضع قطرات من سائل مجهول ... عندئذ سرعان ما تتعفن .. وتراه مسرورًا والفئران تموت أمام عينيه .. وانتقل إلى الأرانب والطيور .. يجرب الموت عليها .. ومرة أخرى تراه أكثر مسرة .

.. وانتابها خوف .. خوف غريب ، أن يضع قطراته فى إناء طعامها ، وأن يتمادى فى تجاربه ... ليصل إلى لذته القصوى فى موت أبنائه ،

ليتأكد تمامًا من فاعلية السائل الذى يستخدمه . وأخذت تحذره ، وتحذر أولادها منه ....

لكنها كانت حريصة على الانتباه إلى تأملاته واستخدامه لأشياء غير معلومة .. منها ما هو سائل ، ومنها ما هو جاف ..

تيار كهربائى ، بطارية ، بارود .. هذا ما عرفته ، أما الأشياء الأخرى المحيطة به ، فهى غريبة عليها .

كانت تريد بإلحاح أن تعرفها وأن تلمسها وأن تسأله عنها .. لكنها كانت تخشاها وتخشاه على نحو من يخشى الدمار الذى صار يقينًا بعد أن كان مجرد شك .

ديللر يفكر .. وأصابعه تعمل فى أصناف متعددة لايعرف سرها .. كانت تخشى أصابعه وهو يتناول طعامه على عجل ثم يسرع إلى عمله ، كأنما يخشى أن يسبقه إليه أحد .. فيكون هو الحائز الأول فى سباق لم يجر أصلا ..

موت الكائنات التى يأمر بحرقها .. بدأت تزداد عددًا ... وكلما زاد العدد ازدادت مسرة ديللر .

وفى كل مرة يكون فيها مسرورًا ، يلح على زوجته أن تبادله سروره .... وكانت من خوفها منه تغتصب ضحكة ، تمقت نفسها حين تفعلها.. غير أنها كانت ملزمة بإدائها .. ومرة .. مرة واحدة رأته يخرج من عزلته ، قاصدًا ما لاتعلمه ، دون أن يقفل غرفته مثلما يفعل كل مرة .

وأمام الرهبة والرغبة الملحة فى الاكتشاف .. دخلت الغرفة وراحت تحدق فى كل شىء داخل هذه الغرفة المسكونة بالغرابة .. وكانت بها رغبة فى تلمس كل ما حولها .. لكن خوفها كان أقوى من رغبتها الملحة تلك .

وعلى منضدة مكتبه راحت تقرأ معادلات رياضية ورسومًا وكلمات «الموت» كانت تتردد كثيرًا ، وتبدو واضحة وملحة على الورق المزروع أمامها كالحراب ..

من هنا اكتشفت الزوجة سر الزهو الذى ينتاب ديللر وهو يرى الكائنات تموت أمامه ..

ثم عثرت على كلمات أخر : أوكسچين ، هيدروچين ، بارود ، قنبلة ، فتيل ، نار ... وكلمات : الموت ، الفناء ، لاحياة ، لابشر ... ولم تعرف موقع هذه الكلمات مع غيرها من الكلمات والرسوم والعلامات والرموز والأرقام .

. . . من خلال كل ما وجدته أمام بصيرتها أدركت أن ديللر يبيت أمرًا غريبًا ، ربما يكون مدمرًا .. يخفى سره عنها .. فراحت تحذره وترقبه على نحو ملح ، خوفًا على نفسها وابنائها منه ، وخوفًا منه على نفسه ، فزوجة ديللر تعتمد أن ليس هناك من بشر يمكن أن يستبدل بغيره .. فلكل واحد خصائص فى أداء عمله ونمط تفكيره وسلوكه .. وهذا هو الاختلاف بين الآلة .. البرغى ، والانسان ..

هناك تماثل وتناسخ وتكرار .. وربما قدر من التطوير .. فى الآلة .. فى البرغى ..

بينما الإنسان ليس نسخة أخرى من غيره . ترى . . هل يفكر ديللر بمثل هذه المسألة .. والى ماذا يريد الوصول ؟ شغلها تفكير قاتل ، وخيم على وجودها هم ثقيل .

لو أنه كان عشق شيخوخة ، واستعادة شباب أفل ، لكان الأمر عكس ذلك تماما .. كان التأمل .. سيتحول إلى تفكير بإكسير الحياة لافنائها ..

وبالتجارب التى تجعل من الصحارى .. مزارع ، ومن الفيضانات . . . مخزونًا هائلا من المياه ، ومن البراكين .. مشروعًا لاكتشاف أعماق الأرض .. ومن سموم الحيّات ولأعشاب البرية .. بلسمًا لشفاء المرضى ..

هل هو اليأس من زمن يشيخ فى حياة ديللر . . هل هو الموت يلاحقة ، فيسعى لاصطياد الآخرين معه . . فالموت الجماعى ، مشاركة قد يكون راغبًا فيها .. ؟

وتنبهت إلى نفسها ، احتاطت من خوف ومن غضب ومن غازات سامة ربما تكون قد استنشقتها . . دون علم منها . خرجت مسرعة ، تاركة جدران الغرفة تعيش حزنها لوحدها ولنوايا تدمير يبيت له ديللر . . لاتعرف مداه ..

أشفقت على جدران تحمى ديللر ، مثلما تحميها . . فلماذا يفكر ديللر . . بعالم معطل اسمه : الموت ؟

وصل ديللر مسكنه فى ساعة متأخرة من الليل ، حاملا أشياء تستر الظلمة هويتها . . دخل غرفته ، هاربًا من وقت ضيعه ، ووقت بريد استثماره ..

لحقت به ، حاولت أن تكلمه ، لكنه لم يترك لها فرصة التحدث إليه .. فقد كان يستعجل الزمن ، كأنما يخشى انفلاته من أصابعه . أقفل غرفته .. وسطعت إضاءة قوية ، تسربت من فراغ اسفل الباب .

أسرعت إلى ثقب الباب ، فوجدته مزحومًا بالمفتاح .. وانتقلت إلى جزء من نافذة ، فوجدت الستارة مسدلة بكاملها تملأ كل فراغ .. ولا تتيح لها فرصة معرفة شىء مما يجرى داخل الغرفة .. شىء .. أى شىء .

هذا الكائن الذى اسمه ديللر ماذا يفعل داخل أربعة جدران . . . وماذا تعنى كلمات مثل لا حياة ، لا إنسان . . ؟

مرت ساعات الليل ثقيلة ، موجعة ، فيها أسى وترقب وخوف . حتى إذا غادرت الظلمة مكانها ، والفجر يفتح عينيه ، والشمس تذهب إلى عملها ، والظهيرة تتكاسل ، والعصر يسترخى ، والمساء يتقدم ... .

وجدت الزوجة إلزام نفسها بدعوته إلى راحة يرفضها ، فلاتتلمسها فيه ، لكنها باسم جوعه .. يمن أن تدق بابه . . دقة أولى . . وعاشرة . لا أحد يجيب ، دقات أقوى .. وكأن الساكن فى الداخل قد أصيب بالصمم . . وليس أمامها سوى الدخول قسرًا إليه .. دخلت .. فوجئت بديللر جامدًا أمام المنضدة .. وقد انهار القلم من بين أصابعه .. قرأت سطورًا كان قد كتبها.. ولم يكملها ..

قرأت : كنت أمنى نفسى باختراع يكفل الحياة لى وحدى . . ويفنى الآخرين . . يدمرهم حينئذ سأكون سيد هذا العالم الذى أفنيته .. سأكون الأكثر سعادة ..

فقد فعلت مالم يتمكن أحد من فعله ..

وأن حلمى فى عالم ممنوع فيه وجود الإنسان ، ممنوعة فيه الحياة ، ممنوع فيه الحب . . ممنـ . . .

هدوء غريب انتاب زوجة ديللر . . هدوء مر عليه الموت بسلام ، خشيت أن تلمس جثة ديللر .

خشيت أن تصاب بعدوى مرض كراهية الإنسان والحياة والحب . . خشيت أن تقسو على هذا الكون من خلال ملامسة جثة ديللر . فتحت

النوافذ جميعًا ، وجعلت الأبواب مفتوحة على مصراعيها . . وفكرت مع الآخرين الذين تجمعوا حولها ، في السبل التى تبعد عنها جثة ديللر التى باتت تعافها وتنفر منها وتحس أن قطيعة ازلية لابد أن تكون بينها ومعها كل الناس . . وهذه الجثة . . الجثة التى لابد من حرقها .. حتى لاتتعفن بها الأرض . . حتى تظل الأرض تنبت خضرة . .

بغداد ١٩٩٢/١/١٧

المذكرة المشتركة للعين والأذن

سيدنا الجليل ... تحية وبعد :

أوصانا والدنا ومن قبله جدنا ... بأن نعود إليك للمشورة فى السراء والضراء .

وقرأنا فيما قرأناه وما سمعناه وما عشناه من تجارب ، وما تلمسناه من معايشة الناس ، بأن لك حضور وضرورة وسطوة عليهم جميعا .

لذلك قررنا معا أن نحرر إليك هذه المذكرة المشتركة لعلها تنقذنا من المحنة التى نحن فيها ... فأنت من نصبو إلى حكمته ، وأنت من نتلمس فيه المشورة الحقة ، والدليل الثابت ، ورجاحة الرأى السليم . . .

نرجو أن تتعرف على مذكرتنا ، وتعطيها شيئا من وقتك ، خاصة وأنها تمثل حياة الكثيرين من أمثالنا ، وتقبل وافر تقديرنا .

*** سيد الحكمة الوقور:**

لقد تغيرت مهمتنا التى خلقنا من أجلها ، وصارت وظائفنا . . . غير ما نحن عليه من قبل . . . وطرأ على حياتنا أشياء جديدة لم نألفها من قبل . . . كل ماضينا وخصائصنا ووجودنا تغير من حال إلى حال .

أنا العين – مهمتى أن أحدق فى كل ما هو جميل ، وأن رأيت العكس ، حاولت أن أجمله . . . أن أجَمل الأسى بالأمل ، والسواد بالألوان ، والغيوم بالمطر ، والليل بشمس النهار . . .

أن اقرأ كما أشاء ، الكتاب الذى اختار ، والوقت الذى يناسبنى ، أن أعشق ، وأن أرى كل الحدائق والمدن .

أن أسافر ، وأشاهد ما يعجبنى من أفلام ومسرحيات وحفلات .

أن أطلى جدران بيتى كما أرغب ، واختار لون ردائى وحذائى . . . كما أريد . . . وأن اختار الحبر الذى أكتب به إلى حبيبتى .

لكن كل شىء قد تغير الآن . . .

* وأنا الأذن . . . اختارنى الله كى أسمع عظمة الأناشيد التى تنطلق من حناجر مخلوقاته فى كل مكان . . . وأن أغنى ، وأعشق بأذنى . . . وأتعلم الحكمة حين أصغى إليها منطلقة من أفواه حكيمة .

أن أتقبل صوت العندليب ، وأرفض غيره من الأصوات ، أن أستمع إلى إذاعة تقنعنى بجدية السماع ...

أن أصغى إلى قطرات المطر تتساقط ، وغناء العمال وهم ينشدون .

أن اتجول فى غابة واستمع إلى خفة أغصان الأشجار وهى تترنح طربا بالأنسام .

أن أصغى إلى سكون الليل . . . وأهمل أصوات الضفادع والصراصير وضجة السيارات وهى منطلقة فى قلب الظلم .

لكن كل شىء قد تغير الآن . . .

– تسألنا : كيف . . . ما سبب هذا التغيير الذى تدعون به ؟

ونجيبك تفصيلا :

* الأذن : بالأمس كنت فى زيارة ود قصيرة إلى زميلتين أكن لهما الاحترام ، بعد غيبة طالت ، وبدأ العتاب يأخذ مداه . . . لذلك قررت أن أشد روابطى بالأصدقاء ، أتكلم معهم وأصغى إليهم ...

قالت الأولى وهى تهمس فى أذنى ، حين ذهبت صاحبتها لتجلب لى مشكورة . . . شايا :

– لا تقل شيئا أمامها . . . إياك استوعبت فى أذنى العبارة . . . وسكت صاحبى .

وقالت الثانية وهى تهمس فى أذنى ، حين ذهبت صاحبتها لتجلب لى مشكورة ... قدحًا من الماء :

– لاتقل شيئا أمامها... إياك

استوعبت فى أذنى العبارة .. .وسكت صاحبى

ودهشت . . . فهل يعقل أن أظل صامتا أمامهما معا ، وهل أهمل سماع كلا الدعوتين وانطلق متحدثا كما أشاء ؟

* العين : بالأمس أيضا شاهدت رجلا وقورا كنت احترمه ، فإذا به يقبل أن يقبل أحدهم يده ويتسلم مقابل ذلك مكافأة . . .

ورأيت ذلك الوقور يوقع على مذكرات مالية وصكوك . . . أعرف جيداً أن ليس لأصحابها حق فيها . . .

ورأيت الوقور ذاك يقترف أكثر من خطأ بحق العدالة . . يقتل بسلاح مكتوم . . ومع ذلك لا أجده إلا مبتسما . . ومنذ ذلك الوقت بدأت أعرف

الابتسامة الكسولة والمجاملة والرسمية والثعلبية . . . أنا أحمل قدرة على أن أميز بين هذه النظرة وتلك . . ألست أحمل عين البصيرة ؟

وأعجبت بالأدوار تتغير ، والمظاهر تتلون ، وتتزين دون حاجتها إلى الزينة .

– الأذن : ليس هذا فحسب .

الآن / مطلوب أن أصغى إلى أصوات بعينها ، أن أستمع إلى صوت الرصاص ينطلق . . بدلا من سماع صوت فيروز ، وأن أقر بأن صوت من هو أعلى منى مركزًا وظيفيًا ، هو الجديد بالاحترام والتميز معًا .

– هذه أمور طفيفة . . ستقول أيها السيد الجليل . .

غير أننى أنبؤك بأن الأمور . . قد كبرت ، وأخذت مدى أبعد . . فعلى الآن أن أصغى إلى ما يقوله زميلى وجارى وأخى . . وأن أعرف كذلك ما تهمس به زوجتى فى أحلامها ، وأراقب كلمات ابنى . . أحللها . . وأن أنقل كل ما سمعته إلى جهة معلومة .

وإذا لم تفعل . . تسألنى ، وأجيب :

– إذا لم أفعل فأنا موضع الانتباه ، وأثير تساؤلات عديدة بشأن حياتى . فالأذن ليست أذنى ، وإنما هى أذن قوة توجه سمعى . . شأنها شأن أية أداة استخدمها فى دائرتى . .

– ولكنك تحملها معك . . !

ليكن . . . أنت لا تملك إلا أن تأخذ أذنيك معك . . ذلك أمر طبيعى . . ولكن الجديد فى أن يكون لأذنيك عملهما الدائم فى كل الأوقات .

إنهمـا الجهـاز الـذى تحملـه ويملكه غيرك ، مثل السيارة التى تعود إلى الدائرة تقودهـا وتظل ملكا لدائرتك . . . لا شأن لك بها سوى استخدامها .

ولا شأن للسلطة بـاذنيك ، سوى أن تحولهمـا إلى جهاز تسجيل يلتقط كل ما يقال ، وكل ما لا يقال . . فلأذنى بعدهمـا الذى يجب أن يكون منتبها لكل شيء . . مصغيًا لأى شيء . . مـاذا أفعل ؟

– العين : / أنا كذلك .

صرت فضولية ، أفتش عن النظرة الساهمة ، والذهن الشارد . والكلمة المكتوبة على عجل فوق جدران طليت حديثا .

أبحث عن وجوه بعينها ، أراقبها .. وأعرف هواها وعشقها .

قبالة ناظرى صور ينبغى ألا أحيد عنها . .

وأشاهد أفلاما بعينها ومسرحيات وبرامج تلفزيونية ، وأقرأ هذا الكتاب دون غيره .

عينى . . ليست لى مطلقا . . أنا أرى بعيون الآخرين . . وإذا انصرف بصرى إلى مكان آخر . . آثرت دهشة من حولى . . . مـاذا أفعل ؟

– كلانا (العين والأذن) بقينا حائرين . . أمـام سؤالنا الملح . . فماذا نفعل ؟

لقد جئناك بهمومنا ياسيدنا العقل .. فأنت مركز حواسنا وتفكيرنا ، ومنك نستمد الخطى ، فكر بنا .. وأجعل لنا سبيلاً نسترشد به . . وإلا فقد قررنا أن نقتل البصيرة والأصغاء . . ننتظر جوابكم . . سيدنا العقل . . فقد كتبنا مذكرتنا المشتركة بعد أن نفد صبرنا . . . . . فماذا أنت فاعل بنا يا أيها الحكيم . . . ؟

لقد كتبنا هذه المذكرة يا سيدنا الكريم على ورق معطر ، لنعبر عن إحساسنا بالذوق الرفيع وتمتعنا بإمكانية أن نكتب لك سرًا يثقل علينا ، ونمطره بعيدًا عن رؤية وسماع أحد . . وأسلم لنا يا مدبر أحوالنا . . . . . أيها العقل .

– وقبل أن تصل هذه المذكرة اسرية والشخصية والموقعة من قبل الاذنين والعينين . . والموجهة إلى السيد العقل .. شم الأنف رائحة الورق المعطر ، فأخذه الشك . . وقاده الشك إلى معرفة الحقيقة .

فكتب على الفور كتابا شديد اللهجة موجها إلى السلطات العليا ، أشار فيه إلى تحسسه بمطر نافذ إلى أعماق الأنف .. ويدعو إلى التحقيق العاجل بالأمر واتخاذ اللازم فورًا .

تسلمت السلطات العليا الكتاب الذى وقعه الأنف ، واتخذت إجراءات سريعة للتحقيق فى الأمر .. وقد تبين أن الأنف من العناصر الكفؤة والمخلصة وتقرر الحكم بالصم على الأذنين ، وفقأ العينين . . ووضع العقل تحت المراقبة . .

ومنذ ذلك بات الناس لا يشاهدون إلا أنوفا متكبرة معتدة بنفسها ثم غابت هذه المشاهدة بعد أن فقأت العيون ، وعاشت الأذن صماء . . وبات الجميع يتحسسون تمامًا وجود أنوف متضخمة . . عملاقة . . فيما انصرف العقل إلى التأمل المكتوم . . وبات يحس يومًا بعد آخر بأنه قوة معطلة لا أهمية لها . . ولا ضرورة لوجودها ..

هل تشك الوردة بعطرها ؟

استلقى على فراشه . حاول أن ينام . قرصان من الفاليوم ستساعدان فى تحقيق رغبته هذه . حدق فى سقف االغرفة .. بياض ناصع وثمة خطوط لا تحول دون وضوح البياض .

عيناه مغمضتان . ذاكرته يقظة . . مثل تلك الظهيرة التى اعتاد أن ينشد فيها النوم . . لكنه هذا اليوم لم يفلح .. حاول . . المحاولة فشلت .

تقلب ذات اليمين وذات اليسار ، استلقى على وجهه . أحسّ بالاختناق .. أحسّ أنه يدفن غضبه الصارم وأساه العميق .

سأل نفسه :

– هل كان علىّ أن أحدثها بما جرى . . هل كنت أفكر فى شد أعصابها وتلقى غضبها العارم . . ؟

هل كنت أنتقم لحالة مماثلة .. فعلتها ؟

الشك مرض . وخزَ بالرمَح . . طعن . . الشوكة من الشك والوخز . . الشك اختراق موجع . . اختلاف طبيعة فى السلوك والأخلاق . . وشكا البلاد . . قطعها ، والشكة . . المسافة . . والشك صدع فى العظم . . هكذا الحال بدأ معها . . وهكذا بدأت الجراح تدمى وتخترق الحزن .

هل كانت في حالة شك . . أم غيره . أم اتهام بالكذب ، أم بما يسميه علماء النفس (السايكوياتية) ، أم تسترا عن حالة اضطراب تعاني منها ، وتحاول من خلالها خلق جو من التوتر ومن ثم القطيعة التامة لتصل إلى الآخر .

كل هذه الأسئلة ، راحت تلاحقه . . وبدا أمامها حائرا دون أن يجد جوابا . كان القلق ينتابه . . فهو يدرك تمامًا أنه يحبها ويفتديها ، ولن يقبل لها بنساء الارض بديلا . . وهي تدرك هذا جيدًا ، تثق به ، غير أنها تبحث بين حين وآخر عن سبيل للمناكدة وللشك وللرفض والعناد الذى لامبرر له .. في حين يسعى هو وبكل طاقته بالتصريح بكل شيء لايريد أن يبقي على سر دون أن يقوله لها .. غير أنه يخشى عليها من لمحة قد تكون سببا في جلب الحزن إلى عالمها الذى عرف الكثير من الأحزان ..

والكثير من اللا استقرار العاطفي .. والذى جعلها تبدو له أحيانا وكأنها مصابة بالغلظة والخشونة والطبع الذى لا يعرف مناقشة الأمور بهدوء ..

إذن هل يمكن اعتبارها شخصية (سايكوياتية) ؟

طريقتها العصبية المتوترة ، ومزاجها المتقلب ، وغضبها السريع ، وانفعالاتها الدائمة التغيير . . تدل على ملامح تلك الشخصية .

كما أن حالتها المضطربة ، تغيرها السريع ، إصرارها على مواقف خاطئة ، هذياناتها . . إحساسها في كونها أحسن النساء . . رقة وجمالا وجاذبية وثقافة . . سحرها الذى يضفي على الجميع بهاء .. جعلها تحس بالتفوق ، وبالتفرد والتميز .

كان يحب فيها حضورها وألقها عن سواها . يعشق أحساسها العميق بالأشياء ، دقة ملاحظاتها ، الصدق النبيل الذى يرصع بهاء جبينها وقلبها وذاكرتها .. كلها .

كان يراها الإنسانة الأسمى ، والأقدر والأنبل والأكثر قدسية فى عالمه . كانت موشومة ، راسخة ، عميقة . تملأ شمس حياته ، زهرته الأثيرة ، كتابه المقدس الذى يحتضنه فى كل الأوقات . . طائره الغنائى أنفاسه الحقيقية التى لم يكن بمقدوره العيش دونها .

كان يجد فيها البؤرة التى تختزن كل أسراره وحبه وعمره كله .

يحكى لها ما لا يحكيه لسواها من خلق الله جميعا .

يحدثها بما يخشى أن يحدّث نفسه به .

هى مرفأه ، الذى يرسو عند ضوئه من عناء سفر حياتى مجهول ، حلمه الذى ليس بمقدوره أن يفكر بسواه.

وردة حياته ، عطره المميز ، ببهاء وجوده كله ..

تعرف هذا .. تعرف .

إذن هل كانت تنشد الغضب ، تنقاد إليه من أجل القطيعة .. تبحث عن الأسباب حتى تطيل المسافة ، وتعطل الحياة بينهما إلى الابد . ؟ !

ظل يفكر . يبحث عن أسباب وحلول ونتائج .. لكنه فى كل مرة يلتقى بها يجدها تحمل إصرارا لايستند إلى حقيقة ، عنصر الشك عندها يفقدها صواب رؤيتها ..

نعم .. يدرك أنها امرأة حساسة . الإحساس نباهة .

نعم .. يدرك أنها امرأة نقية .. النقاء عافية .

نعم .. يعلم أنها تحبه . . وتصطفيه دون الرجال . . الحب اصطفاء لا بديل عنه .

نعم . . يعرف أنها تعده النموذج . . النموذج له كل صفات خيِّرة تحلم بها .

نعم .. هي واثقة من صدقه .. وهنا المحنة .. هنا الجرح .

نعم .. نعم .. نعم .. كل هذا يعرفه . ولكن ما لا يعرفانه معًا .. أن حساسية الصدق فقد تفهم خطأ ، قد تدرك على نحو سلبى ، قد تدرك على نحو سلبى ، وقد تشوه ، قد تثير إشكالاً .. و .. وشكًا ، غيرة و .. ومن ثم حالة مرضية ، وتهمة تعمم على كل الرجال بما فيها هو .. وأيضا .. دون تمييزه عن سواه .

.. وقد .. أبعد هذا يا رجل .. يقول لنفسه .

.. وقد .. تمهل . ليس من السهل أن تفكر هكذا .

.. وقد .. تكون هناك أسباب .. للعزلة وللفرقة .. لا .. أقتل الشك باليقين .. واقتل المرض بالغبطة مع من تحب .

.. لكنها تتهمك بسواها .

.. لكنها تتهمك بالكذب .

.. لكنها تتهمك بما عليه سائر الرجال ..

... لكنها تتهم إنسانيتك بالفساد .. بالعاطفة الزائفة .

هل يعقل هذا .. هل وصل الشك إلى أقصاه بحيث لاتودعك ، ولا تتلمس النقاء فى عينيك .. ولا تحنو على أساك العميق .. العميق ؟

.. قالها بحنو .. بشهامة الرجل الذى تعرفه عنه .. حدثها عن امرأة لها فضل وكرم عليه .. كان عرفها قبل أعوام .. وظل السلام . تحية صداقة متباعدة لا تجمعها إلا مناسبات أعياد مختلفة .

.. قالها ... وأوجز .. حتى ألحت .

– أنجزت للمرأة عملها وفق ما استطعت .

– هل أوصلتها إلى مكان .. كم دامت جلستكما .. كيف قصدتك .. ؟

– لم أوصلها .. الجلسة قصيرة .. اتفقنا على المكان .

– هل تقسم .. ؟

– لا .. أوصلتها إلى مسكنها .. نعم أوصلتها .

لم يكن يريد أن يكذب عليها .. ليس من طبعه ومواقفه أن يكذب ..

لكن الحزن والشك والغيرة – كلها – ستجتمع إذا ما قال لها الحقيقة كلها .

غير أنها .. وعندما طالبته أن يقسم .. قال الحقيقة كاملة .

– هل شربت القهوة معها ؟

– لا ..

– هل دعتك إلى منزلها .

– نعم .. لكننى اعتذرت .

– لماذا .. ؟

– كان لى موعد عمل مهم .

– لولاه .. لما اعتذرت ..

وطالت الأسئلة .. وامتد الشك . . وصارت المسافة متسعة بين الصدق والكذب .. بين الشك والشك .

وبات البكاء فى عينيه خناجر وحرائق .

وبات الوضوح مرفوضا .. حتى اختنق اللفظ .. حتى صوت حنجرته .. رفضه :

لا أريد أن أسمع صوتك ..

– وسكت . السكوت فجيعة .. الفجيعة عتمة .. العتمة لا تعلن بهاء زهرة .. مادامت الزهرة تشك بعطرها .

أحس بالاختناق .. أحس أنه يمسك وردة قلبه . يعصرها ..

يعصرها حتى تموت .. حتى يدفن العطر .. ويصبح مضاعا فى عاصفة هوجاء .. لا تحترم أفراح العطر .. فيما كان يحس أنه يكوّن مع وردته امتزاجا كليا يصعب .. يصعب تمامًا فصله .

إيه .. إيه .. سحب حسرة بين أعماق قلبه .. تساءل :

هل .. هل .. هل يمكن للوردة أن تشك بعطرها . هل تشك الشمس بنورها . هل يشك النهر بأعماقه وبضفتيه ..

هل تشك الرئة بأوكسچين الحياة ، هل تشك النجوم بسحرها ..

حتى الجدران .. الجدران نفسها . أنها تحفظ أمن وسلامة البشر ..
ولو تحقق هذا الشك .. إذن . إذن من حقها أن تشك فيه .

في ركونه إلى امرأة أخرى سواها .

واستجاب النوم القلق .. الحزين لأقراص الفاليوم .

السعادة تأتى متأخرة دائمًا

هو وجه واحد وليس لها أحد سواه وجه تعرف ملامحه جيدًا ، تعرف فيه الحزن والغضب والفرحة والمرض والترقب . ملامح ليست فى سمرة احد وليست فى شقرة احد . فيها من السمرة تحديها . وفيها من الشقرة السماحة والنقاء والهدوء وجه .. هو الدنيا بكاملها ، زمانها كله ، وعالمها الكلى . وليس لها شاغل سوى ترقب لحظات التباهى به .. والجلوس متأملة به هناءها كله .. وسعادتها فى آخر العمر . تعلمت معه حروف الهجاء والأرقام .. ورسمت معه الخرائط وحفظت سورة الفاتحة ، وعرفت شعراء المعلقات .. والحروف الانكليزية . نشات به ومعه ومن خلاله .. صارت فرعا من شجرة زرعتها بنفسها .. خيطا من نور أشعلته . وقتا من ساعة تضعها أمامها .

كان شاغلها فى الحلم واليقظة .. فى الضوء والعتمة .. تباهى نفسها به . وتزهو فى اكتماله أمام الجيران .

كانت تكبر به .. وتشع فرحا وحزنا وألقا وانطفاء .. من خلاله . وحين اكتمل به الشباب .. صارت قلقة .

قلقة من نظرة إليه . تأخذ منها شبابه . قلقة على سمرته المتحدية .. وخافت أن تقطفه الحرب .. حين ذهب إليها جنديًا .

خوف مشروع .. قال فى نفسه .. وهو يحدق فى عينيها الكئيبتين .

خوف صار يمتد كالليل .. يملأ المكان ، كالمحيطات .. يغرق كل يابسة .. كالصحراء تمتد إلى ما لا نهاية .. عبر مد البصر .. الحرب .. الحرب ..

الطبول والبارود والعفن والسكاكين والدماء والدمار .. الخوف والترقب والقلق والمرارة .. الدموع والأسى والأوجاع ..

كل هذه المشاهد وقعت كلية أمام ذاكرتها .. فأحست بالاختناق وأن الهواء قد انصرف عن المكان .. عندئذ استعصى عليها الصراخ ، واستسلمت لحزن عميق .. عميق .

خطواته .. حذاؤه الخشن وملابسه الكاكية التى حاول مخترعو اللون الأخضر فيها .. بعث الحياة فى من يرتديها .

ملامحه .. المتحدية والسمحة معًا..

شبابه .. وهو يزهو بالرجولة ويدق أبواب المستقبل السعيد ، بزوجة يحلم بها وطفل يلاعب فيه حركاته وضحكاته .

الخطوات والملامح والشباب .. اجتمعت كلها فى تلك اللحظة التى دق بها الباب ، وأصوات هامسة ، لاهثة .. كانت تحسها هناك .. خارج الباب ..

كان النهار فى آخر رحلته .. حين امتد إليه وشاح العتمة ، وبدأ الضوء الشاحب يسعى للتسلل إلى عمق الليل الذى راح يتسرب ويأخذ مداه .. فى ذلك الوقت ، بدأ صرير الباب مسموعا حين فتحته .. كان أشبه بالدوى البعيد ، وأقرب إلى أن يكون أنينا موجعا .

طغى الهمس .. ووصل إليها مفجوعا ، محتقنا ، خائفا ، فقطع فيها كل حواسها .. عطلها عن الحركة ، وتيبست فى عينيها دموع أرادت أن تواسى بها نفسها .

دخلت .. الملامح والخطى والشباب إلى فسحة الدار دفعة واحدة ..

قالت :

– أرجوكم دعوه يقرأ .. فى الأسبوع القادم ، ستكون امتحاناته .. دعوه يعرف الخرائط .. ويفرق الضاد عن سواها من الحروف .. ويجمع الأرقام ويبارك نفسه بالطهر .. ارجوكم .

سكن الجميع أمام المرأة وهى تقول قولا حسنا وتباهى نفسها بالقادم الذى احترقت حضوره ، واستعدت لإسعادة .

مضت دقائق .. والأم ساكنة .

قالت .. أرجوكم أضيئوا كل المصابيح .. أضاف على عينيه من التعب والاجهاد ، فقد سهر ليلة أمس وظل يقرأ حتى آذان الفجر ..

سكتت .. وعادت تقول :

ولكن .. يا بنى ، نم ، نم قليلا ، حتى تذهب إلى قاعة الامتحان بنشاط ويقظة وتجيب عن الأسئلة إجابات صحيحة .

خيم صمت ثقيل ، قطعه صوتها:

– ها .. تخاف أن يأخذك النوم ولا تستيقظ .. ها ، اطمئن .. لقد تعلمت قراءة أرقام الساعة ، سأوقظك فى السادسة .. نم ياولدى .. نم قليلا ..

وفى ترقب العيون حولها ، نهضت بنشاط غير مألوف ، وراحت تطفىء المصابيح واحدا .. واحدا .. وراحت تخاطب من حولها .

– معذرة ، معذرة ، ولدى اعتاد أن يطفىء الضوء حين يريد أن ينام .. وراحت تتحدث بهدوء !

– مرة سألته : لماذا تطفىء الضياء ؟

وقد أجابنى قائلا :

– حتى أحلم .. الحلم يضىء ..

ومنذ سمعت قوله هذا .. اعتدت أنا أيضا أن أطفىء الضوء عندما أريد أن أنام .. حتى أحلم مثله ، وأجعل أحلامى تضىء .

استعد أحد الحاضرين لأن يسألها :

– وهل كانت أحلامك مضيئة حقًا ..

غير أنه كتم سؤاله ، حين وجد الأم تطفىء المصابيح .. وتستلقى لتنام قريبًا من ابنها الراقد .

همس خافت ملأ مساحة الدار .. ومعه نضهت الأم ..

قال أحد الحاضرين :

– يا أمنا .. ساعدينا على أن نجعله ينام ..

– ووقت الامتحان .. ؟

– راحته أهم .. قال أحدهم .. وأعقبه آخر :

– والامتحان قد أجل موعده ..

– حسنا .. حسنا ..

وراحوا يحملون اللحد .. وهى تحدق فيهم :

– أرجوكم .. لاتقلقوا راحته ، لاتتحدثوا كثيرًا ، ابنى يستيقظ بسرعة .. أرجوكم .. لاتشعلوا ضوءًا .. لئلا يستيقظ .. ومضت تسير معهم .. وهم يبتعدون باللحد ..

وكعادتها .. ظلت تحترم مواعيد يقظته .

وتتبارك فى صورته .. وسمرته المتحدية ، وشقرته السمحة .. وتعد له طعامه وشايه ، وتجلس مع صورته .. وتشتهى أن تأكل بلذة .. حتى إذا دق الباب ذات مساء آخر .. بعد عام أو أكثر ..

تناهى إلى سمعها الهمس نفسه ، همس صاخب .. وباب يبعث صريره ، صوت أنين .

و .. شيء يدخل .. لحد آخر يستقر فى فسحة الدار ! عجبت الأم ، وراحت تحدق فى وجوههم .. دون أن تجد إجابة من أحد .

– ولدى نائم .. نائم منذ وقت طويل، فلقد أجلت الامتحانات .. وهو يحلم .. الآن يحلم ، ، وأحلامه تضىء .. فلماذا تضيئون الدار .. لماذا تضيئون غرفة نومه ؟

إنه ليس هنا .. هذه المرة اختار أن ينام فى الفضاء أو يتغطى بالعشب . لاتنتظروه من فضلكم .

قال أحد الذين أحضروا اللحد :

– لقد أوصانا أن نوصله إليك .

– أو صاكم .. ؟ !

– نعم .. نعم .. أوصانا .

– ولدى أوصاكم ؟ !

– نعم .. أوصانا . . ألست أمه ، لقد وجدنا فى جيبه عنوانك ؟

– ولدى حضر بنفسه منذ عام .. واختار أن ينام ويتغطى بالعشب .

– ولدى وحيد وليس لى ولد سواه !

أصرّ الآخر .. وبرقة قال :

– إنه ابنك يا أمنا .. هذا اسمه وعنوانه .. إلا تحبين ابنك الوحيد .. ؟

– يا ولدى .. ملامح ابنى سمراء متحدية وشقراء سمحة ..

– إنه بعينه ..

– ما دامت هذه ملامحه ، وهذه رغبته في أن يزور أمه بعد عام من النوم بعيدًا عنى ، تحت غطاء العشب .. فأهلاً به .. لقد جاء نائمًا كمجيئه الأول .. أرجوكم دعوه يأخذ راحته .. دعوه يحلم .. اطفئوا المصابيح .. ودعوة لأحلامه التى تضىء .

ورقدت .. قريبة منه مستسلمة لأحلامه وأحلامها معا لكى يضيئا المكان . ثم استيقظت على همس محموم .. وجمع يستأذنها فى حمل اللحد .. وراحت تجر خطاها إلى جانب الرجال الذين حملوا اللحد . والنسوة اللواتى يحطن الأم . . التى هتفت .

– أرجوكم لا تخطئوا سريره ..

واستدركت قائلة .

– ولكن أرجوكم يا أولادى .. دعوه هذه المرة ينم على سريرى .. سرير ولدى الوحيد مشغول بالأحلام المضيئة .. والعشب المندى .. وسريرى شاغر وغدًا سيأتى الربيع ويتغطى ولدى بالعشب .

هاجس محموم راح يتقاسمها هذه المرة ، هاجس يسألها ويحاورها .

– من هو النائم هناك تحت العشب .. القادم الأول ، أم الثانى .. ؟

وظل السؤال يضرب جذوره فى ذاكرتها وقلبها وإحساسها المشحون بالكبرياء والأحلام والرؤى .. والدفاتر والحبر والامتحان والحذاء الخشن والملابس الكاكية بلون العشب .

وراحت تستجيب إلى أحلامها المضيئة .. ولد وحيد .. وفى الحلم آخر .. اثنان .. فليكن .. الحلم يتسع للأبناء ، والعشب يتسع للنوم ولليقظة وللأحلام .

ودق الباب ذات ظهيرة .. والشمس قد جعلت من كل الأشياء تشع .. وحين فتحته هذه المرة .. انتابها إحساس غريب .. أن حركة الباب تتسع لأكثر من المساحة التى حددتها .. الباب يندفع قبل أن تحركه بيديها ، وأن رجلا يدخل مرحبا .. ويأخذها بالأحضان ! ! دفعت الرجل .. وانتابها شعور بالخجل والغرابة والدهشة .. وهتف بها :

– أمى .. أمى .

حدقت فى عينيه ، حدقت فى ملامحه ، هذه السمرة المتحدية تعرفها ، وهذه الشقرة السمحة تعرفها .. واقتربت منه .. سألته :

– هل أنت متعب يا ..

– أماه ..

– اخلع قميصك .. لابد أنه مبلل بعرق الظهيرة .. سريعا خلع الشاب قميصه .. وأخذته الأم ووضعته على أنفها .

– أنت .. متى استيقظت .. من أيقظك .. من أطفأ أحلامك المضيئة .. ؟ نم .. نم يا ولدى .. أعشاب الصيف تجف .. لكنها ستنبت ثانية .. صدقنى .. نم .. لا تخشى شيئًا ، الامتحان أجل .. هكذا علمت .. وظل الابن يحدق فى عينى أمه .. قال :

– أمى .. أنا لم أكن نائما .. لقد جئت من الامتحان الصعب الآن ..

– وهل كانت إجاباتك صحيحة .. ؟

– بالتأكيد ..

– ومن أيقظك .. ؟

– أمي العزيزة .. ألا تعلمين أننى لا أنام فى الأيام الصعبة .. ألا تعلمين كم يأخذ الامتحان منى .. من طاقة وجهد ؟

– ولكن لماذا تأخرت كل هذه المدة الطويلة .. ؟

– كنت منشغلا باليقظة .. لم أكن أحلم .. كنت فى امتحان شاق ..

– وهل أنت سعيد الآن .. ؟

– سعيد .. سعيد جدًا ..

سحبت الأم أنفاسها وقالت :

– آه يا ولدى .. لماذا تأتى السعادة متأخرة دائمًا ؟

واحتضنته ، تشممت عرقه ، وحدقت بعمق فى سمرة متحدية ، وشقرة سمحة .. قالت :

– لقد صار لى ثلاثة أبناء : اثنان تضىء أحلامهما ، وثالث يضىء بيقظته .

الصـــدأ

الزمن وضع أسنانه على المائدة ، هل تستطيع الورود أن تقترب ؟

كنت أرقد فى الطابق الثالث للسرير الحديدى .. أحدق فى سقف ردهة السجن ، القريب إلى وجهى .

كنت أنشغل ساعات طويلة وأنا أفكر فى الطريق الذى أوصلنى إلى هذا المكان الذى لا عهد لى به من قبل ، ولم أكن لأفكر فى يوم من الأيام أن أكون أحد نزلاء السجن ..

فقد اخترت منذ صباى الاستقامة ، والابتعاد عن المشكلات ، وعن كل ما من شأنه أن يعرضنى إلى مجرد تلقى الأسئلة .

وكبر معى هذا السلوك .. الذى أنفذ بموجبه القوانين والأوامر بكل حرص ودقة .

ولم يعرف لسانى كلمة « لا » .

كل شىء قابل للتنفيذ .. أما اتخاذ المواقف والاعتراض على أمر ما ، فلم تكن تعنينى . أنا رجل يجاور الجدران حين يسير .. والذى يشغل منضدة أكبر من منضدتى ، أعلم منى وأكثر خبرة ، وصاحب الكرسى الدوار أهم منى فى مهامه الوظيفية .

لاعلاقة لى بحديث خارج العمل الوظيفى الذى أقوم بإنجازه كموظف فى قسم الحسابات .. ولا أوقع بقلمى على معلومة حسابية ما لم أكن قد راجعتها عدة مرات .

كان زملائى يتهموننى بتأخير المعاملات ، لا عن إهمال كما يقولون وإنما عن حرص مبالغ فيه .. ولكى أزيل عن نفسى هذه التهمة ، التمست السيد مدير القسم أن يأذن لى بإنجاز ما يتراكم من معاملات وإكمالها في فى البيت ، وقد وافق السيد المدير مشكورًا .

إلا أن قلقى على الاحتفاظ بالكتب الرسمية الحسابية راح يشغلنى ، فأنا أخشى عليها من لمسة لأحد أطفالى ، أو نقطة شاى تشوه بعض الأرقام .

كما أن صوت زوجتي الصائت ، كان ينكد على دقة عملى .. وكلما كنت أوصيها خيرا بى . لئلا أسهو أو اقع فى خطأ حسابى ، كانت تزداد ضراوة ، مما جعل إمكانية استمرارى على إنجاز عملى فى البيت مسألة صعبة ، بل ومستحيلة ..

وفكرت بالبقاء فى الدائرة للعمل بعد أوقات الدوام ، دون أن اتقدم بطلب مكافأتى عن الساعات الإضافية ، إلا أن طلبى رفض ..

وحسن رفض طلبى ، وإلا من سيكون المسؤول عن فقدان حاجة أو كتاب رسمي من الدائرة ، غيرى ، أنا .. آخر من يغادرها ؟ !

أحدق فى السقف القريب إلى بصرى .. وأستطيع أن أتلمسه لو وقفت على قدمى فوق السرير .. إلا أننى أفكر بهذا العمل .. خشية تأويل لمستى لم أكن أعرف أن كل لون السقف مصفرًا بسبب كثرة التدخين ، أم أنه مطلى بهذا اللون المريض .. ؟

كنت دائم البحث عن تفسير لمعنى وجودى هنا .. وكان أكثر ما يشغلني في هذا التساؤل طبيعتي الدائمة عن تفسير لنتائج الأشياء ..

ويزداد إلحاحي حين يتعلق الأمر بي ، أنا الذى اخترت لنفسى الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يقودني إلى مشكلات .. لا أريد أن أكون طرفا فيها وبعد طول تساؤل .. أصل دائمًا إلى إدانة نفسي . فلقد فعلتها بالتأكيد ، والدليل على ذلك موجود .. والصوت الذى سمعته هو صوتى ، وليس صوت أحد سواى .. وهو شاهد إثبات وضعت بموجبه فى هذا السجن .

الكلام لى .. لا أنكر ذلك .. ولكن متى تجرأت على قوله ، ومن عمد إلى نقله للجهات الحسابية العليا .. ؟ !

أنا لم أفكر بمخاطبة الجهات الحسابية السفلى والوسطى .. كيف إذن تجرأت بالحديث عن الجهات الحسابية العليا ، ووجهت نقدًا إلى معاملاتها وأرقامها .. وتكلمت بشكل موتور وعنيف وحاقد وفيه قدر كبير من الشك فى نزاهتها وصدق الأرقام الواردة فيها ؟

ثم .. ثم ..

ثم ماهى العلاقة بين أرقام حسابية للجهات الحسابية العليا وتنهداتى العاطفية .

إنها مسألة تحيرنى تمامًا ، ولا أجد لها جوابا .. ولا يمكن أن أبوح بها لأحد كى يساعدنى فى وضع حلول لها .

الصوت هو صوتى .. والكلمات التى سمعتها فى المحكمة عبر جهاز التسجيل تثبت بما لا يقبل الشك أنها تعود ، تعود لى وليس لأحد سواى

والتنهدات المتبادلة مع زوجتي والتي لا تأتي إلا في أوقات متباعدة هي تنهداتنا معًا .. ؟

من اندسّ في دفء فراشنا ؟

من قتل عليّ أحلامي وسرق أفكاري وجاء بها جاهزة إلى الجهات الحسابية العليا ؟

السقف المريض الذي أحدق فيه مليًا لايجيب .. ولعله منشغل يبادل السجناء حالة الأوجاع والامراض وصفرة الموت .

السقف الذي يقترب مني أو أقترب منه .. لا اعرف ، يتهم .. !

أبعد شبح التهمة . أقاتلها أصرخ فيها .. لكن شيئا فيّ كان يتهم ويؤكد .. يؤكد .. أن الدفء الذي كان يحتويني وزوجتي ، كان زائفا ، كان دفء مرض .. والتنهدات كانت كاذبة .. مثلما كانت حسابات الجهات العليا زائفة ..

سنوات لا شاغل لي فيها سوى الأرقام ..

وسنوات من العواطف .. لم تكن سوى حمى مرضية .

سنوات من الصمت المكتوم تبوح به احلامي في ليلة ما ، في لحظة ما .. فإذا الصدأ يكتشف .

في فترة المشاهدة الأخيرة ، كنت أقرأ الجريمة في عينيها .. فتشاغلها عني .. تسألني : ما بك تحدق فيّ كأنك تراني لأول مرة ؟ .

ولا أجيب ..

كان صمتي يجيب .

كانت تعرف أنني قد عرفت وكان الصدأ الذى يملأ خلايا دمها يحاول أن يهرب منى .. وأنا أتعلق به ، أكتشفه .

أسائل نفسي : هل كنت زوجا مغفلا ؟ ومن جراء هذه الغفلة أستحق كل هذا العذاب .. وهذا السجن ؟

هل كان عليّ أن أبوح ..

هل كان عليّ ألا أحلم ولا أتنهد ، فى أوقات يجوع فيها الإنسان إلى أن يستشعر لحظات امتلاكه لحظة اللذة ؟

هل كان عليّ ألا أصدق صمت جدران غرفة النوم الأربعة وأكذّب أننا معا.. أنا وزوجتى وشهوة اللذة والأحلام ؟

الآن عرفت ..

أن الصدأ يمكن أن يدخل حواسي جميعًا .. فـ .. لأنتبه . لأنتبه .. قد يصل الصدأ إلى أنفاسى .

و..

تنبهت إلى صوت على مقربة منى يقول :

– ماذا كنت تخطط في هذه الليلة .. لقد كانت عيناك مفتوحتين ؟

ودهشت ..

كان الصدأ يراقبنى ويكشف أسرارى .

١٩٩٠/١٢/٢١

أوجـــاع

* استيقظت من نومى فزعا .

حدقت عبر النافذة المطلة على زقاق فرعى ، فازداد خوفى .

كانت الظلمة والسكون يحيطان بى .

أشعلت المصباح .. فانبعث ضوء شاحب يوحى بالمرض .. أطفأته ، وثبّت غطاء محكما حول رأسى وجسمى .. فضاقت أنفاسى .. أضأت المكان ثانية ، واستسلمت للشحوب .

تناولت قدحا من الماء وحبتين من الأسبرين .. وبذلك أصبح رقم الأقراص التى تناولتها اثنى عشر قرصا ، دون أن يكف رأسى عن نبضات الصداع النصفى ..

أمسكت بشريط ، وجعلت أحاصر رأسى به ..

الأطباء نصحونى بالنوم فى الظلمة ودون وسادة .. وفضل بعضهم وضع عدة وسادات اسفل قدمى ..

نفذت النصائح الطبية كافة ..

وأذكر أننى غفوت قليلا .. ثم استيقظت .

كانت يقظتى مرعبة ، وازدادت آلام الصداع بعد حلم غريب لا أعرف كيف لى أن أستعيده .. لكنه كان يلاحقنى ويضرب فى تفاصيل رأسى كلها .. يرفض أن يغيب وأن ينسى .

دفنت رأسى فى العتمة .. وراح الحلم يستعيد حضوره ..

***

كنت أجلس عند حافة عيون مائية مظللة بالأشجار التى استنبتتها الطبيعة الجبلية دون تدخل من أحد ..

أشجار ظلية فى صيف قائظ ..

جلست هناك .. ودموعى تنهمر ..

كنت أعرف هذا المكان وأقصده دائمًا .. أعشقه .. وأعشق فتاة تمر بالمكان كل صباح ، تأخذ حاجتها من ماء العيون ، بعد أن تغسل وجهها وتبلل شعرها وتكشف عن جزء من ساقيها .. عندئذ كنت ارى ماء العيون مبتهجا ، ملتمعا ، فرحا ..

الفتاة غابت هذا الصباح .. والصباح الآخر .. والآخر .

قصدت ماء العيون أساله عنها .. فهالنى ما رأيت .

بعينى وليس بعيون سواى رأيت .. رأيت .

رأيت عيون ماء اسمنيه !

تلمست الأسمنت .. كان صلبا ، جافا .. بلون الرماد ..

والمكان يعانى من عطش .. والأشجار تتوسل قطرة ماء .

بكيت ..

لم أكن أعرف أن كنت أبكى عيونا مائية قد تحولت إلى عيون من الأسمنت ، أم حبيبة لم أعد أراها ، ولا أعرف شيئا عن أمرها ..

خيّل لى أن حبيبتى .. قد جفت حياتها كماء العيون .. دفنتها قسوة الأسمنت .. فكفت عن الغناء ، وسكت ماء العيون عن الحركة .

... وما زال حلمى فى أوله .

يبدو أننى قد غفوت ، مدة ليست بالقصيرة ..

أريد أن أنسى حلمى .. لعل الصداع يغادرنى .. إلا أن الصداع والحلم كانا يلحان علىّ .

... وأنا أبكى .. على حياة قتلها الأسمنت .. فوجئت بمن يقتادنى بخشونة .. دون أن يسألنى ..

حين سألت ، راحت أكف خشنة وقوية تضرب فوق رأسى وتلكمنى فى وجهى وتكسر أضلاعى ..

لم أدر بماذا ضربونى ، ولا أعرف كيف وصلت إلى هذا المكان الأنيق ..

سألنى الأول :

– ماذا كنت تفعل هناك ؟

ولم أكن أعرف .. ماذا يقصد بكلمة « هناك » ، كما لو يكن بمقدورى أن أقف وأن أجيب ..

لكننى كنت أتذكر الحلم بتفاصيله كلها ..

.. ها هم .. قد أخذوا لسانى ، وراحوا يهنئون به .

كان هتاف لسانى يضيع بين ألسن كثيرة ، لكننى كنت أحس به .. أحس أنه مقطع إلى أوصال مزمارية الشكل تبعث أصوات أنين .

.. وأراهم ، يأخذون أصابعى ، ويبصمون ..

أصابعى .. كانت تتحول إلى أغصان .. الأغصان تكبر ، تمحو الكلمات التى جعلونى أبصم عليها .. أحببت أغصان أصابعى .

... وجاءنى هاتف غريب يقول هامسا :

– اعطنى عينيك .. أبك بهما .

– هل سمعت بأحد يَعطى عينيه ليبكى بهما غيره ؟

– أنا .. فقد جفت دموعى .. وأنا أحسدك على عينين تبكى بهما .

صار المسؤول عن حصارى .. صديقًا .

سألته عن نفسه .. فلم يبح بشىء .. إلا أنه أهدانى سيكارة وأشعلها لى ، وأوصانى أن أدخنها بسرية تامة .. وذهب .

فى عمق الليل .. اقتادنى الرجل إليهم .

سألونى :

– لم تر عيون الأسمنت .. أليس كذلك ؟

– ولكننى رأيتها .. !

– لم ترها ..

– رأيتها ..

– وتكذبنا ! ؟

سكت ..

ولم أدر .. أننى أودع عينى .. اللتين حسدنى الحارس عليهما حين تساقطت دموعى ..

فقأوا عينى ..

قلت فى نفسى : بصيرة عقلى تكفى .

أودعونى الظلمة .. جاؤونى بخبز عفن ، وماء له طعم ورائحة ..

ولم أكن أبصر لونه .. لكن أنفي عافه ، فقد كان نتنًا . مرة أخرى .. اقتادني للسؤال :

– أنت تشم رائحة المطر وهي تتساقط على الأرض وتغسل الأشجار .

أكدت بزهو لم أقصده .

– وأشم الأزهار عن بعد .

– وتميز بين ماء العيون .. والماء الراكد .

.. وعرفت أنهم يقتادونني إلى جواب حاسم .

اخترت السكوت .. فجدعوا أنفي .. وأعادوني إلى المكان .

حلمي يقول .. يقول .. كان أنفك يتجول في كل مكان .. يشم رائحة جريمة هنا .. وأخرى هناك .

مضت ليال قاسية .. لم يعد الحارس يزورني .

سألت الأم في روحي .. وأجابني .. هناك شيء آخر غير الخوف .

– ما هو ؟

ولم اهتد إلى جواب .

وهمست في أذنه وأنا اتحسسه بجسدي .. عفوًا بما تبقى من أعضاء جسدي .. قائلاً .

– لم أعد أراك .

لم يجب .

– لم أعد أراك .

.. وهو يدفعني بعيدًا عنه ، ممسكا بسلسلة تصلني به :

– اعذرني لم أعد أحتمل رائحتك .

وذاب صوتي عن الجواب .

سألوني .. والليل الشرير يكتم كل شيء .

– لم تسمع ، لم تر ، لم تشم .

أسمع ماذا .. ؟ أو مأت بحركة رتيبة من رأسي .. ففهموا سؤالي .

– غناء العصافير عند ماء العيون وعلى الأشجار القريبة منها ..

لم تسمع أصواتنا .. كان المكان خاليا من العيون والأشجار .. لقد سوّينا كل شيء ..

احترت هذه المرة هل أسكت أو أجيب ؟

شيء واحد .. أحلاهما مر .. لامعنى في ما تبقى لي من حياة ..

كيف لهم معرفة جوابي .. وانا بلا فم ؟ هززت رأسي المثقل بالأوجاع .. عندئذ فقدت أذنيّ ..

– كنت أحس بسرورهم وهم مطمئنون لكوني لم أعد أعرف الصراخ .

في المكان المجهول ، كنت ملقى مثل خنفساء تكسر كل شيء فيها .. فيما كان ضوؤها السحري يشع في الظلمة .

كنت أدرك تمامًا ، وهم يأخذون كل حواسي ، أنني ما زلت أحيا .. وذاكرتي معي .. ذاكرة متعبة ، قلقة .

أذناي .. تسجلان صرخات العذاب ..

عذابي وأنا أقاوم الموت ، أنين أشجار قطعت جذوعها .

هدير ماء العيون وهي تندفع متجاوزة ، متحدية الصخور .

.. وحلمى يعذبنى ، لا تنفك صوره عنى .

سألونى .. عند الفجر .. وقد عرفت الزمان ، خبرته ، حين كانت أنفاس الصباح المبكر تبعث نسائم عذبة .

استبشرت بالفجر .. رغم أنه ارتبط فى ذاكرتى بالقيود ..

فقلت فى الفجر تبدأ البشائر أيضًا .

وقبل أن أعيش اللحظات الفجرية بهدوء .. أحسست بمن يمسك برأسى ويدقه فى الجدار .

هاتف داخلى كان يسمعنى صراخهم :

– اعطنا رأسك .. نفكر به .

كانت المعانى تشع فى رأسى كالشموس .. فأحسست بالفخر ، إننى ما زلت أحمل رأسًا أفكر به .

كنت أود أن أقول لهم ..

– من لا رأس له ، ليس بمقدوره استخدام رؤوس الآخرين ..

.. ودقوا على رأسى .. رأسى يتهشم .. لكنهم لم ينتظروا طويلا قطعوا رأسى وضربوه بأقدامهم ..

أحسست برأسى ، يتحول إلى رؤوس عديدة .. رؤوس تتجول فى كل مكان .. رؤوس بمقدورها أن تبوح وتكشف وتعلن ..

الرؤوس صارت رجالاً ..

الرجال زرعوا الأشجار .. كسروا الأسمنت فتدفق الماء مندفعا، معانقا وجه الحياة .

و .. رأيت حبيبتى تقبل من بعيد ، تلوح بيديها .. تلوح بمنديلها الأحمر.

عندئذ استيقظت من حلمى وأنا بين ثقل الأوجاع ، واللهفة إلى أن أمسك بالمنديل الأحمر.

وقائع ما جرى
بين السلطان ووزيره

فتح السلطان الرسالة السرية التى وصلته توًا ، وتأمل سطورها . للوهلة الأولى أزاح عنه غشاوة التجنى ، ولكنه حين استعاد القراءة الثانية والثالثة ، اقتنع بكل ما ورد فيها .

وفكر مليًا : ما هو الإجراء السليم الذى ينبغى اتخاذه فى مثل هذه المسألة التى تتعلق بشخصه مباشرة ؟

ضجر السلطان ، وحاول أن يتجاوز غضبه ، فقد يكون نتيجة القرار الذى يتخذه فى صالح خصمه .

تأمل جوانب المسألة ، وناقشها مع نفسه من عدة وجوه ومن عدة زوايا .. من الداخل ومن الخارج .

استعاد صورة وزيره .

كان الوزير يظهر حلاوة فى الطبع ، وحبًا غامرًا لم يألفه عند بقية وزرائه .

كان الوزير فى خدمة السلطان . وقد عرف عنه أنه كان أول من يشعل سيكار السلطان حال أن يقوم بالتدخين . كانت تلك مهمته ،

لا ينافسه فيها أحد .. حتى عرف عنه أنه صاحب قداحة السلطان . وكان شديد الاعتزاز والحرص على أن يكنى بهذا اللقب .

وتوطدت الثقة بين السلطان ووزيره ... حتى أصبح الوزير ظلاً لسيده السلطان ، يتشبه به ، ويتخذه قدوة حسنة ونموذجًا رفيعًا يسير على هديه .

كان يماثل السلطان فى ضحكته السمجة ، وجلسته المعتدة ، ووقفته المكابرة ، وشعبيته المبتذلة .

ينقل عنه أقواله ، يحفظها ، ويوردها على لسانه بكل إجلال وتكريم وتقديس .. لا يشك فى صدقها ومدى تطابقها مع الواقع . المهم عنده أن كل ما يقوله السلطان قانون حق ، لا نقاش فيه ولا اختلاف فى شأنه .

كان السلطان يلمس رأس وزيره بود ، والوزير ينكمش خجلاً ، يأخذ يد السلطان الحانية ويقبلها .

ولما كان الوزير لا يطالب بشيء لا لنفسه ولا لأحد من قومه ، انطلاقًا من قاعدة يؤمن بها ، وهى أن عيون السلطان بصيرة ، ولا يخفاه شيء ليذكره أحد بها ، كما أن حكمة السلطان هى غاية لا يدرك عمقها وأهميتها سواه .. فعلام إذن يشغل السلطان بما يعرف ، ولماذا يجعل السلطان يستاء منه مثلما يستاء من بقية وزرائه بسبب كثرة مطالبيهم وتعدد مشكلاتهم ، وعدم توفر الحكمة لديهم لاتخاذ قرارات عاجلة أو متأخرة حسبما يشاؤون ؟

ولأن الجميع من أفراد الحاشية وحراس ووزراء السلطان يعرفون المكانة الحسنة التى يشغلها الوزير .. مشعل سيكار السلطان ، اعتبروا كل ملاحظة منه أمرًا ، وكل إشارة منه إنجازًا ، فارتفع شأنه ، وازدهى مكانه قرب السلطان .

وذات مساء خريفى ، انحنى الوزير ، وانكمش عند ركن من كرسى السلطان ، وأخذ يترقب تناول السلطان لسيكاره ، كى يبادر إلى إشعاله كعادته .

لامست أصابع السلطان رأس وزيره مثلما يلمس قطة أليفة .

عندئذ قبّل الوزير الأصابع المقدسة للسلطان .

ابتسم السلطان ، وسأل وزيره بود :

– منذ أن عيّنت يا وزيرى وأنت لم تتقدم إلىّ بطلب .

وقبل أن يكمل السلطان عبارته ، أجاب الوزير بكل خشية وسكينة :

– أفضالكم علينا كثيرة يا سيدى السلطان ، جلّ مقامة .

ارتاح السلطان لإجابة وزيره ، وصمت قليلاً ، ثم قال :

– ما رأيك بأن تكون سفيرنا فى أكبر بلد فى العالم ؟

سرّ الوزير فى داخله غير أنه قال :

– وكيف أستطيع صبرًا على فراق سيدنا السلطان ؟

قال السلطان :

– إن هى إلاّ مهمة لا يستطيع إنجازها سواك وترفه فيها عن نفسك ثم تعود إلينا .

– الأمر لمولاى السلطان ، فكل ما يصدر عن حكمته خير للرعية .

– إذن جهز نفسك للسفر .

– أمركم مجاب سيدى السلطان .

***

هناك .. فى عالم بعيد مضيء .. وسهرة معطرة حتى الصباح ، جمعت الوزير المدلل مع عدد ممن شملهم كرم السلطان ، وهم فى الخارج يمرحون . رحبوا به لمناسبة تواجده معهم ، وتوليه سفارة بلادهم .

ولما كانوا يعرفون مدى اعتزاز السلطان بوزيره ، وأن وجوده بينهم لا يتجاوز الترفيه .. ازدادت حفاوتهم به .

وهناك اتكأ الوزير السعيد فى مقعد وفير ، وطاب له المقام ، ولعب برأسه الخدر ، فأحس بأنه طليق ، وراح يتحدث فى أمور شتى ، والجميع منصتون له .

قال : ألست أولى بمكانة السلطان من ولى العهد الفنى ؟

ورافق تساؤله ترقب إجابات من معه . وعندما صمت الجميع ولم يبح أحد بجواب ، كرر السؤال على أسماعهم ، وأضاف يقول : ماذا أفعل بمحبة السلطان إن لم أكن بديلاً عنه بعد مماته وهو أمر ليس ببعيد ؟ !

كان أحد الجالسين يرقب الوجوه المحيطة به واحدًا واحدًا ، وجهازه السرى يعمل بكتمان .. والوزير يطلق تساؤلاته ويزيد فى كل مرة عبارة جديدة .

والجالس المترقب ، سعيد بالجلسة ، شديد الإصغاء والانتباه .. ومع أنه استاء من صمت الآخرين إلا أنه فرح بصيد كان يترقب الحصول عليه منذ أمد طويل ، فقد كان يطمح إلى كرم سلطانى ، وقفزة سريعة فى سلم السعادة وبلوغ أقصاها .

***

انقضّت السهرة . وقبل أن يستيقظ الوزير من ليلته الباذخة ، كان صوت الوزير مع رسالة توضيحية تتوزع بين أسماع وبصر السلطان .

غضب السلطان أيما غضب ، وفكر بقطع رأس وزيره على عجل إلاّ أنه استعاد ببصيرته اللماحة ، فمن شأن غضبه ؛ جعلِ الوزير شهيدًا من شهداء المعارضة ، ويصبح دمه مثلاً تتناقله الأفواه ويتباهى به أعداء السلطان للدلالة على البطش والطغيان .

فكر مليًا ، ووصل إلى قناعة جديدة .

***

أرسل بكرسى أثرى ومنضدة كتب لهما الخلود زمنًا طويلاً إلى وزيره السفير ، وأبلغه بوضع الكرسى والمنضدة فى مكان مهم لكى يكونا فى متحف خاص ، فالكرسى والمنضدة كما ذكر السلطان يعودان إلى جده سلطان البلاد المعظم .. ولهما قيمة معنوية كبرى لاتقدر بثمن .

وأنجز الوزير وصايا سيده السلطان المبجل على عجل .

وكتبت الصحف فى تلك البلاد العامرة تفاصيل عن الجذور التى ينتمى إليها كرسى ومنضدة المغفور له سلطان البلد الحليف ، وصار للكرسى والمنضدة صيت لدى أولئك الذين تعنيهم التحف القديمة التى تمثل جلال الماضى وأبهته حتى أن البعض عرض مبلغًا طائلاً لشرائهما .

وأرسل الوزير – السفير إلى سيد السلطان ، خبر الثروة المعروضة عليه لقاء شراء الكرسى والمنضدة .

وعلى غير توقع الوزير ، وافق السلطان على الصفقة وباع الوزير تراث الأجداد .

عندئذ أعلن السلطان الخبر لشعبه بعد أن أرسل طالبًا مثول الوزير بين يديه على عجل .

ولأن الشعب كان يجب السلطان الراحل، ويذكر كرم نفسه ، ودفاعه عن حدود بلاده ، وسعيه الحثيث من أجل تحقيق الرفاهية والعدالة للجميع .. استاء من بيع الكرسي والمنضدة اللذين هما رمز سلطانهما العادل .

استنكر الشعب فعلة الوزير الذى كانوا يكرهون تملقه للسلطان ، وطالبوا بإنزال العقاب الصارم بالوزير الذى أساء إلى تراث سلطانهم الراحل الذى لم يترك ثروة ولا أراضى وإنما ترك الكرسى والمنضدة لا غيرهما .

استجاب السلطان لأمانى شعبه فى معاقبة الوزير ، وأحاله إلى القضاء ليأخذ جزاء خيانته وتفريطه بتراث الأجداد .

وبعد عدة جلسات ، وأمام الأدلة الدامغة والبّينة ودهشة الوزير ، وسكوته الذى يعطى أكبر دليل على الجناية التى ارتكبها ، صدر قرار القضاء بالحكم المؤبد على الوزير .

عندئذ ، ارتاح الشعب لقرار الحكم مثلما ارتاح السلطان للحكمة التى اتخذها ضد وزيره الطامع بكرسى ولى الأمر .

***

بقى الوزير فى سجنه سنوات عدة نسيت من جرد الحسابات ومن ذاكرة الناس ، شاخ الوزير فيها، وبلغه المرض وتراكمت عليه الأوجاع إلى أن مات بينما كان السلطان يعد ولى الأمر لتسلم مقاليد البلاد .

فم مملوء بأمواس الحلاقة

كنت أقود سيارتى بهدوء ..

الطريق خال من الزحمة ، وعلى جانبيه تنهض الأشجار بشموخ .

كان إلى جانبى ولدى الوحيد .. يطل بناظريه خارج نافذة السيارة .. وفجأة التفت إلىّ وسألنى :

– بابا .. ماذا تفعل لو أن اطارات سيارتك الأربعة ، أرادت أن تسير وحدها .. كل إطار يسير بالاتجاه الذى يريده ؟

فوجئت بالسؤال ، ولم أكن أعلم بأن ولدى كان منشغلاً عن تأمل الأشجار .. ومفكرًا فى مسألة غريبة على هذا النحو .

ابتسمت ، وحاولت أن أبعد عنه ذلك السؤال الذى خشيت أن يكون مدار تفكيره ، وهدفه فى التأكد من سلامة السيارة .. فسألته :

– وإلى أين ستتوجه تلك الإطارات .. باعتقادك ؟

تأملنى مليًا ثم سألنى :

– أنت .. أنت يا أبى ، إلى أين ستتوجه فى رأيك ؟

فكرت قليلاً .. وحاولت كعادتى أن أحول الأشياء العادية المحيطة بى ، إلى عنصر توجيه تربوى لابنى .. قلت :

– كل إطار ينبغى أن يدور فى محوره .

- وحين لا يفعل .. ؟

- يصبح مساره عشوائيًا .

- لكن المحور يوجه مسار الإطار يريد أن يسير وفق مشيئته .

- ياولدى .. المحور ينظم سير الإطار ، وبدونه يفقد الإطار توازنه ويسقط .

انقطع الحوار بيننا لفترة قصيرة .. وحاولت أن أصرف عنى أسئلة ولدى الملحة ، وأتأمل الطبيعة .. غير أننى لم أفلح .. فقد عاودتنى تلك الأسئلة ، وبدأت أبحث عن كل شىء محوره الذى يرتكز عليه .. الشجرة وجذرها ، الشارع ومركز الأرض ، البيت والأساس الذى يشيد عليه .. و .. الإنسان والقوانين التى تلزمه بالتوافق مع غيره .

وعاد ولدى يسألنى :

- لكنك أنت .. أنت وحدك الذى تتحكم فى كمية الهواء داخل كل إطار وفى كل موسم ..

وأنت وحدك الذى تختار الاتجاه الذى تسير به تلك الإطارات .

قلت لنفسى : هذا الطفل يتحدانى بأسئلة غريبة . . ولا أعلم من أين جاء بها ، وكيف شُغل ذهنه الصغير بها . أجبت :

- يا ولدى .. الإطار والسيارة والطبيعة .. كلها أشياء وأدوات استطاع الإنسان أن يتحكم بها ، ويوظفها لمصلحته .

- لكنه يضطر لخدمتها أحيانًا .. ألم تدفع سيارتك حين تتوقف عن الاستجابة إليك ؟

– أفعل هذا يا ولدى .. فمثلما تخدمنى وتستجيب لطلباتى ، تحتاج هى كذلك إلى عنايتى ورعايتى ..

– ولماذا لا تقوم بخدمة نفسك ؟

– أنا أفعل هذا غالبًا ، ولكن هناك أمورًا بحاجة إلى الآخرين من أجل إنجازها .. وهم كذلك بحاجة إلى ما أستطيع إنجازه لهم ..

– أنتم تتبادلون المنفعة .

– ونحن نتبادل الخبرة ..

– وما الفرق ؟

– الخبرة تؤدى إلى المنفعة .

ابتسم ولدى وقال :

– كالعادة .. حوّلت أسئلتى إلى درس .

واستجبت لابتسامته ..

فى ذلك المساء ، انصرف ذهنى كليًا للتفكير بأسئلة ولدى . . وشرحت أمر تلك الأسئلة إلى زوجتى ، غير أنها لم تنتبه إلى أبعاد تلك الأسئلة .. قالت :

– أسئلة صبى .. أسئلة عابرة ..

عندئذ لم أجد من أحاوره بشأن تلك الأسئلة .. سوى نفسى .

ولم أنم فى تلك الليلة إلا فى ساعة متأخرة على غير عادتى .. واستيقظت على حلم غريب .. أدهشنى ، وأدهش زوجتى كذلك .. لكنها راحت تخفف عنى قائلة :

– الحمد لله .. لقد نجوت ..

وعدت أقص عليها حلمى الغريب :

– لقد وجدت فى فمى العديد من أمواس الحلاقة ، وكنت أخرجها واحدًا واحدًا ..

سألتنى زوجتى :

– هل خرجت الدماء من فمك ؟

– لم أفكر بالدماء .. فكرت فى فمى ونسيت الدماء ..

– لاتشغل بالك .. نم ، نم ، لقد تناولت طعامك فى وقت متأخر .. قل : الحمد لله .

ولم أنم .. أطفأت النور بعد أن تناولت قرصًا من الفاليوم .. وكنت أنشد الراحة بالنوم ، غير أننى لم أفلح .. فقد استعاد ذهنى اسئلة ابنى .

قلت : أحيانًا تنفجر الإطارات حين تزداد الحمولة ، وحين تختنق بالهواء في تجويفها .

وأحيانًا تنفلت عن محورها وتبحث عن السكون بعد أن ظلت تدور حول محورها..

أنا .. أنا مثل هذه الإطارات تمامًا ..

مسحوق دائمًا ، أنفّذ الأوامر ، أستجيب لكل طلب .. وأى محاولة للرفض أو حتى للمناقشة .. تكون نتيجتها عقوبة معلومة ، وعقوبة أخرى غير معلومة .

أنا مؤطر بإنسانيتى .. مؤطر بالناس الذى يحيطون بى ويسيرون مثلى .. وكلنا إطارات ندور فى محور العمل والهموم اليومية .

أنا كائن ملغىّ .. شأني شأن أى إطار .. كيف ؟ أسأل نفسى .. وأجيب :

– منذ الطفولة ، كانت كلمة « نعم » هى أول ما تعلمته .

تعلمت « نعم » قبل أن أتعلم اسم أبى وأمى وإخوتى .. كنت أكره هذه الكلمة .. فقد كانت تعنى بالنسبة لى أن أطيع ، وأن أنفذ .

وكنت انتفخ بالرفض وامتلىء بالغضب .. كالإطار تمامًا.

ألقى بنفسى فى الطرقات .. كالإطار .. وأسير على غير هدى .

ومع أن الإطارات تبدو نظيفة ، مدللة ، مغلفة ، تغسل باستمرار وهى فى جدتها ، إلا أنها سرعان ما تستهلك شيئًا فشيئًا ، لتتحول بعدئذ إلى عجلة فى عربة تجرها الخيول .. ثم يلقى بها فى الطرقات .. وحينئذ يتخذ منها الأطفال الذين لا يعرفون الدمى .. لعبة يدفعون بها فتلوث أصابعهم الفتية وملابسهم التى لا يملكون سواها . وأحيانًا يستخدمها أحد الحرفيين القدامى فى صنع أسفل حذاء .. كما يتخذها البعض فى استخدام مصدر حرارى أو نور فى شتاء قاس ..

وفى القرى يطرد نور تلك الإطارات المحترقة .. تلك الذئاب النهمة إلى الأغنام .. وطوال هذه السنوات كنت أحس بالضغوط تثقل علىّ .

زوجة أبى تأمر .. وأنا ألبى .

معلم الرياضيات يريد أن يملأ رأسى بالأرقام .. وأحفظ الأرقام بلا فهم .

وحين كبرت .. وعرفت الدهشة فى عينى الفتاة التى أحببتها .. استجبت لكلى طلباتها .. وعندما أصبحت رجلاً .. اختار أبى زوجتى .

ولما كانت أمى تحب الأطفال .. نفذت لها طلبها ، وجعلتها تحتفل بطفلى .. وكانت تريد المزيد .

وحينما وجدت طلبات زوجتى وطفلها فى ازدياد مستمر .. أخذت أعمل صباحًا ومساءً .

ولما كنت موظفًا أعمل على الآلة الكاتبة .. بقيت أجمع حروف الأوامر الإدارية ، والعقوبات الإدارية الكثيرة ، وكتاب الشكر النادر .

الآن .. أمتلك سيارة ، أستطيع أن أوجه إطاراتها حسبما أشاء .

والإطارات تلبى وتستجيب .. وأنا ألبى وأستجيب .

ظلت الإطارات وأسئلة ابنى تلاحقنى وأنا أركض .. أركض فى ذلك الليل الشتائى البارد والمطر يتساقط فوق رأسى .

وأنا أركض .. وأركض .. والأضواء خلفى تلاحقنى ، وتناديني أصوات لا أميزها ..

ثم تصرخ بى .. وتمسكنى أيادٍ قاسية ، لم أستطع الانفلات منها ، فصرخت .. حينئذ عرفت بأننى كنت قد نمت قليلاً .

* * *

فى الصباح اتخذت قرارًا ، وعزمت بألا أحيد عنه .

قررت أن أكون إنسانًا يستجيب لقناعاته ، وأن ينفذ ما يراه سليمًا ، ويعكس ذلك سأرفض ، وأحتمل نتائج الرفض .

وكانت النتيجة كالآتى :

فطورى مثل كل صباح .. جبنة وخبز الأمس .

– اليوم أريد أن أغير فطورى .

قلت لزوجتى ، فأجابت :

– ليس لدينا سوى ما تراه أمامك .

خرجت .. وفى الطريق ، تنسمت عذوية الصباح ، قلت : سأفطر فى الدائرة .

تأخر وصول الباص الذى يقلنى إلى عملى ، قلت ؟ سأركب التاكسى ، وأعطيه وفق ما يشير إليه العداد .. ولكن الجميع طالبونى بتحديد الأجرة مسبقًا .

انتظرت الباص ، ووصلت الدائرة متأخرًا نصف ساعة .. ولكنهم سامحونى هذه المرة ، فأنا لم أتأخر من قبل .. ولكن مدير القسم كدس عشرات الكتب أمامى لأقوم بطبعها .

طالبته بتقسيم العمل مع زملائى ، فرفض .. فقال : أنا الذى يقرر .

قلت : وأنا لن أنجز أى قرار غير عادل .

سألنى ، وهل ترى أن كل القرارات التى تطبعها عادلة ؟

أثارنى السؤال ، واجهنى بالحقيقة ، وعادت الأسئلة الملحة ترسم مداها فى ذهنى .. كانت صورة الإطار الذى يسير على كل أرض ، وتتراكم فوقه شتى النفوس والبضائع .. ماثلة أمامى ..

ووجدت نفسى أضرب الحروف والأرقام فوق الآلة الكاتبة .. أقوم بأداء كل الأعمال وأنا منحن .. وفمى مملوء بأمواس الحلاقة .

لماذا أنا حي ؟

لماذا أنا حي .. وكل شيء حولي بدأ يتضاءل وينكمش ويموت ؟

الكلمات التي كنت أصوغها قلائد لمن أحب .. بدأت تستعصي على فمي .. فأقفلته وفضلت الصمت ، والأغاني التي كنت أصغي إليها وأتفاعل معها، مللت منها جميعا ..

وأنفي الذي كانت توقظه عطور الحديقة ، أصيب بحساسية شم الزهور .. وعيناي اللتان كنت أرى فيهما كل جمال الطبيعة كأنما انطفأ نورهما .. وبت لا أرى سوى ظلام روحي ..

لماذا أنا حي .. وكل حواسي معطلة ؟

قلت مخاطبا نفسي :

– لابد من أن أقرأ .. فأنا أعشق القراءة عشقًا لاحدود له .. ساقرأ ، وإلا كيف أرمي بالملل خارج نافذة روحي ؟ توجهت نحو مكتبتي العامرة .. فوقع نظري على عنوان كتاب : (طريق نينوى) لمؤلفه : أوستن هنري لايرد ووجدت في نفسي مرّة مفاجئة وأنا شخصيًا اهوى الطريق إلى مدينتي نينوى .. كون الأفق خارج نافذة السيارة التي تقلني .. أفق متسع بالخضرة والغربة والمجهول .. وقرأت هذه السطور .

« كرتلي أوغلو أحد ولاة الموصل ، أعلن عن مرضه ومن ثم وفاته ،

فخرج الناس إلى الشوارع معلنين عن فرحتهم واستبشارهم ، وفى قمة الفرح ظهر كرتلى أوغلو بكامل عافيته ، محاط بجنده وحرسه .. وتم القاء القبض على المتظاهرين ، فمن كان غنياً دفع فدية عن نفسه ، أما الفقراء فقد أودعوا السجن ولم يعد يسأل عن مصيرهم ..)

طويت صفحات الكتاب ، ورحت أتامل أحزانى .. وأحاول أن أحدد وأشخص طبيعة كل أسى مررت أو سأمر به .. فوجدت أن أحزانى عصية على الاحصاء .

والتقطت ذاكرتى .. صورتى وأنا أقف عند بائع الخضروات صباحًا ، عندما سمعت أحد معارف البائع يسأل :

– هل يمكنك أن تقول لى : ماهو الفرق بين الأستاذ الجامعى والخروف ؟

أجابه بائع الخضروات : وهل هذه مقارنة عادلة ؟

أجاب الآخر : لست مسئولا عن العدالة ، ولكننى مسئول عن نقل الحقيقة إليك ..

– وما هى الحقيقة ؟

– هناك ثلاثة أمور يتساوى فيها الأستاذ الجامعى مع الخروف وهى : أن كلاهما ممنوع من التصدير ، وكلاهما خاضع للوزن ، وكلاهما يعتمد على غذاء نباتى .

ضحك بائع الخضروات ، وأضاف :

– هناك فرق واحد بينهما ..

– ما هو ؟

– أن الخروف يرتفع ثمنه فى زماننا . . سواء كان حيًا أن مذبوحًا ، أما الأستاذ الجامعى ، فإنه .. زهيد ، زهيد الثمن ، حيا وميتا وفيما كنت أسمع وأنا أتضاءل ويتسع حزنى ، تنبه البائع إلى وجودى وسألنى : هل يطلب الأستاذ شيئًا ؟ وعجبت لكلمة (الأستاذ) على لسان البائع ، فربما كشف مظهرى ببذلتى العتيقة التى ضاعت ألوانها ، وربطة عنقى القديمة ونظارتى البائسة .. ليخاطبنى بكلمة (أستاذ) ..

وحاولت أن أصرف خجلى .. سألته :

– هذا التمر .. بكم ؟

– وكنت أتشهى هذا التمر بالذات وأحس بطعمه فى فمى .

خاطبنى البائع برقة :

– هذا التمر .. لايفيدك يا أستاذ ..

– وكيف عرفت أنه لا يفيدنى وأنا قد اخترته بنفسى .. ؟ !

– للنفس ما تشتهى .. وأنا واثق أنه لايفيدك .. ألست موظفا ؟

– بل يفيدنى .. قلت ، وتجاهلت بقية كلامه ..

– سعر الكيلو من هذا التمر ١٥٠ دينارًا ..

فهل يفيدك ؟

انصرفت من دون أن أجيب ، وأنا أسمع ضحكات البائع وصاحبه تلاحقنى ، تجرى ورائى وتريد أن تمسك بى وتسخر منى . ولولا عجزى .. لركضت بعيدًا ..

وصلت إلى مسكنى والإرهاق والحزن ينوءان بى .. فاستقبلتنى زوجى وأطفالى .. وأخذوا منى أكياس النايلون الفارغة .. وتبادلنا الخجل بصمت .

قالت زوجى وهى تدارى خجلى : لدينا طعام يكفينا..

قال ولدى الصغير : ولا حاجة لنا بالفواكهة .. الشاى ألذ .. تناولت صحن البطاطة لليوم السابع مع رغيف خبز تجاوزت جفافه بغمره فى الماء .. وحين انتهيت ، فوجئت بابنتى وهى ترتدى ثوبا جديداً ..

– مبارك .. إنه جميل يليق بك .

– إنه لصديقتى .. نحن نتبادل ثيابنا بين حين وآخر ..

– .. حتى تظهرن بأنكن مترفات ، ولديكن الكثير من الثياب .

– الدنيا مظاهر يا أبى .

ضحكت ، وأنا أحس بأوجاعى تتراكم وأنا أؤجلها .

– وإلى أين ذاهبة يا ابنتى الجميلة ؟

– إلى الحفلة .. حفلة التخرج .. هل نسيت يا أبى ؟ !

– لم أنس .. لم أنس ، ولكننى أردت الاعتذار عن حضور الحفلة معك ..

– هل يغيب أبى عن حفل تخرج ابنته العزيزة ؟

– لا.. ولكن ..

– ولكن ماذا ؟

– ثيابى قديمة ولا تليق بالحفل ..

– أنت .. أنت الأستاذ الجامعى .. تقول هذا يا أبى .. ؟

– يا ابنتى .. ألم تقولى قبل قليل أن الدنيا مظاهر .. !

– هذه المسألة لا تنطبق على أبى ..

– ولماذا ؟

– لأن أبى حالة إستثنائية .. فلقد اكتسب من غزارة علمه ومعرفته كثرة ممن يتولون مراكز وظيفية حساسة . أبى حاضر بشخصة لابثيابه .

ووجدت نفسى استسلم لإلحاح ابنتى . وأعد نفسى لمرافقتها ..

أمسكت بيدى ، وقادتنى إلى طريق فرعى .. قالت :

– أبى .. صديقى وحبيبى يرافقنى ..

ولكن الطريق ليس من هنا يا ابنتى ..

– بل من هنا ..

وسكتت قليلاً ثم قالت .. ليس الطريق المستقيم أقصر الطرق يا أبى ..

– لم أعرف طريقا ملتويا أسير به يا ابنتى ..

– أعرف هذا .. أعرفه جيدًا .. ولهذا نحن هكذا ؟

– وماذا بنا .. نأكل ونشرب ونتنفس ونقرأ .. ألا يكفى كل هذا ؟

ابتسمت ابنتى . ووجدتها تغتصب الابتسامة لتلصقها على شفتيها الورديتين .. قالت :

– حصان الناعور يا أبى .. يشرب ويتنفس كذلك ..

– ولكنه لا يقرأ ولا يفكر .. لايسمع الموسيقى ولايشم عطور الحدائق .. ولا يرى ضوء الشمس . ولايفرق بين الليل والنهار لأنه يعيش بعينين معصوبتين .

– أبى .. هل أنت مقتنع بهذا الكلام ؟

سكتُّ ، بينما كانت نظراتها تنتقل فى ملامح وجهى بحرية .. وحين حاولت السير مجدداً وفق قاعدة الخط المستقيم أقصر الطرق ، سحبتنى من يدى نحو طريق ملتو .

– أبى .. لماذا تحرجنى .. أخشى أن يشاهدنى أحد من الجيران ، وأنا أرتدى ثوب صديقتى التى شاهدوها وهى ترتديه مراراً !

سكت هذه المرة أيضًا وأحسست بساقىّ لاتقويان على حمل جسدى ، غير أننى الزمت نفسى على السير مكرها ، بينما راحت أنفاسى تثقل علىّ .. وفى رأسى دوار .. راقبتنى ابنتى .. وقالت :

– آسفة .. آسفة يا أبى ، وأنا أصارحك .

كانَ السكوت قد لازمنى .. وبات ملاذى الوحيد .

.. وفى الحفل .. كانت ابنتى تتألق بثوبهاالمزهر .. فيما كنت أحس بالثياب تلبسنى ..

.. وفى الحفل .. كانَ علىَ أن أقطع جزءًا من دائرة الحلوى المترفة .. وحين أمسكت بالسكين المضىء .. فوجئت بقطعة الحلوى تصرخ بى والسكين تقطع جزءا من أصابعى .. وأسرعت أكفن أصابعى بمنديلى ..

وكنت حسَن الحظ ، إذ لم ينتبه أحد إلى وجودى ولا إلى ما اقترفته بحق أصابعى ، وأنا أهم بقطع القليل من دائرة الحلوى .. ابنتى كانت فخورة بى فى حفل تخرجها .. تعرفنى بزميلاتها وزملائها وأنا أكتفى بالتحية الإيمائية والابتسامة الباردة التى كنت أغتصبها على شفتى .

أحست ابـنـتـى بـى ، وسـرنـى أن تـكـون ابـنـتـى فـى حـالـة الإحسـاس واليقظة .

ابتسمت على نحو آس وهى تتعرف على أصابعى الجريحة التى نسيت قطع الحلوى منذ زمن ، وصارت خشنة تمارس بداوتها وأميتها على أشياء بات النظر إليها مستحيلاً ! وفى المساء ، عاقبت نفسى بالنظر الإلزامى إلى أغان تلفازية بت أقرف منها لكثرة تكرارها .

وفى المساء أيضًا ، جلست أحدق فى ظلمة حديقة بيتنا الصغيرة .. فانتابنى أحساس بالخيبة ، حين وجدت الأشجار المخضرة والأزهار الملونة وقد اكتست جميعًا بلون أسود .. فيما يتباهى القمر بزيف بياضه وكأنه لم يسرق نوره من طلعة الشمس المدفونة ..

قلت لنفسى :

– لماذا أنا حى ، وكل شىء حولى يتلاشى ويغيب تمامًا ؟ كنت أجد فى حالة الذوبان .. كنت أغيب شيئًا فشيئًا .. وقبل أن أغيب تمامًا سجلب هذه السطور .. ثم وضعت القلم على بقية الورق البيضاء . منتظرا موتى البطىء .

١٩٩٤/٩/٢٢

الغريب

حائر ، لم يسبق له من قبل أن وقع فى مثل هذه الحيرة كل شيء يمكن تداركه ، والوصول إلى وضع حل له ، إلا هذه المسألة ، فمن قبل كان يستأنس برأى صديق أو قريب ، ثم يشاور عقله ويصل إلى نتيجة ، إلا أنه فى هذه المرة بدا قلقا ، متوترا ، حائرا ، لا يعرف كيف يتصرف ، وإلى أين يتجه ، وإلى من يقول ، وبمن يسترشد ؟ .

لا يأمن أحدا فى مثل هذه القضية ، ذلك أن السر فيها عميق ، والبوح به قد يؤدى به إلى التهلكة .

سأل نفسه : هل يعقل أن يتحول بيته إلى مكان آمن ؟ وتذكر بيت أبى سفيان ، فمن دخله بات آمنا ، كما تذكر تلك الحمامات التى تحوم فى إحدى ساحات لندن ، والتى تآلفت مع الناس ، الطيور الآمنة فى مكة المكرمة مصحوبة بالسلام والمحبة والإجلال .

لكن من يكون هو حتى يتخذ قرارًا مثل هذا ، وفى موقف صعب تقود علانيته إلى موت محتم ؟

تصور نفسه ذلك الشخص الذى دق بابه وسلم أمره بين يديه ، قال له :

إننى أريد أن أعيش فى سلام حسب ، لا أريد أن أموت مجانا .

– لكن بلدك يحارب ، وأنت تختار أمنك وسلامتك فى بلد آخر !

– تستطيع أن تقتلنى ، وتكون بطلا ، أو أن تسلمنى إلى السلطة فيكرموا إخلاصك ، ويكبروا شهامتك . وببساطة تؤكد على أنك مواطن صالح ووطنى غيور .

قال فى سره : كيف أستطيع أن أصدقه ، فربما يكون جاسوسا ، جاء يستقى المعلومات ثم يهرب بها إلى بلاده ؟

سأله : وعائلتك ؟

– لا عائلة لى ، كلهم ماتوا فى حرب المدن .

– هل أنت جندى ؟

– كلا ! لكننى مهدد بأن أحمل السلاح وأقاتل فى أى لحظة .

– هل أنت خائف ؟

– لا أريد أن أموت فقط ، لذلك اجتزت الحدود ، وهربت إلى حيث تجدنى هنا ، ولم يكن أمامى من خيار سوى أن أهرب من الموت .

– لكنك هنا مهدد بالأسر ، وبأن تكون تحت الرقابة المشددة .

– معناه أن أكون فى سجن ، أن أحاصر ، شىء واحد إما أن أموت أو أن أكون محاصرا ، سأدع الخيار لك ، بإمكانك أن تدعنى إلى حدود بلدى ، وبإمكانك أن تسلمنى إلى حكومة بلدك ، موت واحد ، اختر لى أحدهما !

كيف يستطيع أن يصدق هذا القادم المجهول ؟ كيف يكشف الأسرار التى فى داخله ؟

كيف يتخلص من المأزق الذى وقع فيه ؟ كيف ينجو من قدره ، ويجعل سلوكه وأمنه فى توافق تام ؟

ماذا كان سيفعل به هذا القادم المجهول لو كان قصده ، ودق بابه ودخل وشرح له ظروف حياته وعبوره الحدود وتسلله إلى منزله ؟

وجه إليّ الغريب هذا السؤال . قال :

صدقنى . أنا مثلك لا أعرف ماذا كنت سأفعل ، إننى أحترم حيرتك وأريد أن أقدم لك مساعدة وأنقذك من حيرتك ، لكننى أحسُ بالعجز .

صمت الغريب قليلا ، ثم قال :

اتخذ قرارا ، اجعلنى أطمئن إلى موتى برصاصه أو موتى بالعبودية .

وجد نفسه فى أقصى مواقع الحيرة ، فقد كان هو أيضًا يخشى أن يموت أو يتهم بالخيانة العظمى ويحكم عليه بالموت .

– هل أدعه يموت ، أم أدع رقبتى للموت ؟

طيور مكة ، وحمامات لندن ، وبيت أبى سفيان فى ذاكرته يقظة ، حية ، لكن الأمر يختلف ، والظروف متغيرة ، وتبرير موقفه ضعيف أمام صرامة الأسئلة التى ستوجه إليه لو عرفوا أمره .

دعاه إلى الطعام ، فاطمأن الغريب ، وصار يأكل بنهم .

كان يحدق إليه بإمعان ، يعريه بصمت ، خشية أن يكون حاملا أجهزة إنصات ، كانت به رغبة فى تفتيشه ، لكنه أحس بأنه ليس من حسن الأدب أن يفتش ضيفه .

ماذا يفعل بهذا الغريب إذن ؟ من جاء به إليه ؟ من أقلق راحة باله وجعله فى هذا الموقف الحرج ؟

قد يكون من أبناء بلده ، وقد جاء يمتحنه ، ذلك أن بيته قريب إلى حدود العدو ، ومن الممكن أن يتسلل إليها العدو على الرغم من صعوبة الأمر ، عندئذ ستكون إدانته واضحة وقاسية .

كان الغريب يملأ عليه الزمان والمكان ، القلب والعقل ، والحواس جميعًا يحس بها معطلة ، ولا سبيل إلى الاطمئنان إليها ، وإلى القبول بقراراتها .

فلقد افتقد توازنه ، وبات أسير ضميره وقراره ، والغريب هادىء بين يديه ، وقد ترك الأمر ليفعل به ما يشاء .

سأله فى محاولة للخلاص منه :

– نحن هنا مهددون بالموت أيضا .

– سأكون مطمئنا لو مت هنا .

– ولماذا ؟

– سأحس بداخلى بأننى قد بذلت جهدا للخلاص من الموت إلى أن حل قدرى .

هذا الغريب ذكى ، يجيب بطريقة مقنعة سأله :

– ما هو عملك ؟

– كنت معلما فى مدرسة مات عدد من تلاميذها ، والبقية فى الأسر ، والقلة يحاربون :

– ومعلمهم يهرب ! ؟

سكت . طال صمته ، وأحس الرجل بأنه قد أهان الغريب وطعنه .

بعد قليل وقف الغريب ، ومد يديه إلى الرجل قال :

– هيا خذنى إلى حكومة بلدك ، قل إنك قد أسرتنى حين كنت أعبر الحدود .

كان محرجا وهو يسلط نظرة انتباه إلى الغريب .

– هيا ! تحول بواسطتى إلى بطل .

انتبه الرجل إلى حدة لغة الغريب ، إلى شجاعته ، وصراحته وقدرته على أن يحارب خوفه .

لم يكن الغريب يحس بالخوف بقدر ما كان يسعى للخلاص من موت مجاني .

هذا ما وصل إلى قناعة الرجل ، وشعر بأنه ضعيف أمام منطق هذا الغريب الذى دق بابه وجلس إلى جانبه يحادثه عن غربته وعزلته ، وعزمه على أن يحارب موته وأن يكون أليفا معه ، عن غير موعد، وغير معرفة سابقة .

لم يكن محور حديثهما السياسة أو الحرب ، كان همهما الآن قد توحد فى كيف ينقذ أحدهما صاحبه من الموت .

الغريب لا يريد أن يتجنى بالخطيئة على الرجل ، فيما كان الآخر لا يريد أن يزج بضيفه في حدود الموت والأسر والعزلة .

اطمأن أحدهما للآخر سريعًا ، والاطمئنان قادهما للتفكير فى كيفية الخلاص من الموت ، وثقل الاطمئنان كان ينوء به الغريب ، فقد انتابه إحساس بالتجنى على الرجل . وخروجه الآن من شأنه أن يجعل الرجل يفقد اطمئنانه وثقته به ، والبقاء فى الدار خطر على كليهما .

أسرار كانت تتداخل فى أعماقهما ، والليلة مؤرقة ، خائفة وجلة .

تظاهر كل منهما بالنوم .

الغريب أشفق على الرجل ، وفكر بأن يسلم نفسه لحرس الحدود .

بينما كان الرجل يفكر بمكان يحفظ به زمن هذا الغريب الذى ناشده حب السلام ، وخاطب فيه إنسانيته .

نهض الغريب بهدوء ، فتح باب الغرفة بهدوء ، بهدوء تام ، فيما كان الرجل يلاحقه بأنظاره ، ويحاول أن يكشف بنفسه ماذا يريد أن يفعل هذا الغريب به . فقد يقتلـه ، وقد يكون مرشدًا لجماعة أخرى تريد أن تتسلل إلى الحدود .

حمل الرجل سلاحه ، وصوبه إليه ، لكنه لم يعجل بإطلاق الرصاصة الأولى ، ذلك أن الغريب لم يترك لديه ما يثير الشبهات إلا فى موقفه الأخير .

لاحقه بصمت ، وقبل أن يكون قريبًا منه ، كانت هناك طلقة تدوى فى عتمة الليل ، انطلقت من مكان غيرمرئى ، فسقط الغريب بصمت .

من بعيد نظر الرجل إلى جثة الغريب ، وانتابه إحساس بالاطمئنان والحزن معا .

كلوستروفوبيا

ثلاث سنوات .. وهذا الشيء الغريب يلاحقه ، ويقصده هو بالذات في الضوء والظلمة .. كلما انفرد بنفسه .. لذلك قرر ألا يكون وحيدًا ، ألا ينام في غرفة منعزلة .

إلا أن هذا الكائن الفظ كان يترصده دائما ، يقصده تحديدًا وبات يعرف متى يكون في عزلة مع جسده وأفكاره ومشاغله التي لم تكن أساسا .. سواه ، سوى هذا الكائن القاسي الذي لايعرف ما الذي يريده منه ..

توجه نحو طبيب نفسي .. قام بفحصه بدقة سأله أسئلة كثيرة وشخص مرضه بكلمة ظل يرددها حتى حفظها كلوستروفوبيا .

ما هي أعراض هذا المرض ، كيف أتخلص منه .. ؟ وطمأنهُ الطبيب قال إنه مرض لاخطر منه ابدًا .. يحتاج منه إلى الصبر والشجاعة والهدوء .

وردد أحمد مع نفسه : الصبر ، الشجاعة . الهدوء . كيف يجمع بين هذه الكلمات ؟ .

لم يصبر . ولم يكن شجاعا يحتمل ذل عدم فهمه للكلمة .. وأحس بالتوتر ، والقلق . سأل الطبيب :

– ما هى أعراض هذا المرض يا دكتور .. ؟ .

تنبه الدكتور إلى أن مريضه يسأله ذات السؤال مرة أخرى ، فى وقت تجاهله فى المرة الأولى ، لئلا يثقل التشخيص على مريضه ، غير أنه وجد فى السؤال قدرًا من الإلحاح ، ورغبة فى معرفة المرض .

حدق فى مريضه مليا .. وقرر أن يكون واضحًا مع مريضه ، خاصة وأن الأمر لا يستدعى الكتمان :

– كلوستروفوبيا يتجلى فى الخوف من الأماكن المغلقة ..

دهش أحمد لتشخيص طبيبه .

قال :

– فعلا .. دكتور ، أحس بالخوف حين أكون وحيدًا فى الغرفة .. المغلقة النوافذ والأبواب ، وبخاصة عندما أكون وحيدًا وفى الظلمة .. أحس بالاختناق والملاحقة .

وتبين الطبيب أن وراء كلمات مريضه أكثر من سر ..

كان قد سأله أسئلة عامة تتعلق باسمه وعمله وسكنه وإن كان يشكو من أعراض مرضية سابقة .. ثم سأله :

– أحمد .. نريد أن نكون أصدقاء .. لا تحاول أن تخبىء عنى شيئا ..

أنا طبيب أعالجك ، ولست محققًا يبحث عن اعترافات تتعلق بجريمة اقترفتها ..

فوجىء أحمد بكلمة جريمة .. جريمة .. فانتفض على شفتيه صرخة !

– لا لست أنا ، لم أقصد ذلك .

وهدأ الطبيب من روعه ..

– أحمد .. ما أنا إلا طبيب يريد معالجتك .. وهذا لايمكن أن يتم مالم أعرف أسباب خوفك من الأماكن المغلقة ..

اطمأن أحمد بعض الشيء .. تناول قدح ماء كان قد وضع أمامه . اتكأ على الكرسي الحديدي ، سحب نفسًا فيه زفرة الحسرة .. وحدق في عيني طبيبه .. فاتسعت عنده حالة الاطمئنان . قال :

– كانت المسألة تتعلق بتقرير مصير .. لاغير ..

فإذا لم أقتله .. قتلني . كان على أن أحسم الموقف سريعًا .

أدرك الطبيب أن وراء مريضه ، جريمة ، لم يقترفها عن عمد .

ولم يكن له خيار فيها .. ويحث عن التفاصيل .. ترك أحمد لصمته .. حتى يستجمع كامل الصورة .. ففي وجهه تعابير توحي بأنه يريد أن يقدم التفاصيل إلى الطبيب ، بعد أن اطمأن كليا إليه وتألف بسرعة معه .. ووثق به ..

– كان جنديا يقاتل في موضع يعود للعدو .. رأيته بعينيّ يترصدني .. رشاشه الآلي السريع الطلقات مصوب نحوي يهددني ويتحداني ..

لم أكن اريد أن اصوب نيران بندقيتي نحوه .. كان وحيدًا في موقعه كما يبدو .. فلم أشهد حركة لسواه .. مثلما كنت وحيدًا وأنا في موقعي أحتمي بشجرة عجوز ضخمة .. ولكنه حين رفع يده ملوحا ، خفت منه . أحسست بأنه يهددني ، يتوعدني ، يقرر مصيري سلفًا .. كنت أرى البريق في عينيه .. كنت أحس بأن كل شيء حولي وحوله قد سار واستقر نحو الفناء .. كأنما الحياة .. الحياة نفسها قد انطفأت وبقينا نحن .. أنا وهو الوحيدان اللذان لم نمت .. كان أثر إطلاقه في ساعدي .. يبعث الألم في شيئا فشيئًا .. كنت أريد مساعدته ، لم أكن أريد قتله .. وهو يرفع يده ملوحًا ويده

الثانية على رشاشته .. يمسك بها بقوة ، وكأنه مستعد تمامًا لإطلاق النار عند أى حركة يتنبه إليها .. كان على قرب منى .. حتى لأحس بأنه يريد أن يلامسنى .. وفى لحظة خوف وجنون .. احسست فيها أنه يريد قتلى .. سيقتلنى لا محالة ..

و .. وجهت نيران نحوه اقتربت منه ، وفى عينيه .. قرأت عتابا مرًا ..

كان قد فقد ساقه أثناء المعركة .. وظل يزحف .. نظرته موجهة نحوى .. مرة ، ومرة نحو ساق تنتمى إليه .. ثم يخليها وحيدة ، يتركها كأى شيء قابل للتركة وللأهمال .. وحتى للتخلص منها لئلا يصل من خلالها العفن !

كنا وحيدين .. عيناه تلاحقانى ، تترصدانى . كان يريد مساعدتى بالتأكيد . كان يتوسل إلىّ قطرة ماء . كان لايقوى على الحركة وعلى النطق ، وعلى تحويل رشاشته .. كانت هكذا مرمية ويده ساكنة فوقها ، توحى لى بأنه يترصدنى .. كان الموت وحده يلاحقنى .. يمسك حنجرتى .. ويضغط . يضغط ..

كانت ساقة تنبض ، تقطر دما .. كانت مخلوقا مخيفا يلاحقنى .. بدلا من ملاحقة الجسد الذى قطعت منه.. خفت ، خفت من ساق مقطوعة .. دم ساخن ، وبقية ثوب ممزق . كان الفجر فى قلب عتمته .. لم أكن أعرف أنه الفجر .. لكن النور بدا يزحف نحو المكان .. كان كل شيء مغلق حولى .. ومع أن الفضاء كان متسعا إلا أننى أحسست بالعزلة والاختناق والملاحقة .. كنت لا أريد أبدًا من غراب ينبهنى إلى دفن الجثة وساقها كنت لا أريد مأساة القتل بين قابيل وهابيل تتكرر أمامى .. تتكرر معى .. أنا القاتل والمقتول !

استخدمت سكين بندقيتى ، وبدأت أحفر . كنت أحفر قبرى .. وقبره .. كنت أرى جثتى مرمية .. وما زال الساق يسيل دما .. أكان كل دم هذا الجندى قد حصر فى هذه الساق .. عجبت ! ونسيت جرحى .. ولم أعرف ما حدث بعدئذ يا دكتور .. حتى وجدت نفسى بين أهلى ..

طمأنه الدكتور .

– لا تخف .. كل شيء يمكن أن يجرى أثناء الحرب . . حالتك سليمة .. أنه خوف مؤقت ، سيذهب عنك هذا الخوف فى القريب .. سأله أحمد بحرارة وتوسل :

– دكتور .. أرجوك ألا تسخر منى .. أنا أعرف علاجى .

– تعرف علاجك ، ولماذا جئت إلىّ ؟

– لأطمئن على سلامة العلاج الذى اتخذه . . عجب الدكتور من أمر مريضه :

– ما هو العلاج الذى ستتخذه ؟

– أن أذهب إليه .. أريد أن أتأكد أن كنت قد دفنته مع ساقة أم تركته هناك .. هناك وحيدًا ، عرضه للتفسخ .. أننى أحسه .. أحسّ بعتابه وهو يخاطبنى :

– ما دمت قد أطلقت الرصاصة الأخيرة علىّ بدلاً من مساعدتى فعلى الأقل .. أطالبك بدفنى .. أنا إنسان مثلك .. فى الموت نتساوى .. فى الموت ليس من عداء .. لو كنت أنت لدفنتك .. صدقنى .. قال الطبيب :

– فى مثل مرضك .. ستتفاقم الأمور .. حيث تقصد المكان نفسه .. الكلوستروفوبيا .. ستتفاقم عندك .. ستكون هناك مضاعفات .

وأعطاه علاجا مهدئا ..

تناول أحمد الأقراص المهدئة لعدة أيام .. غير أن الملاحقة عنده ظلت تشده إلى الخوف واللعنة والهزيمة والموت .

بات يدرك تمامًا أنه يقتل نفسه بإرادته .. ما لم يضع حدًا لهذه الملاحقة التى تنخر فيه ، وتحول كل لحظة من لحظات سكون وهدأته إلى دمار .. إلى موت بطىء ..

كان به إحساس يلح عليه أن يرى المكان ذاته .. أن يقدم خدمة لذات الجسد الذى صرعه .. لذات الساق التى لم تهدأ .. لتلك الآهات التى تقابل وجوده . ثلاث سنوات .. هل هذا ممكن .. يا أحمد . الأرض .. ربما زرعت أو تحولت إلى شارع . الشجرة العجوز ربما جفت أو قطعت .. والجندى القتيل وساقه .. ربما أكلتها الديدان ، ربما دفنا ، ربما نقلا إلى الأهل .. ربما .. ربما .

خاطب نفسه مليا .. تأمل العالم الذى يضيق به .. أدرك تمامًا أن كل الأماكن المحيطة به مغلقة .. مغلقة .. وليس أمامه من سبيل سوى فتحها .. سوى البحث عن أفق .

هدوء .. هدوء الجمجمة نائمة

انفرد بالليل والتراب ، وليس من أحد يشاركه هذا السكون الرهيب ، وينقذه من هذه الوحدة مع الطبيعة فى عالم مجهول .. سوى الفضاء المطلق .

حاول أن يخلق عالم الجماعة حوله ، قال : إن الليل والتراب والفضاء .. أشياء تشكل معى حياة معلومة ، وتصور نفسه ، الإنسان الأول الذى وجد على سطح الأرض ، فليس من أحد يحدثه أو يتحدث إليه ، وليس من مجاهيل يسعى لاكتشافها ، والخوف .. الخوف من المجهول كان يطارده .

الخوف من الموت فى هذا المكان القفر ، والخوف من بلادة الجوع والعطش واليأس ، والخوف ألا يسعفه ذهنه إلى سبيل للنجاة .

هكذا بدا الأمر أمامه لأول وهلة ، والسكون من حوله مقطوع الصلة بالعالم ولا يعلم كيف جاء إلى هنا .. كل ما يعرفه أن هجومًا بدأ ، ودفاعًا قابلة لساعات طويلة ، ثم سكت دوى الرصاص ، وبقى فى أرض مجهولة .

وفكر فى رسم الطريق بين أرض الوطن وأرض العدو ، وانتباه قلق ألا تسعفه ذاكرته وألا يتفقده رفاقه فى حالة غيابه .

كان مثل نبات صحراوى اجرد ، مثل ذرات التراب التى تحملها الريح ، مثل فريسة أفلتت من صيادها ، و .. ومثل نجمة حائرة فى سماء زرقاء متسعة .

هذا التيه قادة للتفكير بالاستسلام أولاً ، وللبحث عن طريق للنجاة .. إلا أن الاتجاه أفلت منه ، ولم يعد يدرك حدود الرؤية واتجاه السير .. كان حائرًا بين ذاك الصخب فى المعركة ، وهذا الصمت المخنوق كالجثة !

أن الصخب والصمت حالتان أزليتان فى بداية ونهاية كل معركة .. هكذا عرف الأمر فى معارك سابقة ، إلا أنه الآن فى حالة جديدة ، حالة الليل القتيل ، والنهار الغائب ، والفضاء الملعون الذى لا حصر لامتداده ، والتراب الذى شرب كل المحيطات وجفت ذراته.

ما العمل إذن ؟

كان لزامًا عليه أن يفكر ، وأدوات تفكيره .. هذا العالم الذى يحيط به ويحاصرة بالصمت .. إن حصار الصمت نوع خاص من التعذيب القاسى الذى يجهل مصدره ، ويبذل جهده للقضاء عليه .. كان الصمت عدوه فى هذا المكان الذى لا يلتمس فيه الضحك ، كما لا يدركه الأنين الذى عرفه من قبل .. فكان يعيش حركة معه ، ويحس أن هذه الأنفاس رغم أوجاعها تشعره بأنه ما زال حيًا .. وبذلك ينشرح صدره وتدب فيه نشوه الحياة ، فتزهر فى قلبه وردة .

لا شيء فى هذا المكان .. سواه .

قال : سأرافق السكون والظمأ والجوع ، ونشكل مع بعضنا جماعة .

السكون يريد أن يغنى ، والظمأ يريد أن يشرب ماء النهر كله ، والجوع يلح عليه أن يأخذ موائد الأغنياء جميعًا ويوزعها بعدالة على المخلوقات الجائعة كلها وحين استجاب لطلب الغناء ، أحسّ بأنه يكشف نفسه ، ويدل الأعداء على مكانه ، فربما كانوا فى مكان قريب منه . وحين خيل إليه أن الماء مدفون فى أعماق التراب راح يحفر بأصابعه وبسلاحه الذى نفدت رصاصاته ولم تبق من صفته كسلاح سوى الحرية ، وراح يحفر بهدوء أولاً ، ثم بعنف . . وشغل أمله بأن يجد الماء والطعام معًا ، وكان يعرف أنه المستحيل ، لكنه أراد أن يتحدى مستحيله هذا وأن يعمل . . . حتى إذا اجهدت عضلاته ، واحس بالتعب . . واجه جهده بأنه على حق ، فقد حفر له موضعًا فى مكان مجهول ، ليكن موضعًا أفضل من أن يكون بائسًا ويسميه ، يسميه .. قبرًا .

راح يحفر بنشاط محموم ، وبجسد منهار . . ثم توقف فجأة . . فقد تخلل الصمت شيء ، بدأ يتكسر بين أصابعه وفى إيقاع ضربات حربة البندقية ...

هذا الشيء الغريب المدفون هنا . . كائن ساحر ، لا هو صخرة ، ولا هو حيوان أو نبات ، شيء لا لون له ولا شكل . . شيء يتكسر كالضلوع ، هش .. وأمسك بهذا الشيء فجأة ، كأنما يخاف أن ينفلت من بين أصابعه ويتسلل من الحفرة ويهاجمه .. هو الأقوى إذن ، ما زال هو الأقوى فى هذا السكون . وأخذ يلمس هذا الشيء فى الظلمة ، محاولاً استعادة رسم معالمه وتحديد هويته . . هو شيء كالكرة ، تجاويفه كثيرة ، وملمسه قاس ، والتراب يتهاوى منه ويتفتت شيئًا فشيئًا .. وخشى أن يغيب هذا الشيء . .

الذى قد يكون كنزًا أو نباتًا أرضيًا ، أو أى شىء يتخيله . . وضاع منه التشخيص ، صار غيابًا كليًا . . توقفت كل حواسه دفعة واحدة ، كان قلبه يخفق وحيدًا ويسمع خفقاته بصوت عال ، فأدرك ضرورة أن يوقف صراخه .. وأن يكون فى حالة استقرار تام . . فقد وصل إلى معلومة أكيدة أن هذا الشىء تحتويه أصابعه ليس إلا جمجمة ، جمجمة .. لإنسان أو حيوان ، لعدو أو لأحد رفاقه ، لكنها جمجمة ، جمجمة مدفونة هنا ، وآثار ليونة وجفاف فى ملمسها . . ارتجف وخاف حين أدرك هذا الشىء الذى بين أصابعه جمجمة . .

وحاول أن يجيب . . الحيوانات لا تدفن قتلاها ، ومثلها النباتات ، تترك مصيرها للطبيعة تفعل بها ما تشاء .. والإنسان وحده كفيل بدفن إنسان مماثل . . . هذه الجمجمة لإنسان ما . .

حاول أن يرمى هذه الكومة من العظام . . فهى جمجمة رجل حمل السلاح ضده ، وبالتالى كان يمكن أن تكون هذه جمجمته هو ، هو نفسه الذى يمسك بجمجمة غيره ولكن لماذا لا يكون العكس ؟

كان حائرًا .. ما الذى يفعله بالجمجمة البشرية ، هل يفكر بأن يحملها هدية ويضعها فى متحف ، وهل يقدمها لمختبر طبى ليدرس تفاصيلها طلبة يرتدون الأكفان ؟

هل يتنكر لها كونها لأحد اعدائه ، هل يحتفظ بها إكرامًا لأحد رفاقه ؟

لو تنكر لها لانتابه الحزن . . فهذا الشىء الذى يلمسه . . رأس كان يفكر ويعشق ويغنى ويبكى .. مثله تمامًا ، ومثل كل واحد من رفاقه .

هل يكون شجاعًا حين يسحق هذه الجمجمة التى كانت نائمة فى تراب مجهول ، وهل تغلب عليه العاطفة حين يمسكها بحنان ويضمها إلى صدره

هل ينتقم من جمجمة ، هل يقاتل الموت الذى يحمله . . . ؟

ظل حائرًا . . وانتابه حزن غريب على هذا الرأس المجهول الذى كان يتنفس الصباح ويقبّل طفلاً ووردة حبيبة .

الرأس . . هذا الحزين من العنف والعاطفة والعقل والهزيمة والحيلة والانتظار والدهشة والثرثرة والفرحة والحزن واللذة والحرمان والصخب والصمت والتوهج والشحوب واللعنة والرحمة ، والهدوء والكذب .. هو أنت ، أو هو .. الآخر . رأس بقيت منه جمجمة ، ويبقى التراب يستر تناقضاتها الحية التى ماتت بشكل مطلق . . والموت المطلق للإنسان لابد أن يدفن حتى يتماشى العفن ، وحتى يبقى الرأس مصدر الأشياء جميعًا .

هى .. جمجمة لا غير ، فلتكن منتصبة فوق أى كائن بشرى . . المهم أنها هنا فى حالة سكون ، وتريد أن تحس بالهدوء وتنام . . تنام طويلاً .

أزاح التراب عن المكان ، وبهدوء وضع الجمجمة وأهال ثوب التراب فوقها . وأعاد التراب إلى الحفرة بهدوء تام . . بهدوء حتى لا يستيقظ الإنسان الذى يسير يقظًا بهذه الجمجمة ..

وزحف بهدوء . . لا بدافع أن تستيقظ الأشياء من حوله ، ولكن بدافع وحيد هو أن تنام الجمجمة نومًا هادئًا .

حكاية تنظيم الأسرة

– كل الحكايات يبدأ الحديث بها ليلاً .. أما حكايتنا فتبدأ وتنتهى نهارًا .

– ولماذا تختار حكايته النهار ، دون سائر الحكايات ؟

– لأن النهار .. ضوء ، وهى حكاية عن الليل ، والليل الطويل الذى يبحث عن أنفاس النهار والنور .

هكذا جرى الحديث بينى وبين عمى الذى كنت أزوره فى فترات متباعدة ، يسحبنى إليه شوق كبير لسماع حكاياته الشائقة التى يكمن فى داخلها مغزى عميق .. يسألنى عن مدى وصولها إلىّ ، بعد كل حكاية .. ورغم أننى ضجرت للمرة الأولى والثانية من هذا الامتحان الذى يلزمنى به عمى ، إلا أننى اعتدت عليه ، وبدأت أصغى بانتباه لأفهم حكاياته وأجيب عن أسئلته وبالتالى أحصل على احترامه وعلى مكافأة كريمة .. بحكاية جديدة .

قال عمى ، بينما كان يلتف حوله أبناؤه :

– هو شاب وديع مثلكم .. مثل كل واحد متفوق فيكم ..

نظر كل واحد إلى الآخر . فعمنا العزيز لا يقول عبارته دون غاية أو قصد .. كان أولاده يدللونه ويستهدفون صداقته مثلما أفعل .. لذلك كانوا يبتسمون ويسألونه : من تقصد يا عم ؟

أقصد المتفوق والوديع منكم .. فمن هو الذى يحمل هاتين الصفتين .. فهو المقصود . كان بيننا من هو خامل وكسول وبليد ومشاكس .. وبيننا من هو جاد فى دراسته ، كيس فى سلوكه ، أليف فى وداعته نقي الحديث ، نبيل الهدف . كنت أتكئ على وسادة . . بينما كان يرقبنى عمى ، وسرعان ما انتبهت إلى أن الوسادة جديرة به ، فحملتها إليه . . وشكرنى بصمته الذى أعرف نطقه . . فقد عرف باننى لمّاح أجيد تفسير كل إشارة أو حركة أو كلمة .

قال :

– كما ذكرت لكم هو شاب وديع متفوق . . بدأ حياته موفقًا فى سلوكه ، على خلق رفيع ونفس أبية . . متقن جيد لواجباته المدرسية ، واثق من عزة نفسه . . لذلك تخطى مراحل الدراسة بجدارة وباحترام معلميه وزملائه . . .

وبعد إنجاز دراسته ، أرسل فى بعثة دراسية إلى الخارج ..

وعاد بعد أعوام وهو أكثر رصانة وأكثر حرصًا على تطبيق ما تعلمه فى الخارج . . وإلا ما معنى أن يراكم الإنسان المعلومات دون أن يهذب سلوكه ، ويترجم ما تعلمه إلى حيز التطبيق ؟

العبارة الأخيرة أثارت انتباهنا مرة أخرى ، فالعم يخاطبنا ويرشدنا من خلال حكايته ..

قلت : يا عم ، ليس بوسع الإنسان تطبيق كل شيء عرفه وسمعه وأتقنه !

– لماذا ؟

– لأن الظروف تختلف .

صمت عمى قليلاً ثم أجاب :

– ليس مهمة الإنسان أن يتكيف للظروف ، وإنما أن يجعلها هى .. تتكيف من أجله .

– وكيف ؟

– بأن يحرص على قناعاته .. وأن يدرك مهماته ..

هتف واحد من أبناء عمى :

– يا عمنا .. لا نريد أن تتحول الحكاية إلى درس مباشر ..

قلت

– ذلك ما تريد الوصول إليه كل الحكايات ..

– لكنها سميت حكايات لا دروسًا . . فلكل منهما قواعده وأصوله .

قال عمى :

– لاتجعل الغضب ينتابك بهذه السرعة يا ولدى .. سنعود إلى الحكاية .. فقد عاد الشاب إلى وطنه ، مملوء بالتفاؤل والحماسة . . وبدأ عمله المبكر فى وضع قواعد لتنظيم أسرته . . فالأسرة مجتمع مصغر ، والتجارب تبدأ بالجزء ثم الكل كما تعلمون ..

وشعرت أنه يخاطبنا مباشرة فى كلامه . . قلت :

– نعلم ذلك يا عم .

قال ابن عمى الآخر : لا تقاطع تسلسل الحكاية .

قلت كما تريد يا ابن العم .

ابتسم عمى وواصل حديثه :

بين الحفاوة والترحيب والإعجاب والاحترام، استجابت الأسرة لطلب الشاب فى إيجاد نظام للأسرة ، وتم تقسيم العمل كالآتى :

الأب .. هو سيد الأسرة وحاكمها وسلطتها العليا .

الأم . جعل منها السلطة التشريعية ..

الأخوة والأخوات .. جعلهم ، السلطة التنفيذية .. .

وجعل من نفسه مستشارًا .

عندئذ احتجت الخادمة وتساءلت عن دورها .. فطمأنها الشاب . وقال أنه لم ينس دورها .. فهو أساسى ومهم فى حياة الأسرة .. واختار لها مهمة أن تكون هى الشعب . . والكل يستهدف تحقيق إنسانيتها .

فرحت الخادمة بدورها ، مثلما فرح الجميع بهذا التنظيم الجديد للأسرة . . ووافقوا عليه بالإجماع . . وبات موضع ثقة الكل ..

مر اليوم الأول بعد تنظيم الأسرة بلا نكد ، فطمأن الشاب على حسن تصرفه ، وسر كونه قد أفلح فى إنجاز شىء جزئى مما تعلمه في الخارج .

ومر اليوم الثانى والثالث . . . والعاشر ، وما رسمه الشاب من خطط يسير بانتظام . . فانشرح صدره .

ولكن مرت أيام ولم يستشره أحد فى أمر ، مما جعله يشك فى طبيعة العلاقات الموجودة فى الأسرة .

وقرر الشاب فى نفسه أن يقوم بجولة تفتيشية ليتبين سير الأمور . وجاء إلى البيت فى غير موعده .. فوجد ما يلى :

كانت السلطة التشريعية نائمة ، مع أن النهار كاد ينتصف .

فيما وجد السلطة التنفيذية .. تلعب فى الحديقة ويناكد أفرادها بعضها الآخر . وراح يفتش عن الحاكم وعن الشعب . . فلم يجدهما ، وفكر بأنهما الأبواب .. وحين فتحه تبين الأمر . . بوضوح . . فقد كان الحاكم يمارس الحب مع الشعب ..

فجع المستشار بما شاهدت عيناه ، وقرر الاعتزال عن منصبه .

وسكت العم .

فسألته هل انتهت الحكاية ؟

قال : نعم .

قلت : قبل أن تسألنى عن مغزى الحكاية لابد أن أقول لك يا عم بأن الحكاية ينبغى أن تبدأ من النهاية ..

– من أية نهاية ؟

– من المستشار الذى اعتزل منصبه .. إنه مهزوم .

– مهزوم أمام السلبيات التى واجهها .

– يا عم .. أنت قلت بأنه وديع ومتفوق .. والوداعة تتطلب حسن الممارسة والتفوق لا يعنى المستحيل ..

– ماذا تقترح أنت ؟

– أن يعمل باتجاه آخر . . أن يجرى العمل على نطاق آخر ..

سأل العم أبناءه ما رأيكم ؟

قالوا نتفق معه .

قال وأنا كذلك ..

اغتيال قوس قزح

الأصدقاء الثلاثة جلسوا يتحدثون فى شؤون المستقبل .

قال الأول : المستقبل بالنسبة لى امرأة .

قال الثانى : والمستقبل عندى طموح لنيل شهادة عليا .

قال الثالث وانا لا افكر إلا فى السلام .

الاصدقاء الثلاثة حددوا أفراحهم التالية فى آخر ليلة من السنة . . ويدأوا يحتفلون بميلاد سنة ميلادية جديدة .. واتفقوا على اللقاء فى ليلة مماثلة من السنة القادمة .. ليعرف كل واحد منهم ما أنجزه الآخر من أمنياته .. فقد اصبح لكل منهم مورده الاقتصادى وعمله الوظيفى .

الأول كان معلمًا ، والثانى مهندسًا ، والثالث صحفيًا .

قال المعلم : لقد اكتفيت بقراءة الكتب المدرسية ، فلماذا أتعب رأسى فى نظريات وأفكار غير قابلة للإنجاز .. لماذا أحلم بما لا يتحقق ؟

قال المهندس : من يتوقف عن الطموح ، يصبح كالماء الساكن .. الشهادة تفتح أمام صاحبها المستقبل .

قال الصحفى : لاشىء ينجز من غير سلام ، لا الصحة ، ولا المعرفة ، ولا المرأة . انتبه إليه المعلم والمهندس . . فأضاف الصحفى يقول :

– من يقرأ لنيل الشهادة أو لتحقيق وظيفة . . خاسر ، فهو يوظف المعرفة لمصلحة ذاتية ، ومن يكتسب المعرفة عن رغبة يحقق لنفسه وللآخرين السعادة .

قال المعلم : بدأت توجه نصائحك . . نحن لسنا من قراء مقالاتك .

– وأنا لا أكتب إليكم .

قال المهندس : ولم تتوجه إذن ؟

– للذين يفتحون أذهانهم ، للذين يصغون إليّ .

– ونحن ألا نصغي إليك ؟ قال المعلم .

– ونحن ألا نحتمل نصائحك ؟ قال المهندس .

– نحن متفقون إذن . . كلنا فى محور الحديث ، قال الصحفى .

كانت الموسيقى تعلو .. والأغانى تنهال من كل جانب ، والحركات الراقصة تناشد اللقاء بالآخرين .. والأقداح تعلو ..

المعلم : لا شيء يعادل سعادة الرقص مع امرأة جميلة .

المهندس : النجاح وحده يجيء بأجمل النساء .

الصحفى : لايقترن الجمال ولا السعادة إلا بالسلام .

وفى آخر الليل اتكأوا على بعضهم ، وتركوا لافتة النادى وراءهم .

كان الفجر فى ذلك الوقت يزحف بهدوء . . والنسيم يرق حاملاً شيئًا من البرودة .

قال المعلم : ماذا ستفعلون فى النهار . . في عطلة هذا النهار ؟

أجاب المهندس : ساقرأ .. وأنام ..

وتحدث الصحفى قائلاً : سأقرأ ، وربما سأكتب .

قال المعلم : أما أنا فسأنام طويلاً ، وأحلم بامرأة جميلة تداعب شعرى وتهمس فى أذنى أغان حنونة ..

وافترقوا .. حاملين مهم التحايا وصور الليلة السعيدة .

فى الأيام التالية .

في الأشهر اللاحقة .

فى عام أتى ..

لم يلتقوا .. كل منهم اعتذر للآخر هاتفيًا .. كل واحد ، واجه صاحبه بتبرير ..

المعلم قال : لدىّ دفاتر امتحانات كثيرة وأريد إنجاز تصحيحها .

المهندس قال : معى تصاميم وخطط أريد إعدادها .

الصحفى قال : الصداع يرافقنى ويرفض التخلى عنى .

– تراصفوا ، تراصفوا . . يا أخوان .

سمع المعلم النداء ، وأدرك أنه يعرف صاحب هذا النداء .

ترك موقفه وتوجه إلى صاحب النداء .

– أنت .. أيها المهندس ..

– أنت .. يا أستاذ ..

– ماذا ستشترى ؟

– البيض والحليب .. وأنت ؟

– وهل تعتقد بأننى سأشترى لأمى زجاجة عطر ؟

ابتسما .. وأدرك كل واحد منهما بأنه مملوء بالأسئلة والكلمات والتفاصيل .

سأل المعلم : ألا نلتقى ؟

المهندس : أتمني ... وصاحبنا الصحفى ؟

– دعه يقرأ ويكتب ويحلم بالسلام .

– أما نحن فسنكتفى بالبيض والحليب . . انتبه إلى تسلسلك ..

وضاع صوتاهما فى الزحمة .

عام آخر تقدم .. وآخر ..

فى العام العاشر على اللقاء الأول .. التقى الأصدقاء الثلاثة .. لم يخططوا للقاء .. لكن الضجر، جعلهم يهربون من محيطهم . . ويتوجهون إلى النادى الوحيد فى مدينتهم ..

هناك كان اللقاء . . وسرهم جميعًا ، اجتماع شملهم بعد سنوات طويلة من الغياب والفرقة والبعاد ..

سأل المعلم : اتفقنا أن نلتقى بعد .. لنتحدث عن أمنياتنا وما ننجزه منها .. والآن بعد عشر سنوات .. دعونا نعيد السؤال .

قال المهندس : ألم تنس .. أية آمنيات .. ؟

قال الصحفى : مازالت مجرد أمنيات ! حدثنا عن أمنياتك يا أستاذ .

سحب المعلم آهة عميقة .. وراح يتحدث بمرارة :

– كانت المرأة بالنسبة لى تمثل السعادة والأمان والاستقرار . . وكنت أحرص على أن تكون زوجتى تماثل أسرتى ووضعى الطبقى والاجتماعى والثقافى . . واعتقدت أن هذا الاختيار سيحقق لى منتهى

الراحة والألفة والانسجام . واخترت معلمة من أقاربى ، على درجة طيبة من الوقار والجمال .. ومن أسرة محافظة ، تحمل قسطًا من الثقافة والوعى .. وكنت شديد الانتباه إليها هى تقصد المكتبة العامة فى المدينة لاستعارة كتب تعينها فى كتابة تقارير مدرسية ، وكنت أساعدها فاختار لها الكتاب المناسب ، وأستعيره باسمى .. ولم تخرج علاقتنا عن هذا الإطار ، فقد كنت اعتقد عن غفلة وسذاجه ، أن علاقة الحب ، علاقة بطر وفساد لايقصد منهاغير تبادل الرغبات ، لذلك حرصت ألا أدخل هذه الفكرة فى ذهنى ، وخاصة بالنسبة للمرأة التى سأتزوجها وتنجب منى ويقترن أسمها باسمى ..

كنت أقول بأن فتاة تقيم علاقة معى ، من السهل أن تقيم علاقة مع شاب آخر ، والفتاة التى أقبلها بفرحة ، يمكن أن يقبلها شاب يغرى جمالهاورقتها فتسهل له عناقها .. لذا كنت شديد الحرص على الزواج من فتاة ، لم يدخل الحب قلبها من قبل ..

قال الصحفى : أمازلت تؤمن بهذه الفكرة ؟

أجاب المعلم : كنت غافلاً ، والغفلة لا تدوم إلى الأبد .

وعلق المهندس قائلاً : هل تؤمن بفكرة الحب .. الآن ؟

بهدوء وتأمل قال المعلم : لاشىء يعادل لحظة حب سعيدة .

– هل جربت حبًا فيما بعد ؟ قال المهندس .

– وهل كان الحب سببًا فى قلقك ؟ قال الصحفى .

– عرفت الحب ، اكتشفته ، كمن اكتشف عالمًا مجهولاً .. قلت نعم ، تعذبت ، وشغلتنى اللهفة .. نعم ، نعم .. لكن صدقونى ، بأن خيبة أملى

لم تأت بعد أن أحببت ، بالعكس ، كنت أتلهف لإقامة علاقة حب مع زوجتى ، فتلك علاقة نبيلة أرضاها لنفسى ولمن احبها .. وللمجتمع ..

الخيبة سبقت علاقة الحب التى أقمتها فيما بعد مع تلك الفتاة . . التى أحسست بأنها جزء منى ، لا أستطيع إهماله أو الخلاص منه .

كانت يقظة ، كالشمس فى رأسى وقلبى ، ومضة وارتعاشة وألق ومجد وحديقة ، كانت جمعًا من الأشياء والأفكار والرؤى ..

كانت مطرًا وقوس قزح .. وربيع حياة ، وزهوًا ليس بمثله شىء . . ليس بعده .. شىء بدأ ولن ينتهى ..

– وزوجتك ؟ سأل المهندس .

– شىء ساكن ، شىء مهمل ، ولكنه كائن ، ولابد أن يكون . . مثلما : تشاهد برامج التلفزيون مكرهًا ..

احتملت ، وثقل حزنى علىّ ..

تحولت إلى زوج لا هم له سوى توفير البيض والحليب ، والصمون الحار كل صباح لزوجته وأبنائه .

– وهل صار لديك أبناء ؟ سأل المهندس .

– ستة . . قال المعلم .

– ربما هم سبب الإشكال بينك وبين زوجتك .. هل انتبهت إلى ذلك ؟ سأل الصحفى .

– انتبهت ، وكنت أعتقد بهذا مثلك . . غير أننى أدركت خطأى . . . بالعكس وجدت فى أطفالى نعيمًا ، وبهجة . . وقد حرصت على استقبال ابتساماتهم بكثير من الرغبة والفرحة والزهو .. وكانوا يقتربون منى ،

يلتفون حولى ، يتسلقون أكتافى ويقبلوننى بلهفة عميقة . . ويتنافسون على النوم فى سريرى . .

ولكنها على مرأى منى كانت تعاملهم بخشونة ، كأنما تريد الانتقام منى بمعاملتهم بجفاء وصرامة ..

– ألم تكتشف السبب . . ألا تعتقد بأنها تحس بانشغالك عنها والتوجه نحوهم ؟

سأل الصحفى .

أجاب المعلم : فكرت بهذا السؤال ، اعتبرته احتمالاً .. وأخذت جزءًا من أوقاتى معهم .. لأكون معها .. ولم يتغير الوضع ..

كانت قبل وجود الأطفال فى حياتنا تثرثر فى أذنى بشأن أمى والجيران والراتب .. أبعدت أمى وجعلتها تعيش مع أخى ، وكنت أحمل إليها النقود والهدايا فتفرح أمى وتعتبرنى ابنًا بارًا لا يصغى إلى كلمات زوجته ..

ولم أفكر براتب زوجتى . . بل كنت أضيف إلى راتبها جزءًا من راتبى .. لأجعلها تحس بأننى لم أتزوجها طمعًا فى راتبها ..

ولا أنكر أنها كانت تنفق الكثير من راتبها على أمور البيت . .

أما الجيران ، فلم يكن بمقدورى أن أفعل شيئًا ضدهم .. لكننى كنت أتحاشى توثيق العلاقات .. وقد انتبهت إلىّ فراحت تبعد نفسها شيئًا فشيئًا عن مشكلات الآخرين ..

لكنها بقيت امرأة ملحاحة ، شديدة الاعتداد بنفسها ، خشنة الطباع ، لا تمر على صغائر الأمور بشكل عابر ، إنما تسعى إلى أن تجعل من أبسط

الأشياء . . اشكالاً صعب الحل، معقد ، والحديث بشأنه لا نهاية له .. حيث تكرره فى مناسبات عديدة .. وبت أخشى الحديث معها فى أبسط الأمور لئلا أدخل فى مأزق يطول أمره ، فكنت أفضل الصمت على الحديث ، وكانت تستاء من صمتى ، فتخلق موضوعًا وتزجنى فى الثرثرة الطويلة بشأنه ولا أنقذ نفسى إلا بادعاء النوم ، أو الانصراف إلى مشاغل غير مهمة وغير مستعجلة ، لكى تنقذنى من (الورطة) .. التى يطول أمد الحديث بشأنها . . دون الوصول إلى نتائج مرضية لهاعلى الأقل .. !

– وماذا أنت فاعل الآن .. ؟ سأل الصحفى .

– وكيف توفق بين زوجتك وأطفالك وحبك الجديد ومشاغلك ؟ سأل المهندس .

قال المعلم .

– هل بمقدور أحد التخلى عن ساق يؤلمه ، عن عين معطلة لاتبصر ، عن شجرة معمرة تضرب بجذورها فى الأرض منذ سنوات ، عن نتوء فى جدار ، عن وشم فى الوجه ، عن ليل ثقيل يأتى ... ؟

كذلك أنا : ليس من السهل علىّ التخلى عن الزوجة .. فأنا إنسان يحمل قيمًا ، ويحترم طباع الناس ، ويؤمن أنه ليس بمقدوره اختيار شريكه وفق مواصفات محددة على مقاييسه.. هذه طباع خشنة لزوجة .. لاتقصدها أنما هى طباع أصيلة فيها .. وكان علىّ أن أعرف هذا من قبل ؟

– أهذا هو السبب الذى جعلك تؤمن بالحب قبل الزواج ؟

قال المهندس .

– الحب .. قبله وبعده .. لا شىء يعادل علاقة حب جميلة – قال المعلم .

– لكن ذلك يؤثر على أسرتك ، وعلى من تحب – قال الصحفى .

– أنت وأنا بإمكاننا أن نحب طلعة الشمس كل صباح .. فهى تذكرنا بالحرية ، وأنا وأنت بوسعنا أن نحب ابتسامة طفل ، فهى تذكرنا بالتفاؤل ، وكلانا يحب رؤية الأزهار وهى تتفتح ، فمنظرها يجعلنا نحس بالرقة ، وليس هناك حب على حساب حب آخر .. من يحب بعقله ، يستطيع أن يتسع قلبه لحب العالم كله .. كل عاشق حقيقى .. إنسان حقيقى بنبله ومواقفه .

– ولكن الأشياء التى نحبها .. نسعى لامتلاكها – قال صحفى .

– ونحن لا نكتفى بالأشياء الصغيرة .. الأشياء الصغيرة تنمو مع توطد العلائق .. من يحب زهرة .. يريد شجرتها . .

أجاب المعلم .

– نحن نحب فصل الربيع ، غير أنه ليس باستطاعتنا أن نجعل الفصول الثلاثة الباقية من السنة ، كلها فصولاً ربيعية ..

علق الصحفى قائلاً :

– لقد تعلمت يا أستاذ .. كيف تناقش ، بالتأكيد علاقة الحب الجديد ، جعلتك تحاور بهدوء ..

ابتسم المعلم وقال :

– علاقة الحب التى لاتضيف شيئًا لأصحابها ، علاقة ميتة ، ثرثارة .. علاقة عابرة ، لاتستهدف إلا تحقيق الرغبات ..

– ومن تحبه ، ترغب فيه .. أليس كذلك ؟ سأل المهندس ..

– أحب أولاً .. الرغبة جزء صغير من وعى متسع وعميق .. أحيانًا تكتفى بابتسامة ..

– وأحيانًا لا تكتفى إلا بإطفاء جمرة الرغبة .. قال الصحفى .

– جمرة الحب لاتضىء على عجل .. الجمرة مشاركة صميمية بين اثنين .. إحساس بدفء خاص . . ضوء الجمرة وحرارتها معًا .

ظل وجه الصحفى يحدق فى وجه المعلم .

ظل وجه المهندس يحدق فى وجه المعلم .

ظل وجه المعلم يحدق فى اللاشىء ..

الوجوه الثلاثة كانت تبحث عن تفاؤلها ، عن إجابات لأسئلة ملحة مكتومة فى الداخل ..

فى ظل الصمت .. تحدث المهندس قائلاً :

– كنت فى كل حياتى أخطط للمستقبل ، كنت أهندس أوقاتى .. والأرقام الرياضية ماثلة أمامى دومًا . . إلى أن فوجئت بإحباط أول ، وثانى .. وعاشر.. مارسمته لمستقبلى .. لم يكن إلا حلمًا !

سأله الصحفى : كيف حدث هذا ، أنت تقيس الزمن ، وتحدد علاقتك بالأشياء والناس بدقة متناهية .. ؟

– تخرجت فى الجامعة ، وكنت أعتقد أن المؤهل الجامعى يتيح لصاحبه فرصة لعمل حسن فى تخصصه الدراسى .. فإذا بشهادتى تركن فى زاوية إدارية ، وأمارس عملاً لا علاقة له بما أعرف .. وقد ألزمنى المدير وفق تعليمات إدارية يحملها .. تخوله إلزامى بإشغال الوظيفة الشاغرة المقعد ..

قال المعلم : ولكنك تجهل العمل المناط بك .. أنت لاتصلح لأمور إدارية تعنى بالصادرة والواردة .. هذا يعنى أنك كائن معطل .. ! ؟

- قلت هذا للمدير ، وقد أجابنى .. بأن المسألة سهلة ، وسأتقنها سريعًا ، وأن راتبى سأتقاضاه كاملاً سواء كنت كاتب صادرة وواردة ، أم كنت مهندسًا.

المعلم : ليست هناك مشكلة إذن .. أنت تستطيع أن توفر البيض والحليب لأمك .

الصحفى : ماذا تقول يا أستاذ ، لماذا نتعلم ونحصل على شهادة تخصص .. المسألة لا تتعلق بالراتب ، بل بأمور العمل ، بعمل ما نعرف .

المهندس : لقد كان تأثير زوجتك عليك كبير جدًا .. لقد نسيت كل ما درسته من شئون تربوية يا أستاذ .. صارت كل الأشياء أمامك واحدة .

المعلم : من شأن الزمن أن يلغى قناعاتك السابقة .

الصحفى : ومن شأن الزمن كذل أن يضيف إليك قناعات جديدة .

صمت المهندس ، وانطبع محياه بحزن ثقيل .. ومضى يقول :

- لم أيأس .. تقدمت بطلب لإكمال دراستى العليا فى تخصصى الهندسى . . وبعد جهد ووساطات وتأثيرات شخصية حصلت على موافقة دائرتى .. ووقفت أنتظر نتائج القبول .

وكانت النتيجة على حافة الفرح وعلى حافة الحزن معًا . كنت أنتظر بابًا إلى حلمى ، ولم يكن المستحيل يدق بابى .. ذلك أننى لا أبغى الكثير ، كل ما فى الأمر أننى حريص على أخذ قسط أوفر من المعرفة فى شئون تخصصى ..

- وماذا كانت النتيجة ؟ سأل المعلم .

- ورد اسمى فى قائمة الاحتياط .. وأدرج اسمى الأول فى القائمة .

وانتظرت انسحاب أحد الطلبة .. وقد تم ذلك فعلاً .. انسحب طالب ، وتفاءلت خيرًا ، فأنا أملك مشروعية القبول .

– بالتأكيد ، فالدولة تدعو إلى مزيد من المعرفة ، وإلى مزيد من التخصص فى المعارف العلمية . قال الصحفى .

– حدث العكس !

– كيف ؟ سأل المعلم .

– مضى يوم ، وآخر .. وأنا أمنى نفسى بالقبول .. كل أوراقى جاهزة ، وانا متواصل مع حقى فى القبول .. متواصل مع الزمان والمكان .. وفوجئت بأن الزمن يتآكل .. كنت صلبًا كالحجر ، لا أنهزم بسرعة . . إلا أن تيارًا قويًا كان يحفر .. يحفر .. فأتاكل شيئًا فشيئًا .

انتظرت ، ودخلت فى إشكالات تقليدية بين دوائر عديدة ، وأنجزت كل ما طلب منى إنجازه .. ثم .. ثم .. اختنق الهواء فى صدرى ، وأفلت منى الأمل ..

جاء آخر وقبل بعدى .. وآخر ، وآخر .. مواعيد ألغت مواعيد ، مواعيد ألغت أوامر إدارية .. وانا أحتبس بالضجة فى داخلى ، وبرهبة الصمت والخيبة .. أسجل ما صدر وماورد .. ولا أبحث عن سبب لعدم قبولى ، فليس هناك من سبب أصلاً .. ولو فتشت وتساءلت بإلحاح عن الأسباب ، لحصلت على أكثر من سبب يمكن أن يكون .. فلماذا لا أراكم نفسى على نفسى .. وأحدق مليًا فى سجل الصادرة والواردة .. وأحتسب أيام شهر يمضى وشهر يأتى وأتقاضى زاتبى .. إكرامًا لكسلى وسكوتى .. ؟

سكت المهندس .

المعلم والصحفى .. احترما سكوت المهندس .

قال الصحفى : جاء دورى .. أليس كذلك ؟

المعلم : قال ، قال .. ماذا تحقق من أمنياتك ؟

الصحفى : المرأة وفشلت معها أو فشلت معك يا أستاذ ..

والشهادة العليا .. وأحبطت فى نيلها يا مهندسنا العزيز .

أنتما معًا ، كنتما تبحثان عن أمنيات ذاتية ، أما أنا فكنت أبحث عن أمنياتى فى أمنيات الآخرين . . كنت أذيب أفكارى وأحلامى فى وجود الآخرين .. كنت أقرأ وأفكر من أجلهم .. فأنا جزء من كل .. وفكرة ذاتية مجردة لاتحقق سلام العالم . طوال الأعوام الماضية .. قرأت الكثير من الكتب والمجلات ، أصغيت إلى نشرات الأخبار العالمية والتعليقات .. يوميًا ، كانت زادى وسهرى وشاغلى .. وكلما كنت ازداد معرفة ، كلما ازددت حزنًا . وثقلت علىّ المتاعب .. لم أكن قاموسًا للمعرفة ، بل كنت أبحث عن الثقافة فى الإنسان .. نموذجها الخيرّ فى سلوكه ومواقفه .. فإذا بى لا أحصد إلا التطرف فى سلوك الآخرين واهتزاز مواقفهم . . وأجدنى فى عزلة .. عزلة تامة .. وتساءلت مع نفسى مرارًا : من هو الخاطىء أنا أم الآخرين :؟ وغالبًا ما كنت أجد نفسى فى كثير من المواقف بأننى على صواب .

الصواب كله : أن نحاور .

والخطأ كله : أن نخاصم بعضنا .

وفى كل مرة أصل فيها إلى هذه القناعة أجد الأمر معكوسًا ..

حرب أهلية فى لبنان .. مع أن شجرة الأرز توحد الجميع بظلالها .

حرب فى اليمن .. مع أن سد مأرب يجمع تاريخ البلاد .

وحروب بين ليبيا وتشاد ، بين السودان والسودان .. بين الهند وجيرانها ، والهند والهند ، بين أرتيريا وأثيوبيا .. و .. وجراح ونيران ونكبات في كل مكان .

العلم أيضًا .. بات يقتل مفاعل تشيرنوبل .. وإلحاح (إسرائيل) على أن يكون لها سلاح نووى فاعل .. حتى تستوطن ما ليس وطنًا لها ..

لا سلام بيني وبين بائع الخضروات .. بات الأمر هكذا .

لا سلام بينى وبين ابنى .. فمن شأنه أن يزايد على حساب أبيه ..

لا سلام بينى .. وبينى .. بين لسانى وقناعاتى . بين جلدى ودمى .. ما الذى أفعله ؟ كيف أقنعكم بما أكتب .. إذا لم أكن مقتنعًا بما أكتب .. كيف أبادلكم ابتسامة زائفة ..

كيف .. ؟

وأصغى إلى المعلم والمهندس .. منتظرًا الجواب .

– أنت ساكت .. لماذا ؟ قال المعلم .

– هل وصل الأمر بك إلى حدود مسدودة ؟ قال المهندس .

– وأنتما .. ؟

– كل أمنياتنا تلاشت .. مثل ألوان قوس قزح قال المهندس .

– اغتيلت .. اغتيلت ..

قال الصحفى : هل تفكران بلقاء آخر .. ؟

سأل المعلم : لنفكر بشىء آخر .. لنفكر بأطفالنا .. يلتقون معًا ، ويرسمون أمنياتهم التى لاتغتال مثل قوس قزح .

ابتسموا بشفاه حزينة .. وظلوا يتحدثون فى شئون عابرة لاعلاقة لها بالمستقبل .. الأصدقاء الثلاثة جلسوا يثرثرون كثيراً ..

فهـــرس

الصفحة

صدر للمؤلف

*** مجاميع قصصية :**

- الغضب / الموصل ٦٧
- ضمير الماء / بيروت ٧٤
- القيد حول عنق الزهرة / بغداد ٧٤
- الحطب / بغداد – بيروت ٧٤
- النهار يدق الأبواب / بغداد ٧٧
- هي إمرأة عراقية / بيروت ٨٢
- الأشواق / بغداد ٨٧
- كتمان / بغداد / ٨٨
- أنفاس / بغداد ٩٣
- كوميديا الكاتب في الزمن الكاذب / دمشق ٩٩
- أجنحة حجرية / بغداد ٢٠٠١
- حدائق عارية / دمشق ٢٠٠١
- اغتيال الحنين (رواية) / بغداد ٢٠٠١
- التوريق ويلع الريق / قصص – تصدر عن دار المدى – دمشق قريبا .

★ دراسات نقدية :

- مقدمة فى مسرح الأطفال / بغداد ٨٥
- فنارات فى قصة والرواية / بغداد ٩٨
- المسرح العراقى / قضايا ومواقف - يصدر ضمن سلسلة الموسوعة الصغيرة - بغداد - قريباً .

★ قصص للأطفال :

- دفاع عن الفرح / بغداد ٧٧
- الفراشات / بغداد ٩٩

★ كتب معدة للطبع :

- ذاكرة القراءة - دراسات نقدية .
- أسئلة المعنى - حوارات فى الفكر والثقافة والابداع .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٧٧٨ / ٢٠٠٢

انزوى الألم فى زاوية عفنة لم تقربها شمس الصباح ، ربما خجلت أن تقترب من العفونة ، ربما كرهت أن تحصر فى زاوية ، ربما قالت ... هناك .. حتى الموت يفكر بالأحياء بدليل أنه يترك أشلاءه لمخلوقات جائعة ... وقد تنبت الأعشاب لمخلوقات .. أخرى .. الشمس والألم والموت .. كل الأشياء تفكر ... إلا هذا الجدار الذى يسقط حجرًا ... حجرًا ... وينخر فيه العفن .. ومع ذلك يزعم أنه باق وشامخ وأعلى مرتبة من كل ما خلق الله.

الغلاف / عبد العزيز السماحى



